النّص المؤسّس ومجتمعه

THE FOUNDED TEXT AND ITS SOCIETY

خليل عبد الكريم

KHALĪL ‘ABD-UL- KARĪM

السفر الأول

FIRST VOLUME

النص المؤسّس ومجتمعه

الكتاب: النص المؤسّس ومجتمعه
المؤلف: خليل عبد الكريم
الناشر: دار مصر المحروسة
الطبعة الثانية: ٢٠٠٢
المدير العام: خالد زغلول
المستشار الفني: عمر الفيومي
مدير النشر والتوزيع: يحيى إسماعيل
الغلاف: عمر الفيومي
رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٣٤/ ٢٠٠٢

خليل عبد الكريم

النص المؤسّس ومجتمعه

السفر الأول

الطبعة الثانية
٢٠٠٢

الإهداء

إلى أحبابي الذين التزموا الصمت المطبق عندما انفجرت براكين الغضب على (فتـــرة التكـــوين) أمنحهم فرصة أخرى ليكرروا الموقف ذاته لأن السكوت ــ حسب منهجهم الجديد ــ مـــن ذهـــب ولكنه ذهب مع الريح وهيهات أن يعود!!

خليل عبد الكريم

[١]

الحبيب المصطفى ــ عليه السلام وعلى آله ــ لم يرَ في حياته مصحفاً ولم نسطر أنه: لـم يقرأ مصحفاً لأنه كما ذكر القرآن العظيم وكما شهد هو على نفسه: أميّ.

وكل من أبي بكر بن أبي قحافة التيميّ وعمر بن الخطاب العدويّ وعدد مـن الصـحابة على ذات الشاكلة أيْ لم يشهدوا مصحفاً.

تلك الحقيقة رغم ثبوتها إن ذكرتها لـِ أي مسلم مهما بلغ حظه من التعليم ــ غير الديني ــ بادر بـِ استنكارها ورماك بـِ الجنون أو أنك تستهزئ به أو ألصق بك تهمة المروق من الإسلام.

هذه المفارقة الصارخة تدعونا أو تضطرنا لـِ التمييز بين القرآن المقروء أو المتلو الـذي حفظته صدور الرجال وبين القرآن المكتوب الذي دوّن إبّان عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفـان الأمويّ.

القرآن المقروء أو المتلو أو المحفوظ في الصدور غض طري يتفجـر نضـارةً وبكـارةً، أبوابه مفتوحة ومداخله ميسرة ومنافذه واسعة ومآتيه سهلة، ومفاتيحه طيّعة.

أما القرآن المدوّن أو المكتوب فـَ تغلفه القداسة وتعلوه المهابـة وهـو محفـود محشـود ومحروس مخفور، تحوطه أسيجة منيعة وأسوار عالية يقف عليها حجّاب وسدنة ومرازبة يحولون بين أي إنسان والاقتراب منه إلاّ إذا حاز صفات حدودها بدقة وعينوها بـِ صـرامة وذكروهـا بـِ تفصيل وهم وحدهم أصحاب الكَلِم الفصل في إحاطته بها واستيعابه إياها وتمكنه منها كيما يتعـين عليه أن يحصل على تصريح من أولئك الحُلاّس مذيل بـِ توقيعهم المهيب وممهـور ب خـاتمهم القدساني.

وترتيباً عليه وكَ نتيجة حتمية له فإن التفاسير الحديثة ليست للقــرآن المجيــد إنمــا هــي للتفاسير التراثية السلفية القديمة التي مرت عليها قرون والتي نُعت بِ أن أمة لا إله إلا الله تلقتهــا بِ القبول والترحاب والتجلّة.

ومن ثم فإن المفسرين المحدثين لا يطرحون تفسيراً لِ النص الأصلي ولا يقدمون تأويلات لِ القرآن الكريم بل ينفحون قراءهم توضــيحات وتحشّــيات وتعليقــات وشــروحاً وتلخيصــات ومختصرات لما في تفسير الطبري والزمخشري والــرازي والكلبــي وابــن كثيــر والقرطبــي والبيضاوي والتستري والسيوطي... الخ.

بل وحتى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مع أن العهد به قريب.

ولذا فَ ابن القارئ غداً يعرف وإذا أحسنا الظن به قلنا إنــه يعلــم آراء أولئــك الأكــابر وأحكامهم ومذاهبهم وتنظيراتهم فَ حسب لا التي جاء بها الذكر الحكيم.

* * *

وهي معضلة لا يُستهان بها ويتوجب الالتفات إليها.

لماذا؟

لأنه مع تقديرنا البالغ لِ أولئك (= المفسرين) الأعاظم فإن ما رقموه في مؤلفــاتهم شــيء وما حمله (مأدبة الله) شيء آخر.

إن المفسر من أولئك الأفذاذ عاش في قرن مُعيّن وبيئة محددة ومجتمع له أبعاده ومناحيــه وأعرافه وموجباته وإكراهاته، وهو نفسه تملك ثقافة خاصة به تفترق بدرجة أو بأخرى عن ثقافــة أقرانه من المعاصرين، وله ذكاؤه وقريحته وذاكرته الحافظة ووعيه وذهنيته ومخيلتــه ومُعتَقَــده ومنحاه الفكري واتجاهه الأيديولوجي ومدرسته الفلسفية ونحلته الكلامية (= علم الكلام)... الخ.

ومن خلال كل هذه القنوات العامة والخاصة تسرب تفسيره أو تأويله، ومن طبائع الأمــور أن يتأثر بها ويتشكل بِ قسماتها ويحمل بصماتها ويتروّح بِ ريحها (= رائحتها) ويتزيا بِ زيهــا ويبرز بآياتها... الخ.

وفي نهاية الأمر وغاية الشوط وآخر المدى ينقلب التفسير إلى نص آخر مغـاير للـنص الأصلي ومفارق ومباين إياه.

[٣]

حدث هذا بِ حذافيره في الفقه المالكي فَ (المدونة) التي أملاها عبد الرحمن بـن القاسـم على أسد بن الفرات ونقلها إلى إفريقية (تونس) ولو أنها مروية عن شيخ المذهب نفسه إلاّ أنها (= المدونة) غدت هي المرجعية التي لا تقبل جدلاً أو مناقشة أو معارضة أو مُحاجّة، وعلى جوانبهـا ألفت الحواشي والتعليقات والمختصرات والتهذيبات... الخ.

حتى يمكن أن نقرر أن مالكية محدثة أو مبتدعة ظهرت واستقرت هناك لا صـلة لهـا بِ مذهب شيخها، وإذا أحسنا الظن ربطتها به علاقة واهية أشد رقة من خيوط العنكبوت.

وغضب مؤرخون وفقهاء عديدون واتهموا من أقدموا على ذلك بـأنهم أفسـدوا مـذهب الأصبحي صاحب الموطأ عالم المدينة مالك بن أنس عطّر الله مثواه.

ونطرح هذا المثل لِ التدليل على أن التـيمم نحـو النصـوص الثانويـة أو الجانبيـة أو الهوامشية والاحتفاء والعناية بها ووضعها في بؤبؤ العين ومركز الرعاية ودائرة الضوء، منحـى له تاريخ عتيق وجذر غائر وأصل ثابت في فضاء الفكر الإسلامي وليس أمراً عارضـاً أو شـأناً هزيلاً أو رافداً محدثا أو بدعةً وافدةً أو سحابة صيف عن قريب تنقشع.

* * *

وهنا مكمن الخطر وبيت الداء وجرثومة العلة وسبب الوهن ومنشأ المرض. إذ لـو أنـه على خلافه لما أثار الانتباه وشد البصر واستوقف التأمل واستدعى التفكر واستنفر التمعن، وميدان أهميته فسيح ومجال أثره وسيع، ومدى فعاليته عريض. ويكفي في هـذه العجالـة التمهيديـة أو التمهيد العجل أن نورد شطراً نحيفاً، وهو أنه يجر دارس القرآن العظيم والباحث في علومه بعيـداً عن ركائزه الأساسية وعمده الرواسخ وأصوله الثوابت إلى مجرد آراء وأنظار وأفكـار فـاه بهـا فلان، ويصرفه عن منابعه

الصافية وعيونه النقية وموارده السائغة إلى مشارب لا تقاس ولا تقارن بها، فـَ أين الأرض من السماء وأين الثرى من الثريا.

[٤]

يبد أنه لِمَ أقدم المفسرون المحدثون عليه نعني الانصراف عن تفسير (السبع المثانى) ذاته والنهل من التفاسير التراثية يقتطعون منها فقرات كوامل قد تطول أو تقصر أو يهذبونها أو يختصرونها أو يعلقون عليها أو يُحَلّون أعناقها بِ الحواشى والشروح والتوضيحات والتبيينات... الخ.

ولا بأس بِ إيراد بعض المفردات الغوامض من النص الأصلي لرفع الستار عن هذا الغموض.

والإجابة على هذا التساؤل لا تحتاج إلى زكانة ولا تتطلب فطانة ولا تستدعي لقانة ولا تستحث لوذعية.

لأن الاتكاء على التفاسير القديمة أو التراثية أو السلفية هو جواز المرور للخطوة بِ رضى المتنفذين في رئاسة شئون التقديس الذين نصبوا أنفسهم حُلاّساً لِ (أحسن القصص) وهو درب الولوج إلى البوابة الملكية التي بدون المروق من عتباتها المهيبة يستحيل عليهم الحصول على الموافقة على نشر تصنيفاتهم وإن تقت إلى الانضباط فهي تجميعاتهم.

* * *

إنّ من أصعب الأمور أن نصدّق أن المفسّر المعاصر الحديث يجهل أن سلفه الصالح قد عاش في زمان غير زمانه وفي مجتمع مغاير لِ مجتمعه وبيئة تخالف بيئته، وتسلح بِ ثقافة مباينة لِ ثقافته، وتزود بِ معارف غير معارفه، وحصل على علوم تفاصل علومه وواكبته أنساق اجتماعية واقتصادية ومعرفية وسياسية وإعلامية وتعليمية... الخ لا وجه لِ المقارنة بينها وبين أندادها من الأنساق التي تحايثه.

ومن أبعد الفروض أن نؤمن أن (= المفسّر المعاصر) لا ينقه (= يفقه) أن تلك الإكراهات جميعها لا بد أن تطبع تفسير سلفه بِ ميسمها، وهذا ما يؤكده ويثبته علم اجتماع المعرفة، بل ما تدركه بدائه العقول إذ تقطع به شواهد الحال، وهذا الدمغ لا يظهر في الأسلوب فقط: تراكيب الجمل،

وصياغة العبارات، واختيار الألفاظ، وانتقاء الكلمات، بل يتعداه إلى الأفكار والتنظيرات والحكم على الأمور وتقييم الوقائع، واستنباط القواعد ومن ثم قيل: إن الإنسان ابن عصره.

* * *

ولِ التدليل عليه نضرب مثلاً سريعاً: فَ عندما (عجائب الآثار في التراجم والآثار) المشهور بِ (تاريخ الجبرتي) لمؤلفه عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، وتطالع أي كتاب لسميّه المؤرخ المعاصر عبد الرحمن الرافعي تلقى بوناً شاسعاً في كل المناحى التي ذكرناها، مع أن الفارق الزمني بينهما لا ينيف على قرنين وربع قرن.

* * *

هنا قد ينبري لنا قارئ فِلْحَاس ويصيح ناعقاً أو ينعق صائحاً: هناك بينونة بين التأريخ والتفسير، إذ إن الأخير يتمحور على نص ونص مقدس يتوجب على المفسر تراثياً أو معاصراً أن يلتزم به ويدور في فلكه ولا يخرج عن نطاقه.

أما المؤرخ فهو يرصد الوقائع ويحللها دون مرجعية أمامه يضطر إلى أن يرتبط بها ويتقيد بِ لزومياتها.

ونعقب عليه فنسطر:

هذا دفع فسيد: لأن وجود الأساس الذي ينبني عليه التفسير لا يلغي خصوصية المفسر ولا ينفي كينونته ولا يغرّب هويته ولا يعدم شخصيته... الخ.

وإلاّ غدت مدونات التفسير نسخة واحدة وهو ما لم يحدث، فضلاً عن أنه لا يفوه به ذو لب صحيح وتفكير سديد وعقل سَوِيّ بل لا يدعيه من له ذرة من وعي أو مُسكة من قريحة.

وكيما نوقف المراء الشكس وننهي الجدل العقيم ونضع حداً للنقاش الفارغ، نهدي القارئ ما دبجه واحد من شوامخ مفسري القرآن المجيد ومن أقدمهم، له في فضاء الفكر الإسلامي مقام محمود ورتبة سامية ودرجة رفيعة، ولد في قرية القداسة ــ بكة ــ في منتصف القرن الهجري الثاني وتلقى العلم على يديه وحدث عنه خلق لا يُحصى من الأثبات المحققين.

ويكفي أن تعرف أن ابن جرير الطبري، شيخ المفسرين وعمدتهم وذروة سنامهم، نقل عنه الكثير في تفسيره الذي لا ينتطح عنزان في قيمته وأنه من أجل التفاسير، ويمكنك أن تصـــرح بِ أنه مقدمها دون معارضة وب لا مجادلة وب غير حجاج.

* * *

[٥]

فَ عندما فسر ابن جريج الآية الكريمة:

(الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلمـــوا أن الله علـــى كل شيء قدير).[١] أورد ما يأتي:

أخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: (سبع سموات ومن الأرض مثلهن) قال: بلغني أن عرض كل أرض مسيرة خمسمائة سنة وأن بين كل أرضين مسيرة الثرى واسمها تخون، وأن أرواح الكفار فيها ولها منها اليوم حنين، فإذا كان يوم القيامة ألقتهم إلى برهـــوت فـــاجتمع أنفـــس المسلمين بالجابية والثرى فوق الصخرة التي قال الله في صـــخرة، والصـــخرة خضـــراء مكللـــة والصخرة على الثور له قرنان وله ثلاث قوائم يبتلع ماء الأرض كلها يوم القيامة والثـــور علـــى الحوت وذنب الحوت عند رأسه مستدير تحت الأرض السفلى وطرفاه منعقدان تحت العرش ويُقال الأرض السفلى على عمد من قرني الثور ويقال بل على ظهره واسمه بهموت ياثرون إنهما نـــزل أهل الجنة فيشبعون من زائد كبد الحوت ورأس الثور، وأخبرت أن عبد الله بن سلام سأل النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ علام الحوت قال على ماء أسود وما أخذ منه الحوت إلاّ كما أخذ حـــوت من حيتانكم من بحر من هذه البحار، وحدثت أن إبليس تغلغل إلى الحوت فعظم له نفســـه وقـــال: ليس خلق بأعظم منك غنى ولا أقوى، فوجد الحوت نفسه فتحرك فمنه تكون الزلزلـــة إذا تحـــرك فبعث الله حوتاً صغيراً فأسكنه في أذنه فإذا ذهب يتحرك تحرك الذي في أذنه فسكن.[٢]

---

(١) الآية ١٢ من سورة الطلاق.

(٢) (تفسير ابن جريج) جمع وتحقيق علي حسن عبد الغني ص ٣٣٣ ــ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م مكتبـــة التراث الإسلامي ــ القاهرة.

ف هنا تجلى بِ وضوح شديد الأفق المعرفي (الابستمولوجى) للمفسّر ونضحت ثقافته على ما خطه قلمه وتبدت معطيات بيئته وما حفل به مجتمعه من أساطير.

ونذكر أنه في ذياك الوقت وجد قصاصون في المساجد والتجمعات الشعبية درجوا على الخوض في كافة المجالات الدينية وأخصها التي تصلح مجالا للتهويلات والخوارق والمدهشات مثل ما حفل به هذا النص المعجب. ومن أغزر الأخبار دلالة أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب العدويّ شجّع أولئك القصاص. خاصة في البلاد التي داسوها بِ سنابك خيولهم المباركة واستعمروها ونهبوا خيراتها بهدف التمكين لِ الدين واللغة اللذين حملوهما للأراضي المغزوة التعيسة.

* * *

ومن الطريف أن محقق الكتاب، وهو كما سطر في المقدمة عضو في هيئة التدريس في كلية جامعية، لم يعقب على هذا النص المدهش ولو بِ جملة أو شبه جملة.

وحراس (العروة الوثقى) من مؤسسة شئون التقديس يجيزون هذا النص وأمثاله، في حين أنهم ينادون بِ مصادرة الآراء أو الأفكار أو المعطيات التي تهدي تجديداً للفكر الديني (الإسلامي) وتنويراً وتثويراً.

ولكي لا نطيل على القارئ نكتفي بِ هذا النص. فهناك العشرات المشابهة التي تطفح بالأسطورية واللاعقلانية والخرافة في التفاسير التراثية خاصة ما يُسمّى «الإسرائيليات» عند تفسير الآيات الكريمة التي تتناول القصص الواردة في العهد القديم الذي يُقال عنه تجاوزاً (التوراة) وكثير منها نقلها مصنفوها أو أوردوها عن عدد من مشاهير الصحابة وفي مقدمتهم عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة وغيرهم.

حقيقة أن المفسرين المحدثين أو المعاصرين تجنبوا ما استطاعوا (الإسرائيليات) و(النصوص المدهشة) كالذي أتحفنا به ابن جريج ولكن في نظرنا هذا المسلك لا يغير من الأمر: إذ ثبوت «الإسرائيليات» و«المعجبات» في أي تفسير من التفسيرات التراثية يكشف بدون لبس وبغير غموض عن

المستوى الثقافي للمفسّر الذي رقمها في مؤلفه ويوضح الرتبة الحضارية لِ المجتمع الذي شبّ فيه والبعد المعرفي لِ البيئة التي نشأ فيها.

وبالتالي من الميسور عليه (على المفسر الحديث/ المعاصر) أن يفطن إلى أن التعويل على ذياك المفسر والاتكاء على أطروحاته خطأ منهجي تماماً كالطبيب الحديث/ المعاصر الذي يداوي مرضاه بِ السنا والسنوت وحبة البركة والفصد والحجامة والرقى... الخ.

هذه واحدة.

* * *

[٦]

أما الأخرى الأوعر والأدهى والأنكى فَ هي:

إيهام القارئ أن هذه الخزعبلات والشعبذات والمخاريق هي عين ما جاء به القرآن الكريم وما هدف إليه وما تغياه.

ولعل من نافلة القول أن نسطّر أنه لا توجد إساءة له أشد، إذ هو منها بريء براءة الذئب من دم الفتى الحليوة يوسف بن يعقوب؛ لأنها تقيم بين القارئ وبين المعطيات الصحيحة لِ الذكر الحكيم سداً منيعاً، وتحول دون فهمه إياها على الوجه السديد وتمنح الطروحات الزيوف سنداً مقدساً مما يشيع الخرافات والجهل لديه وينفحه مناعة ضد قبول العلم وحصانة ضد إعمال العقل وملكة. إن صح هذا اللفظ. العيش في خضم رمال البداوة وهضاب الجهالة وكثبان التخلف.

* * *

ونضع في حجر القارئ علة أخرى لِ خَنَس المفسر المعاصر/ الحديث عن النص الأصلي وهرولته إلى التفاسير التراثية يشرب منها عَلَلاً بعد نَهَل بل يَعبّ منها حتى يتضلع:

الكسل العقلي والاسترخاء الفكري والبلادة الذهنية وجماعها متوافقة تماماً مع حالة التردي الراهنة التي تضرب الشعوب الإسلامية عربية وأعجمية، فَ بِ استقراء تاريخ الفكر الإسلامي نلفى أنه في عصور الانحطاط يختفي أو يكاد الإبداع والاختراع والابتكار ويشيع فيه التكرار والاجترار والاتباع.

وهو بالفعل ما حدث منذ أن بدأ انكسار الحضارة الإسلامية وهبوط خطهـا البيـاني بـل وانحداره بِ شدة، ونستطيع أن نذكر، مع قدر غير قليل من التجاوز، أنه طفق يتحقق منذ القـرن السابع الهجري، إذ تحول التأليف إلى تصنيف وتجميع وتوليف... الخ، وأطلت الرؤوس الشـوهاء للحواشي والتعليقات والملخصات والشروح... الخ.

ومن ثم ف إنه من المؤتلف لهذه السُنّة الاجتماعية أنه لم يظهر فيلسوف بعد ابـن رشـد وتوارى في الظل المجتهد المطلق بعد أئمة المذاهب الأربعة ومن لحق بهم إبان قرنين من الفقهاء ولم يبزغ في سماء علم الكلام نجم ساطع وقمة شامخة ك واصل بن عطاء والجبائيين والجـاحظ والنظام، ولم نر شاعراً مفلقاً مثل أبي تمام والبحتري وجرير والأخطل وبشار بن برد وأبي العلاء المعري.

أما في نطاق المادة المبحوثة فقد انتهى زمن المفسـرين الأكـابر: مقاتـل بـن سـليمان والطبري والقرطبي والرازي والزمخشري والبيضاوي وابن كثير (ولو أنه متأخر نسبياً)... الخ.

ثم نرجع ل سياقة الدراسة: إذن اتخاذ المفسر الحديث/ المعاصـر التفاسـير التراثيـة أو السلفية عكازاً له مسألة طبيعية تناسب ولا تباين وتأتلف ولا تغاير وتوائم ولا تتنافر مـع التخلـف الحالي الذي تعانيه المجتمعات الإسلامية، إذ تصل نسبة الأمية في العديد من دولها إلى أكثر مـن سبعين في المائة، هذا عن الأمية الأبجدية، أما عن الأمية الثقافية فَ حدث ولا حـرج، ويعـيش شطر كبير من شعوبها تحت خط الفقر، ويكفى أن كل أربعة من عشرة أشخاص في مصر علـى ذات الشاكلة، وأن سكان العشوائيات فيها يجاوزون الاثني عشر مليوناً.

ومصر تعد من الذؤابة العليا في الدول العربية ف ما بالك بِ التي تعدن في مؤخرتهـا أو مقعدها أو عجيزتها!!!

إذن من الناحية العلمية يستحيل أن تبرز التفسيرات الحديثة/ المعاصرة بِ هيئة منافرة لما تبدو بها الآن.

فالذين دبجوها هم قطعة من نسيج مجتمعاتهم المهترئة المتردية في وهاد التأخر والتبـدي والتوحش.

ومن جانب آخر: إذا فرضنا جدلاً أن المفسّر الحديث المعاصر أبدع تفسيراً يمتاز

ب الاستنارة ويتضمخ بِ العقلانية وتفوح في جنباته روائح التقدمية فَ

لمن يقدمه؟ ومن يقبل على مطالعته؟

* * *

إن البعد عن التفاسير التقليدية أو التراثية ل القرآن العظيم المدون أو المخطوط أو المكتوب والمعروف بِ «مصحف عثمان» والتوجه نحو القرآن المجيد المتلو والمقروء والذي حفظه الصحابة في صدورهم وهم الذين عرفوا ب «القراء» والذين استشهد منهم في اليمامة في معركة حديقة الموت ضد بني حنيفة المئات، وهو الأمر الذي أفزع العدويّ عمر بن الخطاب فأشار على التيميّ ابن أبي قحافة ب جمع القرآن وتدوينه ــ عبء ثقيل على المفسر الحديث/ المعاصر ولا طاقة له به لأنه يحتاج في البديّ إلى:

أفق وسيع، وقريحة متوقدة، وبصيرة نافذة، وعقلية متفتحة، وفكر جسور. كما يتطلب: صبر أيوب على البحث والدراسة والتنقيب والتنقير في المصادر الأصلية في شتى فروع العلوم الدينية، وهذه التزامات شاقة مجهدة لا طاقة له بها، هذا إن أحسنا الظن به وسلمنا أنه تمتع بِ الملكات العقلية التي ألمعنا إليها في ناصية هذه الفقرة، بقيت فقرتان رشيقتان نختم بهما هذه الفرشة: بيد أن الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة يكافئ ما يبذل في سبيل تحقيقها.

الأولى: إن المفسر الحديث/ المعاصر عندما اختار النقل أو الاقتباس من موسوعات ومؤلفات وكتب التفسير التراثية أو السلفية، علاوة على أنه آثر السلامة وفضل العافية وانحاز لِ رجا «ناحية أو جانب» الدعة فإن احتمالاً قائماً لا نستبعده نحن، وهو أنه غير مؤهل لأن يدرك هو أن الكتب التي جاء بها البطاركة الكمل ــ لا القرآن وحده ــ ليست محتوى لغوياً فَ حسب، بل هي مجموعة من المحتويات منها القصصي، والاجتماعي، والسياسي، والعسكري أو الحربي، والتعليمي، والفقهي... الخ.

وأنه مكتوب بلغة عالية وهو، وهذا خاص بِ القرآن، إذ دخل في علاقة جدلية في شطر وسيع منه ــ مع الواقع المعاش والحياة اليومية لمن تلقوه أو استمعوا إليه ــ فإن هذه اللغة العالية هي التي أتاحت وما زالت تتيح

وسوف تستمر في نفح الفرصة أو الفرص «بِ الجمع» لِ إعادة إنتاج خطاب آخر على هامشه وهو خطاب تفسيره وتأويله، ورقمنا كلمة أو عبارة «على هامشه» لأنه جزماً وحتماً ضرورة انتصاب فارق واضح بين النص الأصلي وهو الذكر الحكيم وبين التفسير.

ومن هنا فإن النص المقدس أو الأصلي ثابت مطلق لا يتغير فيه حرف واحد، أما الخطاب الثاني، وهو التفسير، فهو نسبي متغير متحرك؛ لأنه يتأثر لا بِ الظروف الذاتية لِ مبدعه مثل ثقافته ومنحاه الفكري وأيديولوجيته... الخ، بل وبِ الأحوال العامة لمجتمعه وبيئته من كافة أقطارها: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، فجميعها بغير استثناء تترك بصمات أصابعها على المنتج الثقافي البشري وهو التفسير، وهذا علة اختلاف التفاسير على مر العصور، وهنا مكمن الخطأ المنهجي الذي يرتكبه المفسر الحديث أو المعاصر عندما يهجم على التفاسير القديمة وينقل منها إما بِ فصها ونصها وإما ب معناها.

الأخرى: هي تحليل سريع لخبر ثابت في كتب تاريخ القرآن خاصة ومؤلفات التاريخ «الإسلامي» العام والسيرة والتفسير... الخ، وهو أن العدويّ عمر بن الخطاب أصابه الجزع وأحس بالاضطراب وشعر ب القلق عندما بلغه نبأ قتل مئات من (القراء) أيْ حفظة القرآن في حديقة الموت على يد جنود مسيلمة «الكذاب» زعيم وقائد بني حنيفة.

ما وجه هَلَع العدويّ ابن الخطاب لموت أولئك الحَفَظة وهو يعلم أن القرآن مكتوب على العظام وسعف النخيل والأقتاب والأكتاف؟.. ولماذا اقترح جمع القرآن وكتابته وهو يعرف أنه، فضلاً عن ذلك، محفوظ في صدور المئات في قرية أثرب وغيرها وأنه إن استشهد من الحفاظ مئات فقد بقي منهم أضعاف هذا العدد، إذ إن حفظ القرآن شكل لديهم منقبة يفخر المسلم بها، حتى النِسَون فعلنه؟

وما هو السبب في أن التيميّ أبا بكر تردد في قبول الاقتراح، وأن زيد بن ثابت اليثربيّ قاومه باستماتة ولم يرضخ إلاّ بعد أن ضغط عليه التيميّ والعدويّ؟

لعل الإجابة على جماع هذه التساؤلات هي اعتقاد أبي بكر وزيد بن

ثابت أنه من الأصلح بقاء القرآن العظيم محفوظاً في الصدور: حتى يستمر على نضارته وبكارته وطزاجته وانفتاحه.

ويؤيد هذه الفكرة أن «سيد بني آدم» لم يأمر بِ تدوينه ونقلت إلينا كتب سيرته الزكية أنه دأب على سماعه من عدد من الصحابة مشافهة ومباشرة، ولا يوجد خبر فرد أنه كلف واحداً منهم بِ أن يتلوه عليه من تلك الأدوات المعجبة التي كتب عليها!

إذن المصحف المقروء أو المتلو الذي استودعه الصحاب صدورهم واختزنوه في ذاكرتهم ووعوه في قلوبهم وحده هو الذي تسيد وهيمن طوال الثلاثة والعشرين عاماً، منذ واقعة مغارة حِرَى الخارقة حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً، ثم شطراً من خلافة ابن أبي قحافة التيمي ثم دوّن في صحائف وسلم إلى حفصة بنت عمر إحدى الزوجات التسع لِ «أول من تنشق عنه الأرض». ومع ذلك ظلت الهيمنة والسيادة للحفظ والتلاوة والقراءة «الشفوية» باقي أيام أبي بكر التيميّ ثم طوال عهد العدويّ عمر وشطراً من حكم الأمويّ عثمان، فإذا حسبت هذه المدد وضممتها إلى بعض بلغت أربعين عاماً، وبداهة لا ينال من سيطرة القرآن الكريم المحفوظ في الصدور وجود مصاحف خاصة لدى بعض كبار الصحبة على رأسهم: أبو الحسنيْن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه وعبد الله بن مسعود وأُبيّ وأبو موسى الأشعري، ومن النِسَون التيميّة عائشة؛ لأن هذه حالات استثنائية والاستثناء لا يقاس عليه.

* * *

وبعد هذه الجملة الاعتراضية نؤوُب إلى السياق:

علام يدل تسيد المصحف المتلو أو المقروء أو المحفوظ في صدورهم رجالاً ونسوة لِ مدة نيفت على الأربعين عاماً إن في قرية القداسة بكّة أو في قرية بني قَيْلة، ويمكن أن نضيف إليهما قرية بني ثقيف «الطائف»، مع الوضع في الاعتبار أنها «مدة الأربعين عاماً» ليست عادية؛ لأنها هي التي شهدت الميلاد وعاينت التدشين وحظيت بِ الانبثاق وسعدت بِ الظهور وتمتعت بِ الشروق وتملّت من الطلوع وانفردت بِ البزوغ، والذين عاشوها شكّلوا طليعة التلقي، وجِماعُهُ ميّزها ب البكارة ووسَمها بِ النضارة وحلّى

صدرها بِ الطزاجة وزّين جيدها بِ الانفتاح وهي بكل المقاييس حقبة مدهشة مُعجبة؟.

* * *

وتبعاً لِ ذلك فإن القرآن الكريم الذي هيمن عليها. ونكرر أنه لا يباين القرآن المجيد الــذي تم تدوينه إبان حكم الأمويّ عثمان بن عفان في مصحف واحد. هو الذي يمنح دفعة قوية للتعــرف عليه والتريض في جنباته المؤنقة والتنزه في مروجه المورقة وتنسّم روائحــه العطــرة وتــذوق طروحاته الشهية.

ورأينا أن الطريق إلى ذلك هو التنقير عن أسباب النزول والتنقيب عن الملابســات التــي واكبت ظهور الآيات والوقائع التي حايثت شروق النصوص: لأنها من جانب هي ذاتها التي دفعت الصحاب إلى حفظها ووعيها ودسّها في الذاكرة، وهي ذاكرة تتميز بقــوة الحفــظ والجمــع: لأن البدويّ الأميّ يعتمد عليها بِ الكلية بِ خلاف المتحضر والمتمدين، ومن رجا آخر لها أهمية بالغة وخطر شديد في الكشف عن تاريخ القرآن العظيم، والإبانة عن مساره وإلقاء أضواء كواشف على خطواته.

أما الناحية الثالثة وهي مسك الختام: رفع الستار عن ذلك المجتمع وتلك البيئة في جميــع أقطارهما وهو شأن يفوق في نفاسته ويبز في ثمانته كل ما سبقته: لأن التعرف علــى أحوالهمــا (المجتمع والبيئة) هو الرافعة اليتيمة التي لا ضروب لها لاستخلاص القــيم واســتقطار المعــاني واستخراج الدلالات التي هي ــ دون غيرها ــ المعوّل عليها في النهوض من الكبوة والانفــلات من الوهدة والانعتاق من القيود التي تكبّل مجتمعنا وتمنعه من المضيّ قدماً كيما يلحــق بِ الــذين سبقوه في مضمار الحضارة.

[١]

هل القرآن المقروء والمتلو الذي حفظه الصحابة في صدورهم غير القرآن المدوّن في المصحف الذي كتب في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان الأمويّ؟

بداهة: الإجابة لا، بصورة جازمة لا تدع مجالاً لذرة من لبس ونعوذ بِ الله تعالى أن يفهم القارئ مما سطرناه في «الفرشة» أننا عنينا أنهما قرآنان ونبرأ من مَن يدعيه، إذ هو محض زور وبهتان بل وأكثر.

كل ما في الأمر أن القرآن المقروء والمتلو والمحفوظ في صدور أول من تلقاه من «سيد ولد آدم» وهم صحابته اتسم بِ الحركة والديناميكية، لأنه ارتبط بحيواتهم ومشاغل معاشهم وشئون دنياهم، وقدم حلولاً نواجع لمشكلاتهم، وإجابات مستفيضة على تساؤلاتهم وردوداً بواهر لاستفساراتهم، وهداهم إلى الصواب في ما قطع عليهم مسيرتهم من عقبات كأداء أو عوارض غوامض في كل منحى، بل إن الدائرة اتسعت ب صورة لم تخطر لهم على بال، إذ شملت الخصوصيات الدقيقة مثل النكاح، والطلاق، والظهار، واللعان، ووقت معافسة النِسْوَن في الشهر الفضيل، وهجرهن، وضربهن ضرباً غير مبرّح، ومعاملة الضرائر والمساواة والعدل، وحدد بدقة مكان حرثهن، وكيفية الإنفاق عليهن، ومن يدخل من الخدم والأتباع بيوت أسيادهم ووقته، إلى ما يماثلها أو ما هو دونها من الدقائق والتفصيلات الرفائع.

* * *

أما في العموميات فقد غطّت مجالات الحرب والسلام والهدنة والغنائم والأنفال والأسارى والقتال والزحف والمعاهدات والعفو عمن فرّ من العدو من الصحابة في غزوة أو أكثر وولاهم دبره ومعاملة أهل الكتاب وأهل النفاق والشقاق والأعراب الأشد كفراً ونفاقاً... الخ.

حتى إن المرء لَ يعتريه الدهش ويعلوه التعجب ويتملكه الانبهار من تلك العلاقة الجدلية الحميمة التي نشأت واستمرت أقل قليلاً من ربع قرن بين القرآن العظيم (المتلو) وبين أحوال المجتمعين المكي واليثربي والأفراد الفاعلين في كليهما، فقد تناولهما بِ شمولية فاذة ونسطر ونحن مطمئنون أنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة. وفي نطاق الأفراد لم يقتصر على تبع «أول من تنشق عنه الأرض» بل تعرض للمشركين ورموزهم وللمنافقين وصناديدهم وللأعراب وزعمائهم ولِ أهل الكتاب اليهود وأحبارهم والنصارى وقسسهم وللأصنام وسدنتها وعابديها..

[٢]

بداهة لم نعرّج على ما طرحه (النبأ العظيم) في ناحيتي العقيدة والعبادة؛ لأن هذين الجانبين هما ميدانه الأصيل الرئيس، فإذا لم يأت بهما فَ بأي شيء يجيء؟.

بيد أن الذي يلفت الأنظار بِ شدة ويثير الانتباه بَ قوة ثم يدعو للتفكير ويتطلب التأمل ويستدعي مراجعة النظر، هو أن القرآن المجيد في دائرة العبادة حصراً وتحديداً أجمل ولم يفصّل وأوجز ولم يطل واختصر ولم يطنب، إذ يستحيل عليك أن تعرف منه كيف تؤدي الصلاة، وعلام تزكى، وما مقدار الزكاة في كلٍ؟ وما هي مناسك الحج؟

ومن حق المسلم أن يسأل ــ وهذا على سبيل المثال ــ أيهما أشد خطراً وأكثر أهمية، الصلاة أم اللعان؟

ففي الذكر الحكيم ليس ثمة بيان عن أوقاتها أو عدد ركعاتها أو كيفية إقامتها، في حين أن الملاعنة سيقت في شأنها تفصيلات دقيقة.

والتقليديون أو التراثيون يجيبون على هذا التساؤل الجوهري أن (المثانى/ العربي = القرآن) أوكل مهمة التبيين في الصلاة والزكاة والحج..

إلى «أول شافع وأول مشفع»، بيد أنه رد غير مقنع، إذ من الميسور التعقيب عليه ب الآتي:

إذن لماذا لم يوكله في مسألة اللعان وهي أهون شأنًا وأدنى رتبة وأخفض درجة وأدنى مكانة بِ ما لا يقاس من الصلاة التي هي عمود الدين ومن تركها ف قد هدم الدين؟!!

* * *

إن القرآن العظيم بِ اتفاق السلف والخلف منزه عن المطاعن إذن فَ لأي علة اختط هذا المنهج الذي يبدو للنظرة العجلى والتفكير الفطير والتدبر الناقص أنه مُحيّر أو مربك أو مشكل؟

وقفت عند هذه النقطة من البحث مليّاً وتمعنت في قوادمها طويلاً وتفرست في خوافيها زمناً وأخيراً وفقني الله وله المنة إلى الحل الصحيح:

نصوص الذكر الحكيم أي سوره وآياته انبثقت في حنايا المجتمعيْن المكي واليثربي ومن ثم حملت همومهما وناءت بِ معاناتهما في كل ضروب الحياة كما أوضحنا. ومن هنا جاءت مُنجّمة أو نجوماً أو متفرقة كلما قبّت (= من القبة) نازلة (= واقعة أو حادثة) قابلتها آية أو عدد من الآيات التي تفك عقدتها. وقد حدث أن المخاطب أو المخاطبين بِ الآية أو بضع الآيات إذا شعروا بأنها لم تفك من العقدة إلاّ شطراً منها توجهوا إلى (قطب الأقطاب) وشرحوا له الموقف فأحياناً فوراً وأخرى على التراخي تنبثق آية أو آيات تداوي ما بقي من المعضلة وتزيل ما اعترى نفس الذي تشكى له وفي أوقات أخرى يلمس هو بِ ذاته الشريفة القلق الذي ضرب تبعه أو أصحابه دون تفوه منهم وهنا تبرز آية أو آيات شافية لكل هَمّ، مزيلة لكل غَمّ.

* * *

هذا هو التبيين السليم لعبارة إن القرآن المجيد جاء منجماً وهو بدوره ما يكشف لنا الغطاء ويرفع لنا الستار ويزيح عنا العتمة في معرفة السر وراء استمرار انبعاث سور وآيات القرآن الحكيم لِ مدة ثلاثة وعشرين عاماً.

في حين أن موسى صعد إلى أحد أجْبُل سيناء فـَ أعطاه ربه (لوحي الشهادة لوحي حجـر مكتوبين بـِ أصبع الله).[٢]

أي أن موسى أخذ من معبوده كتابه «عبارة عن لوحين» تفضل بـِ نقشهما بـِ أصبعه فـي لحظة، أي لا تنجيم ولا تفريق، ومن هنا فقد صَفُرَ هذان اللوحَان من المشاغل الحياتيـة والهمـوم المعاشية واقتصرا على ركنى العقيدة: «لا تسجد ل إله آخر لأن الرب غيور إلـه غيـور هـو»، والعبادة وطقوسها المتشابكة وقد حفلت بـِ تفصيلات في غاية التعقيد ولولا ضيق المجـال وأننـا سنبتعد عن جوهر الدراسة ل سطرنا ل القارئ طرفاً ليطلع على تلك الأمشاج المعجبة.

غاية ما يعنينا في هذه الخصوصية أن توراة موسى، إن صح أن ذينك اللوحين هما هي أو هي هما، انحصرت في الركيزتين الرئيستين لِ أي ديانة ونعني: العقيدة والعبادة، ولأنهـا هبطـت من أعلى فـَ قد خلت من شئون الدنيا ومشاكل الحياة ومغالبات العيش ونـذكّر القـارئ ب أننـا نتحدث عن اللوحين اللذين تفضل رب موسى بـِ نفحهما إياه بعد أن تكرم بـِ رقمهما بـِ أصبعه.

أما القرآن العظيم فـَ لم يظهر مرة واحدةَ كـَ اللوحين/ التوراة أو التوراة/ اللـوحين، بـل ظل يترى لِ ما يقرب من ربع قرن من الزمان، والحق أنها حقبة مبهرة مضيئة لم تنل حظها مـن البحث والتنقير ومن ثم تشيأ فيه عنصر العناية المكثفة بـِ الأفـراد والجماعـات بـِ أيـأة بـارزة ملموسة لا تخفى على ذي لُبّ ولا تستبهم على صاحب بصيرة ولا تستشكل على من لديه ذرة من حِجَى، بل لا نغدو مغالين إنه (= عنصر الاهتمام ب الممارسات الحياتية) يكاد يملس بـِ اليد.

وبـِ مفهوم المخالفة فـَ إن حيز العقيدة والعبادة في (الشفاء الكريم) بـرز محـدوداً مـع روعته وعظمته وأصالته.

* * *

هذا هو الفرقان بين التوراة (اللوحين) والقرآن، فـَ الأولى منهما ذكر صاحبها أو متلقيهـا أنها انحدرت إليه من أعلى ونقرها بـِ أصبعه ربه

---

(٢) الإصحاح الحادي والثلاثون من سفر الخروج.

ومعبوده وتسلمها هو منه في برهة يسيرة أو ربما في لمحة خاطفة، لأن هذه اللحظات البـــاهرة لا تقاس بالزمان المعروف لدى الناس بـِ الزمن الوجودي.

أما الآخر، أي الذكر الحكيم، «في الترتيب الزمني والتحقيب التاريخي أما في المرتبة فهو الأول والمهيمن ا.ه» فقد صاحب بني آدم في حلهم وترحالهم. في سفرهم وعَـــدَنهم، فـــي ظَعــنهم وإقامتهم، في فرحهم وترحهم، في حربهم وسلمهم، في عداواتهم وصداقتهم، في بيعهم وشـــرائهم، ورهنهم، في فقرهم وغناهم، داخل بيوتهم وخارجها، في علاقاتهم العائلية وأحوالهم الشخصية، في أفعالهم الحميدة وممارساتهم الذميمة، في أنسابهم وقراباتهم ومع عُبدانهم وإمائهم وحرائرهم، فـــي ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم مع آبائهم وأولادهم وجيرانهم وأصدقائهم وخوَلهم، مع السلطة التي تعلوهم والمستوى الخفيض عنهم، في أسواقهم ومتاجرهم.. إلخ.

في كل هذه المناحى الكثيرة التي تحصى بـِ العشرات لم تغفل عيناه عنهم:

أهدي لكل معضلة حلاً ولكل سؤال جواباً، ولكل نازلة مخرجاً، ولكل حدث حـــديثاً، بـــل أحسن حديث، ولكل همّ فرجاً، ولكل ضائقة توسعة، ولكل ضائقة توسعة، ولكل عقدة فكـــاً، ولكـــل مغْلاق مفتاحاً ولكل مسكوك منفذاً، ولكل جدب غيثاً ولكل إمحال خصباً.. إلخ.

وترتيباً على جماعه تفرشحت فيه مساحة النصوص التي غطّت مغالبات الدنيا ومعالجـــات العيش ومراوضات الحياة.

وهي ميزة رائعة بـِ خاصية فريدة، ومنقبة حميدة، وصفة شامخة تفرد بها القرآن العظـــيم عن سائر الكتب المقدسة المعزوة إلى الديانتيْن الإبراهيميتيْن اللتيْن تقدمتاه تاريخاً لا منزلة ف هـــو وحده ــ وهذه كلمة حق تقال ــ من بينها صاحب المقام المحمود والدرجـــة الرفيعـــة والمرتبـــة المنيفة.

[٣]

وجه تميز الذكر الحكيم هو عنايته الفائقة واهتمامه الشامل بـِ الناس

ورعايته المضاعفة إياهم، ولقد أدرك الصحابة ذلك وفقهوه، ومن هنا تنبع الحقيقة التي تؤكد أنهم أكثر المسلمين فهماً له، وأعمقهم علماً بدخائله ومخارجه، وأغزرهم معرفة بـِ دقائقه، وأوسعهم إحاطة بـِ أسرار تراكيبه، وأحسنهم دراية بـِ منهجه، وأنفذهم بصيرة بـِ أسلوبه، وأعمقهم فطانة بـِ طرائقه في الخطاب، وأصدقهم قريحة في الخبرة بـِ مسالكه، وأحدّهم بصراً في الاهتداء إلى دروبه.. الخ.

ويُرْجِع التراثيون والاتباعيون ذلك إلى سليقتهم العربية الفطرية، ويردد الخلف عن السلف هذه العلة دون تفكير وبـِ لا تدبر وبـِ غير إعمال عقل، في حين أنها (العلة) وإن صحّت فـَ إنها مجزوءة منقوصة، فـَ هناك من بين الصحابة من لا ينطبق عليه هذا النعت، إذ عُرف عن بعضهم لُكنة في الكلام وحُبسة في اللسان وعُجمة في التعبير، منهم على سبيل المثال صهيب الرومي، وسلمان الفارسي.

كما وجد في صفوفهم من نشأ في قبائل بدوية في لهجاتها حوشية وخشونة وبداوة وجفاوة، وأخبرنا القرآن الحميد أن الأعراب أكثرهم لا يعقلون إبان قَصّه عن أعراب بني تميم الذين نادوا (سيد العرب والعجم) من وراء الحجرات، وبلغت بهم السفاهة والحماقة أنهم طلبوا منافرته، والذي لا يعقل لا يبين إنما يصدر عنه صخب وضجيج وجلبة تصم الآذان.

إذن ليس الشأن منحصراً في تذوق فصاحة القرآن وبلاغته ونصاعة أسلوبه هذه الصفات التي لا يماري فيها أحد وأنها التي حدت بـ الصحابة إلى استيعابه والإلمام به لأن القضية لا تخص اللغة وحدها.

وإذا صدق بـِ النسبة لمعلقة أو قصيدة لـ امرئ القيس أو النابغة أو زهير بن أبي سلمى أو حتى لِ حسان بن ثابت أو الخنساء، فـَ إنه من الركاكة والفهاهة والعَيّ سحب هذا الحكم على القرآن العظيم.

* * *

إن الصحابة عندما ينسب إلى جانبهم أعمق المسلمين قاطبة فهماً واستيعاباً وفقها وإدراكاً وعلما بـِ الذكر الحكيم، خاصة الكوكبة اللامعة التي أحاطت بـِ «أول من يفيق من الصعقة» والذين درج المسلمون سلفهم وخلفهم على وصفهم بـِ علماء الصحابة، إنما مرده ومرجعه في نظرنا

أنهم وقد رافقوا «الأمين المأمون» في غالبية أوقاته فطنوا إلى المرونة التي حايثت ظهور الآيات الكريمة والأسباب والمناسبات التي واكبتها، حتى إن بعضهم وأشهرهم في هذا المجال العدويّ عمر بن الخطاب، الذي أصبح فيما بعد خليفةً، دأب على نطق بعض عبارات، فَ إذا بعد قليل يتلو «الحبيب المصطفى» آية أو آيات تتضمنها أو يشير ب رأي في موقف معين فَ يقرأ «مقدم ولد عدنان» آية أو آيات تقننه.

وشارك بعض الصحابة عمر في هذا المنحى ــ كما سوف يتموضع في الفصول القوادم ــ إنما لَحِقَ «هذا البعض» به وجاء مصلياً «تالياً أو لاحقاً» للعدوي.

إذن نقه «فقه» الصحابة، أو إذا شئنا التعيين علماؤهم آصرة القرآن العظيم الحميمة ب المجتمع ووجود علاقة تبادلية مع ظروفه تستقر حلولاً أو فتاوى أو استشارات أو علماً أو معرفة أو آراء ــ يقبل الذكر الحكيم إما سريعاً كما في مسألة الظهار وإما بعد برهة ب مَا يقرّ العيون ويثلج الصدور ويسر القلوب.. الخ.

وبداهة تكرر عشرات المرات أمام عيون الصحبة اللوذعية الفطنة فَ ترسب في أعماق يقينهم تحقق وشيجة ملتبكة بين نوازل المجتمع وبين الآيات الكريمة وأنه يمكن أن يُدّعى بِ غير تجاوز أن الأولى مقتضيات حتمية لإعلان الأخرى أو أنهما أشبه بِ الإيجاب والقبول إذا استعرنا لغة الفقه في نطاق العقود.

وهذا التفطن يفسّر لنا ما فاه به أثبات علماء الصحابة وعلى الذؤابة رأسهم وسيدهم أبو الحسنيْن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وطيب الله ثراه، أنه يعلم سبب أو مناسبة كل سورة وآية ومتى نزلت وأين نزلت..؟

أما عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة، وهي معدودة منهم، فقد صرحت بِ وجود الوثاق الحِواري بين القرآن الكريم وبين موقف حَسّاس، وهو إقدام امرأة أو نِسْوَن على هبة نفسها أو أنفسهن لِ «المنصور بِ الرعب قرابة شهر» ولعل الذي وزّ التيمية على المشافهة به علتان:

الأولى: حداثة سنها إذ إنها عندما انتقل «سيد الخلق» إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً لم تجاوز الثامنة عشرة من عمرها.

الأخرى: أن الموقف حزَبَها وضيّق صدرها وأثار حفيظتها، لأنه سوف

يضيف إلى ضرائرها الثماني ضرة أو ضرائر وهي ليست في حاجة إلى مزيد، ومن ثم أفلتت منها تلك العبارات التي رقمنا في كتابات لنا سوابق أنه لا يجرؤ مسلم غيرها صحابي أو غير صحابي على التلفظ بها.

وأيا هو الأمر فَ الذي لا مشاحة فيه أن تصريح ابنة أبي بكر غني ب الدلالات ملئ بِ المعطيات حافل ب المعاني وفي ذروة سنامها تأكيد الحبل المتين الذي يربط بين القرآن الحكيم وبين ما تتابع في حنايا أبطن تجمعاتهم من حوادث وأحداث.

* * *

لا يفهم من هذا الطرح أن كل ما انتصب في سور وآيات القرآن العظيم استجابة ل موجبات فعاليات المجتمعيْن المكيّ واليثربي وما اضطرب بِ في أحشائهما. فَ هذا بِ القطع غير دقيق بِ المرة إنما الذي نرقمه أن شطراً وسيعاً منه هيمن على تلك المجالى المركبة.

ولا نلقى أصدق من «أسباب النزول» دليلاً على ما نذهب إليه، فَ **هي** محيط عميق يموج ب أشتات من الأخبار تلمس فيها باليد قبل العين استقرار الصلة بين نصوص (الأمر/ البشري = القرآن) ومن توجه إليهم.

وفي ذات الوقت فَ إنه عين ما قصدناه بالقرآن المقروء والمتلو الذي حفظته صدور الصحاب المتصف ب الجدة والإبداع والطرافة لأنه داوى اسقاماً عملية ورفع حواجز واقعية وأزال عقبات معاشية ويسرّ صعوبات حياتية وقدم لها الحلول النواجع.

* * *

وليس مدلوله أن التي لاءمت أو ناسبت مفتتح القرن الأول الهجري تصلح للمستجدات المدهشة لِ فواتح القرن الخامس عشر الهجري أو أواسطه أو خواتمه إنما الذي نتغياه مُعطَيان:

الأول: أن القرآن العظيم نص مفتوح ومحاولة تسييجه ضررها أضعاف نفعها ويكفي أنه تفضل بِ دور في غاية الروعة وهو الارتباط العضوي بِ المجتمع الذي انبثق بين جنباته سواء في بكّة أو يثرب.

فَ على من يود تفسيره مجتهداً أو غير متوانٍ أن يؤمه مباشرة خاصة ما وصفناه بِ القرآن المقروء والمتلو الذي حفظ في صدور الصحابة الذي

أبرزت قسماته «أسباب النزول» أما الاتكاء على التفاسير العتيقة، مع بالغ التقدير بها، فإنه يجافى المنهج الموضوعي العلمي في التفسير.

الآخر: أن «أسباب النزول» وما كشفت عنه بِ جسارة من حلول وآراء وفتاوى واستشارات ومعارف وعلوم واكبت الآيات التي تُليت زمنها فلا يتطلب إنزالها بِ حرفياتها على مستجدات هذا القرن الحالي إنما الهدف هو الاستهداء ف حسب ب المبادئ أو القيم التي نستطيع استقطارها منها، لأن العبرة بِ المعاني لا بِ المباني. وإذ إنها كما ذكرنا مقطع كبير من القرآن المقروء أو المتلو فإنها أولى ب الإرقال صوبها للحصول على مفاتيح التفسير المستنير للقرآن العظيم.

* * *

لم يقتصر القرآن الكريم على الاهتمام بِ المجتمعين المكي واليثربي وأفراد كل منهما سواء من الذكور أو الإناث بل إنه أولى «سيد الناس ومقدم العرب» رعاية تميزت ب الكثافة والتركيز البالغين فقد تناول كافة شئونه الخاصة منها بل شديدة الخصوصية:

فعلى سبيل المثال عندما تتفق عليه زوجتان من زوجاته التسع أو يتعاقدن جميعهن على طلب زيادة النفقة عليهن وشيئاً من التوسعة أو تكتشف إحداهن أنه مَسّ جاريته على فرشها وفي حجرتها ف هنا تظهر آية أو آيات كريمة تزيل عنه الغمة. وكذا حُلّت معضلة زواجه من السيدة الفائقة الحسن والبهاء التي تزوجها قبله عبده ثم ابنه عن طريق التبني ثم مولاه، ودرج تقليد راسخ بينهم على تحريم هذا النكاح بِ ورود آية فكّت العقدة وأبطلت ذاك العرف المستقر وسخّفته واستهجنته وأحلت زواج الرجل بزوجة ابنه المتبنى حتى ولو دخل بها وعاشرها وبذا حُقّ لِ تلك الزوجة الوسيمة القسيمة الفاتنة أن تفخر على سائر نسوته، لأن كلا منهن زوجها وليها في حين أنها الوحيدة التي جاء أمر نكاحها في الذكر الحكيم وبسببه أيضاً تم تحطيم قاعدة صلبة مضت عليها مئات الأعوام وهي تحريم حليلة الابن بالتبني.

وفي ليلة عرسها أطال المدعُوون إلى الوليمة المكث لديه وهو أمر يقطع بِ قلة الذوق ويشي بسوء الأدب وينبئ عن الخشونة وينضح بالبداوة. إذ

من حق «سيد عدنان» أن يدخل سريعاً على عروسه الوضيئة الجميلة، فـَ انبرى القـرآن العظـيم وظهرت منه آية كريمة عابت على الضيوف الثقلاء لُبـثهم غيـر اللائـق وأمـرتهم بـِ سـرعة الانصراف.

وتجرأ نفر من المنافقين وبعض رقيقي الإيمان وعدد من المسلمين لا شك في إسلامهم بيد أن عقولهم خفيفة وأخلاقهم طَفِسة ونفوسهم معقدة رموا أحب زوجات «المعصوم من الناس» وهي إبّان ذاك في الثالثة عشرة من عمرها بـِ تهمة حقيرة هي منها بريئة كل البراءة وأشـاعوا عنهـا إفكاً وبهتاناً. فتصدى لهم الذكر الحكيم وأعلن براءة الزوجة الحدثة الصغيرة السن وزَيّف وبطلان أكاذيب السفلة أصحاب الإفك وفرج عن «أبي القاسم» أزمة نفسية قاسية ألمت به.

وفي غزوة أخرى فقدت ذات الزوجة الحبيبة الحديثة العمر عقدها فـ حـبس الأصـحاب على التماسه مما دعا أباها التيميّ إلى أن يصيح في وجهها أنها في كل سفرة بلاء وعنـاء علـى الناس. ونتيجة له تعذر على المسلمين أداء الصلاة لانعدام الماء في الموضع: القفر وفجأة أقبلـت آية قرآنية حلّت العقدة وفكّت الأزمة فأباحت التيمم.

في سورة غضب أعلن صحابي أنه سوف ينكح ذات الزوجة الشابة بعد وفاة محمد، لأنهـا فضلاً عن صغر سنها حلوة مُلاّحة وتمت إليه «الصحابي» بـِ قرابة حميمة ورغـم أن «الشـفيع المشفع» بشَّره بـِ دخول الجنة إلا أنه أثبت أنه يتمتع بـِ غلظ في الحس وسـماجة فـي الشـعور وانحطاط في الأدب إذ لا يُتصور في رجل متحضر أن يخبر آخر أنه ما إن يموت حتى يهـرول إلى نكاح امرأته.

ولـِ ندع الصحابي الجلف كيما نعود إلى سياقه الدراسة:

إن كلماته الفلوت آذت أحاسيس «رافع لواء الحمد» وآلمت نفسه بيد أن القرآن لـم يتركـه يعاني المواجع في هلّت إحدى آياته الحكيمة تحرّم نكاح زوجاته التسع بعد انتقالـه إلـى الرفيـق الأعلى راضياً مرضياً وتوافقت (= الآية) بـِ الكلية مع اللقب الذي تحمله كـل مـنهن وهـو «أم المؤمنين» وعلى طول التاريخ لم نقرأ عن شريعة أباحـت زواج الأم فضـلاً عـن أن الطبيعـة البشرية السوية تنفر منه وتستقبحه.

أقدمت بعض النسون على هبة أنفسهن لـ «صاحب السيف» لكي تنال

شرفاً منيفاً ما بعده رفعة ولِ تحمل اللقب الباذخ «أم المؤمنين» بيد أنه أصاب زوجاته ب قدر مـن القلق وشيء من الغضب كرد فعل طبيعي، كما أنه سوف ينعكس على تصرفاتهن معـه خاصـة الوضيئات منهن مثل عائشة وأم سلمة وزينب جحش مما سيصيبه ب عنت ومشـقة، فَ أشـرقت آيات كريمات تناولت الأزمة العارضة ب ما فيه رضاه وإياهن.

قبيل فتح الفتوح «فتح مكة» أرسل «الحبيب المحتبى» عمرو بن أميـة الضـمري إلـى الحبشة لِ يخطب له أم حبيبة بنت أبي سفيان، وقد دلت هذه البادرة على حنكة محمد السياسية التي لا ضروب لها لأن ابن حرب ابن أمية غدا زعيم مكة وسيدها فبارك الذكر الحكيم هـذه الخطـوة الذكية واللفتة التي تنم عن فطنة فاذة في الآية السابعة من سورة الممتحنة «عسـى الله أن يجعـل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة». نكتفي بِ هذه الأمثلة الثرّة الدلالة التي سقناها ل الكشف عن جانب هام من جوانب معطيات الذكر الحكيم في العناية ب الأحوال الشخصية ل «مَن سيفه علـى عاتقه».

* * *

كتب الكثيرون، من المستحيل إحصاؤهم، عن إعجاز القرآن سواء من السلف أو الخلـف ومن العرب والأعاجم وبِ غالبية اللغات وتطرقت بحوثهم القيمة ل شتى وجوهه ولكن على حـد علمنا لم يرقم أحدهم سطراً فرداً عن هذا المقطع ونعنى به الاهتمام الشديد بِ القائـد والمجتمـع وأفراده الفاعلين فيه وطوائفه المختلفة من كافة الزوايا التي ذكرنا حفنة منها ــ إذ إننا لم نسـتوفها على بكرة أبيها ــ ولم يمد باحث منهم قلمه إلى العلاقة الجدلية التي ربطـت بِ آصـرة محكمـة الأسر أولئك بالآيات الكريمة والتي بنظرنا نفحت القرآن الحميد الحيوية الفائقة والنضارة الدائمـة والبكارة الخالدة وجعلت منه مَعِيناً دفاقاً لا ينضب ماؤه ولا يغيض تدفقه ولا ينقص عطاؤه.

بِ هذه الميزة الرائعة والخاصية الفاذة والصفة الفريـدة هـيمن علـى كتـابيْ الـديانتيْن الإبراهيميتيْن اللتيْن تقدمتا عليه في تاريخ الظهور لا في المكانة أو المنزلة أو المقام.

إن الالتفات إلى المخاطَبين في جميع أوقاتهم وضروب معائشهم

ومختلف مواقفهم، والأخذ بـِ أيديهم إلى الأمثل، وهدايتهم إلى الأصوب، وإرشادهم إلـى الأقـوم دليل لا يقبل المحاجة وحجة لا ترقى لمستواها المجادلة وبرهان لا يناله الوَهَن على أنـه الكتـاب العريّ عن الشبيه، والعديم عن المثيل، والبعيد عن القرين.

بـِ ذات المستوى وفي نفس الدرجة بزغت حياطته بـِ القائد وشموله ب السـهر والحـدب عليه وإشعاره بـِ أنه محط الموالاة وتحت مظلة الحفظ وداخل جناح الحراسة وفـي بؤبـؤ عـين الصيانة.

* * *

إن كتابي الديانتين السابقتين تحدثا عن معجزات البطاركة الأكابر منهم إبـراهيم وموسـى وعيسى بيد أنهما صفرا صفوراً تاما «جاءا خاليين» من التعريج على أحوالهمـا وفـي مقـدمها الخاصة والشخصية. في حين أن ذلك شكّل معلماً بارزاً في الذكر الحكيم بالنسبة إلى من «جعلـت له الأرض مسجداً» وإلى المجتمعيْن المكي والأثربي.

إن تناول الخوارق يتعلق بـِ الغيبيات والماورائيات والمتيافيزيقا أو ما خلف الطبيعة، أمـا الكلام عن الشئون الحياتية والممارسات المعاشية والأنشطة اليومية، فهو يتصل بوثاقة محكمـة بـِ الناس في مختلف تقلباتهم، وشتان بـِ من يقلب من أجل الهُشُوشة والهامشية والطرفية ومن يحصر همته في القلب والمركز والجوف «الباطن» والمقارنة تغدو مجحفة بين من يصوّب نظـره إلـى العرَض وبين من ينفذ بـِ بصيرته إلى الجوهر.

إن العجائب والمدهشات والمذهلات موقوتة سرعان ما يخبو ضوؤها وتذهب لمعتها ويذبل نورها، في حين أن المعاشيات والحياتيات والفعاليات ثابتة أصلية أساسية. بـِ معنـى أن الأولـى تحيّر من خُوطبوا بها وتدلّه الذين عاينوها وتربك معاصريها. وعند هذا الحـد يتبخـر مفعولهـا ويغيض آثرها وتنتهي النتيجة المرجوة منها. أما الأخرى فهي تمس واقع المخاطَبين بها ثم يمتـد مسيلها إلى الأجيال والقرون المتطاولة التي تُخلق بعدهم. ولا يفهم منه أن تطبيق النصوص التـي حملتها يتم حرفياً إنما نعني الاستهداء بـِ معانيها والاسترشاد بـِ قيمها والـتفطن علـى أهـدافها ومعرفة دوالها وإدراك مراميها وفقه غاياتها، فـَ سنرى فيما يأتي من

فصول أن بعضها قصد التخفيف فَ ننقه أن (= التخفيف) منهج (الحبل/ القيم). وآخر نهى عن اللعب أو الهزء بِ الألفاظ التي تتعلق بِ الروابط الأسرية فَ يترسخ لدينا اليقين بِ عظم شأنها، وثالث عاب تقديم الشيء الرديء عند إخراج الصدقة «الزكاة» فَ نتأكد أنها ركن ركين يتوجب علينا أداؤه على الوجه المرضي، ورابع يحكي عن تآمر الضرائر فَ نخلص إلى أن نكاح مرتين أو ثلاث أو أربع خيبة قوية، وخامس يخبرنا عن صحابي نال من مرة ما دون فرجها وآخر ضرب حسناء جميلة على عجيزتها المكتنزة ثم استغفر كل منهما وصلى وورد أن الحسنات يذهبن السيئات، فَ ندرك أن الضعف البشري أمر وارد لأن كل بني آدم خطاء وأن دواءه التوبة والإنابة... وسادس ينقل إلينا صبر «متمم مكارم الأخلاق» على بذاءات اليهود والجدال العنيف الذي أثاره النصارى فَ نتعلم درساً نحن في أمس الحاجة إليه في ضرورة التعايش مع أهل الكتاب والتحاور معهم بِ التي هي أحسن. وسابع ينهى عن النكول عن أداء الشهادة ف لا نتردد في القيام بها.. ونكتفي بِ هذه الأمثلة السبعة لأن فيها غناء، وقد تعمدنا أن نبلغ بها هذا العدد لأن له قداسة في الديانات الإبراهيمية الثلاث وقيل إنهم نقشوا تقديسه من الديانات السامية التي سبقتها والتي ظلت مهيمنة على ذات المنطقة قرونا متطاولة. والقرآن العظيم ينص على تداول الأيام بين الناس ولعل أبرز ما يؤكد صدقه هو أن عبادة آمون رع استمرت، على ما ذكر علماء المصريات «الإيجيبتولوجي» دهراً مديداً حتى قيل لن ينقطع «وهو شطر بيت ل شاعر عربي».

ثم نؤوب إلى سياق البحث:

لعل من لديه أدنى مُسكة من عقل سليم قد اقتنع أن منهج القرآن الحميد في هذه الخصوصية وهو الحِياطة بِ «صفوة البشر» والعناية بِ المجتمع وأعضائه وانتصاب وشيجة متينة وتشابك متداخل والتفاف ملتحم بين آياته وهؤلاء في سائر ظروفهم وأوقاتهم، هو المنهج الأمثل وبه بزّ الكتابين المقدسين السابقين وفَلج عليهما وغدا بِ حق «كتاب الحياة».

* * *

بيد أن سلوكه هذا المنهاج أدى بطريق الحتم واللزوم إلى انفجار ما

عُرف ب ظاهرة النسخ فيه. فـَ في المائة والأربع عشرة سورة توجد إحدى وسبعون منها بها نسخ «أي ما يقرب من ثلثيها» منها خمس وعشرون سورة فيها ناسخ ومنسوخ وست منها تحتوي على ناسخ والأربعون الباقية تضم المنسوخ فقط.

وقديماً أثار اليهود لغطاً حول النسخ ب حجة أن البِدَاء لا يجوز في الكتب المقدسة. «والبداء هو الإفضاء بقول ثم يعرض لصاحبه ما هو أحسن منه ف يفوه به وينبذ الأول»، بدليل أن التوراة خلت تماما من النسخ وكثيراً ما سألوا «أعظم الكائنات» يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملةً واحدةً كما أنزلت التوراة على موسى ــ فـَ رد عليهم القرآن العظيم: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة».(٤)

لقد أثبت اليهود طيش أحلامهم وقلة عقولهم وقصر نظرهم وعتامة بصيرتهم وضيق أفقهم، إذ يعتبرون أن مجيء الكتاب مرة واحدة منقبة ويعدونه محمدة ويرون أنه ميزة ويذهبون إلى أن تنجيمه نقيصة ويحسبونه عيباً ويُطبقون على أنهُ ثلمة ويجمعون على أنه مَذمّة. في حين أن العكس هو الصحيح والنقيض هو السليم والمخالف هو السديد، لأنه (= التنجيم) هو الذي يوائم الناس أو المخاطبين ويسد خلاتهم ويفي ب حاجاتهم ويحقق أغراضهم ويشد ظهورهم ويقوي ضعفهم ويهدي خطواتهم.

في حين أن كتاب الدفعة الواحدة لا يحقق شيئاً.

ومن هنا برزت التوراة التي في أيدي اليهود مليئة بِ الأساطير حافلة بِ الخرافات طافحة بِ الشعبذات ونرجّح أن مرده: محاولة ملء الفراغ وإلهاء المخاطَبين عن الإخلال الذي اعتورها نتيجة لازمة لِ انحدارها من عَلٍ دفعة واحدة ومن ثم فـَ هذا هو سبب اقتصارها على المعجزات والمدهشات والمخاريق.

* * *

إن التمييز بين القرآن المقروء/ المتلو ــ المحفوظ في صدور الصحبة وبين القرآن المدون في عهد عثمان الأموي ليس بدعة حسنة بل أمر مقرر

---

(٤) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره وأورده السيوطي في الإتقان.

التفت إليه البُحاث القدامى وسطروه في مؤلفاتهم وبداهة ليس من الضروري ذكر التفرقة بـِ فصها ونصها بل يكفي إدراكها من جماع ما رقموه.

أورد الإمام شهاب الدين القَسْطلاّني في كتابه «لطائف الإشارات ل فنون القـراءات: «فـَ تلقاه» يعني «القرآن المجيد» أصحابه «أي الأمين المأمون» منه غضا وأدوه إلى من تلقـاه عـنهم خالصاً محضاً».[٥]

والقسطلاني من علماء القرن العاشر الهجري أي انصرمت على تدوين مصحف عثمـان الأموي تسعة قرون وقرابة ربع قرن عند وفاته، بيد أنه يحدد ب منتهـى الدقـة القـرآن الـنص الخالص المحض الذي كنّه الصحاب في صدورهم ثم تلوه على التابعين كما تلقوه مـن (الإنسـان الكامل/ لابس الصوف).

وهي عبارات صريحة النص والدلالة معاً على ذيّاك التمييز الذي نسخناه في بـديّ هـذه الفقرة وليس ضربة لازب أن يسطره القسطلاني بـِ حروفه.

* * *

أما الإمام السيوطي فله ثلاثة مصنفات تناول فيها «أسباب النزول» خصّص أحـدها لهـا والثاني عنوانه: «التحبير في علم التفسير» تناولها فيه في النوع الحادي عشر والثالـث أشـهرها: «الإتقان في علوم القرآن» وقد أفرد فيه لها النوع التاسع سماه «معرفة سبب النـزول» ودرسـها بتوسع.

وهو أيضاً من علماء القرن العاشر الهجري مثل القسطلاني وفي كتابه الأخير سلط حزمة من الضوء الباهر على الصحابة الذين شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسـباب التـي لا تصـح إلاّ بالرواية عنهم والسماع من شفاههم ثم حمل إلينا خبراً غنياً بالدلالات والمُعطيات وهـو أن محمـد بن سيرين سأل عبيدة عن آية من القرآن فقال له: اتقِ الله وقل سداداً، ذهب الذين يعلمـون فيمـا أنزل القرآن.[٦]

السيوطي يخلص إلى أن الصحابة هم الذين حظوا بـِ رؤية السور والآيات وهي تشـرق، ومن ثم وقفوا على معرفة أسباب بزوغها وأن عبيدة

---

(٥) (لطائف الإشارات ل فنون القراءات) للإمام شهاب الـدين القسـطلاني ٨٥١/ ٩٣٢هـ الجـزء الأول ص ٢١ تحقيق وتعليق الشيخ عامر السيد عثمان ودكتور عبد الصبور شاهين ـــ من إصدارات المجلس الأعلى ل الشـئون الإسلامية ـــ لجنة إحياء التراث الإسلامي ـــ الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

(٦) «الإتقان في علوم القرآن» ل السيوطي ت ٥٩١١ ص ٤١ ـــ الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م. نشرته مكتبة مصطفى البابي الحلبي ب مصر.

لما سأله محمد بن سيرين عن آية كريمة «يعني سبب ظهورها» رد عليه ب أن الصحابة الذين عاصروها وتحققوا منها انتقلوا إلى رحمة الله.

إشارة واضحة لا تخفى على الفطن اللبيب إلى القرآن الذي حفظته صدورهم ووعته قلوبهم وقد سبقت تلك المحاورةُ المُوحيةُ التي جرت بين عبيدة وابن سيرين تأليف الكتب في فرع «أسباب النزول» أحد فروع «علوم القرآن». وإلاّ لرجع ابن سيرين إلى أحدها إنما الذي يهمنا أن ما طلع به علينا السيوطي ترميز جليّ لِ القرآن المتلو المحفوظ في حنايا صدور الأصحاب.

والسيوطي، كلما أسلفنا، من علماء القرن العاشر ولدى وفاته مضت تسعة قرون وعقد على كتابة مصحف الأمويّ عثمان بن عفان ومع ذلك سيطر على وجدانه القرآن المجيد الذي وصفه نديده ومعاصره القسطلاني بأنه غض ومحض وخالص.

ونكتفي ب شهادة هذيْن الإماميْن العالميْن العَلَميْن ل إزالة ما قد يحيك في قلب أي قارئ أو يسوط في صدره أو يشوش عقله القول ب ضرورة التمييز بين القرآن المتلو المقروء/ المحفوظ وبين المدون ب معرفة الأمويّ عثمان بن عفان وتحت رقابته وإبان خلافته التي أثبتنا بِ الأدلة في كتاب لنا سابق أنها بدأت التحوّل إلى ملك عضوض ثم تم على الأيادي المباركة ل أبناء عمومته من الفرعيْن الأموي والسفياني.

وعسى أن تولدت عند القارئ قناعة كاملة ب هذه الحقيقة البالغة الخطر نكرر ما سلف ورقمناه أنهما قرآن واحد مجيد بيد أن النظرة لأحدهما تفاصل النظرة ل الآخر، إنما هذا لا يعني بحال أنهما اثنان ونعوذ بِ الله تعالى منه ونبرأ ممن يذهب إليه.

ولسنَا بصدد تأليف كتاب في «أسباب النزول» فـَ هذا الفرع الهام من فروع علوم القرآن أخذ حظاً لا بأس به من العناية وإن لم يصل إلى مستوى علم التفسير، إذ كتب فيه قدامى ومحدثون أو سلف وخلف بيد من أبرزها كتاب «أسباب النزول» ل أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري المتوفى سنة ٤٦٨هـ وقد طبع في مصر وغيرها عدة طبعات، وفي الصفحات الأولى يذهب إلى أن «أسباب النزول» هي «أوفى ما يجب الوقوف عليها وأولى ما تصرف العناية إليها لِ امتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها».(٧)

---

(٧) «أسباب النزول» ــ الواحدي ــ ص ٤ طبعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨ مؤسسة الحلبي مصر.

إنما سوف نتكئ عليها بدرجة ملحوظة لما لها من دلالات متعددة في مقدمها زمن حدوث النص ومكانه «إن تيسر» والفاعلون أو ب معنى أشد وضوحاً أبطال الخبر أو القصة أو الواقعة ونوعية الموضوع الذي بزغ النص بشأنه أهو أمر أم نهى أم تشريع أم فتوى في نازلة أم تفريج لِ ضائقة أم فكّ لِ عقدة أم توضيح ل غامضة أم حل ل مُشكلة.. أم تبيين ل مُبهمة... الخ.

جماع ذلك بِ هدف جوهري وغرض رئيس وقصد أصيل هو تأكيد أن البصائر/ القرآن «أسس نصوصه وبنى آياته وأقام عُمُد مَتْنه ضمن التاريخ وفي داخل مسيله وفي قلب تياره وفي باطن مجراه. فَ هو إذن ليس مجرداً أو مفارقاً أو مغايراً أو مبايناً أو ما شئت من هذه الكلمات التي تدل على القطيعة وتجزم بِ التباعد وترمز إلى البينونة... نقول ليس مفاصلاً للتاريخ الذي واكبه وللزمن الذي تولد فيه كَ حال الكتابين المقدسين اللذين سبقاه في البزوغ أو الظهور لا في القيمة أو المحتوى أو المضمون أو اللب.

والتحام القرآن الكريم بِ تاريخ شروقه وامتزاجه ب زمن طلوعه هو في نظرنا من بين أبرز أسباب شدة نفاسته وارتفاع قدره وشموخ مكانته وسمو رتبته وعلو جاهه. لماذا؟

لأنه التحم بِ الواقع ومس الحياة وخالط المعاش وجميعه نفحه المصداقية ووهبه الحيوية وأعطاه النضارة ومنحه الشباب وتولدت عنه الاستمرارية ونتجت عنه الديمومة وانبثق عنه الخلود.

وهذا الكتاب محاولة غير مسبوقة لِ رفع الستار وكشف الغطاء عن هذه الجوانب المبهرة في الذكر الحكيم وخاصة في القرآن المتلو الذي حفظته صدور الصحابة ووعته قلوبهم وجمعته ذاكرتهم.

في مذهبنا لا يكفي أن ندعى أنه أشرق ضمن التاريخ وطلع في حنايا الزمن ف هذه دعوى بِ غير دليل وقول بِ لا حجة ومعطى بِ دون برهان وكل منها إذا قدم بصورته هذه لا يلتفت إليه.

ومن ثم انتصبت الحوجة وقام الافتقار وبرزت الضرورة إلى مؤلف يسد هذه الثلمة ويغطي هذه الثغرة ويملأ هذه الفجوة بِ أن يضع في حجر القارئ الأدلة القواطع والبراهين السواطع والحجج الدوامغ على صحة

هذه الدعوى وابتنائها على أسس ثوابت وعمد رواسخ وقواعد صلبة، ويبتدى هذا في أيأة «هيئـــة» التوثيق المبالغ فيه إذ هو ديدننا في ما طرحناه قبلاً من تأليف كيما نسد الطريــق ونســك المنفــذ ونغلق الدرب على أي مراء سقيم أو لجاج عنيد أو محاجة شكسة.

وبداهة هو ليس كتاباً في التفسير لَ أنه من ناحية نحن في نظر حلاس الإسطار المقدس لا نملك أدوات المفسر ومن أخرى ف إن منهج البحث والدراسة فيه يغاير منهج التفسير.

وكما سطرنا في عدد من مؤلفات لنا سوابق أن المحاولات الرائدة ــ رضى أصـــحابها أم سخطوا ــ فمن الحتم اللازم أن تبوء ب قصور وأغلاط وهنات ربما غير هينات إنمـــا الـــذي لا مشاحة فيه أنها الثمن الذي لا بد أن يدفعه الرواد كيما ينالوا شرف الريادة.

هذا والله وحده وراء القصد وهو سبحانه ولي التوفيق

٢٧ جمادى الآخرة ١٤٢١هـ   ١٧ أغسطس ٢٠٠٠م

خليل عبد الكريم

الباب الأوّل

آيات كريمة أشرقت تحقيقاً لِ رغبة القائد

وأخرى تلبيةً ل رجاوات تبعه

الفصل الأوّل

آيات أشرقت تحقيقاً لِ رغبة القائد

(١)

ظل «سيد الناس وذؤابة العرب» ثلاثة عشر عاماً يدعو ويبشر بـِ الديانة الجديدة «الإسلام» بيد أن المرازبة الجحاجح صناديد قريش أعرضوا عنها ومنهم نفر من بني هاشم الفرع الذي ينتمي إليه أو رهطه وحذا حذوهم طواغيت ثقيف بـِ الطائف وصدوه صداً جافياً غليظاً نم عن الجلافة وكشف عن الغلظة وأثبت البداوة.

ولأسباب تند عن هذه الدراسة رحب بنو قيلة «الأوس والخزرج» وفيما بعد سماهم «الأنصار» بـِ دعوته وطلبوا منه أن ينتقل إلى قريتهم وفيها سيجد المنعة وتعهدوا له بـِ حمايته وحراسته وفعلاً نزح إلى يثرب وسبقه إليها العدد المحدود الذي صدقه.

امتازت تلك القرية بـِ كثافة يهودية سيطرت على المقدرات الاقتصادية حصراً وتحديداً بـِ الإضافة إلى أن بـِ أيديهم إسطيراً مقدساً وهو أقدم الإسطيرات المقدسة ويزعم أصحابه أنه أصل الأصول ومن معينه استقى من جاء بعده ومتح من بيره ونهل من منبعه ولعل هذا شكّل أحد أسباب غطرسة اليهود وغرور أولاد يعقوب وعنجهية بني إسرائيل.

و«النذير البشير» عبقري لا يشق له غبار ولا يلحق به في مضمار، فَ رأى بـِ ثاقب نظره ووسيع أفقه ونافذ بصيرته أن يوادع يهوداً فَ حاول استمالتهم وخطا خطوات حثيثة منها: أنه أقر بني قيلة «الأوس والخزرج والأنصار» على عرف مستقر لديهم وغيرهم من القبائل القريبة من أثرب وهو الزواج من بنات يعقوب، وكالعادة نطرح دليلاً هو: كعب بن الأشرف الذي ناوأ «المنصور بـِ الرعب مسيرة شهر» وحرض عليه بالقول «الشعر»

والفعل حتى إنه لم يجد طريقة لِ إسكاته إلى الأبد سوى انتداب نفر من بني قيلة فَ اغتالوه وأراحوه من شره. هذا الكعب أمه يهودية، وفي شريعتهم لا يعد منهم إلاّ من ولدته يهودية.

وأباح «من جعلت له الأرض طهوراً» لأتباعه طعام ذرية يعقوب وهو اعتراف بِ أمر واقع لأن الخلطة بين بني قيلة وبينهم متينة الأسر وتتخذ صوراً متباينة: الحلف والولاء والجوار والمصاهرة والشراكة في التجارة والمعاملات الأخرى: الزراعة ـ الصناعة ـ صناعة السلاح.. بل إن بعض بني قيلة تركوا أولادهم ينشأون وسط بني إسرائيل ومنهم من اعتنق دينهم ورفض التخلي عنه والدخول في الإسلام رغم الضغط عليه من خاصته وذويه ونفر منهم نزح مع يهود عندما أجلاهم «صاحب السيف».

فَ تحريم طعامهم لا بد أن يجر على الأوس والخزرج بلوى عمومية تصيب حياتهم ب الربك ومصالحهم بِ المرج ومعايشهم بِ الاضطراب.

بيد أنه عندما أدرك «الأمين المأمون» ذاك أباح مطاعمهم وقصد في ذات الوقت التقرب إلى أبناء يعقوب، خاصة إذا وضعنا في الحسبان أنه حرم على تبعه بنصوص باترة كَ حد السيف نكاح المشركات ومآكل المشركين.

* * *

[٢]

علم «الإنسان الكامل» إثر نزوحه إلى يثرب أن بني إسرائيل يصومون العاشر من محرم يُسمّى لدى العامة وغيرهم يوم عاشوراء. بِ مقولة إن ربهم نجى نبيهم موسى عند هروبه وتبعه من مصر بِ تلك الخارقة المُعجبة والمعجزة المدهشة وهي شق البحر الأحمر. لهم فَ أمر «سيد الخلق» من تابعوه على دينه من النازحين واليثاربة بصومه لأنهم أحق به إذ إنهم مثل يهود يؤمنون بِ نبوة موسى الذي حظى بِ تكليم ربه إياه، والقصد الخبيء والغرض الخفي والهدف المستتر من ورائه هو المشي خطوة أو عدة خطوات نحو استئلاف أولاد يعقوب.

«وقال القرطبي: لعل قريشاً كانوا يستندون في صومه «يوم عاشوراء» إلى شرع من مضى كَ إبراهيم، وصوم رسول الله يحتمل أن يكون بحكم الموافقة لهم كما في الحج.

وأذن الله له في صيامه على أنه فعل خير، فلما هاجر ووجد اليهود يصـومونه وسـألهم وصامه وأمر بِ صيامه احتمل أن يكون استئلافاً لليهود كما استألفهم باستقبال قبلتهم ويحتمل غير ذلك.

وعلى كل حال فلم يصمه اقتداءً بهم فإنه كان يصومه قبل ذلك، وكان ذلك في الوقت الذي يحب فيه موافقة أهل الكتاب فيما لم يُنْهَ عنه..».[1]

في هذا النص نجد أن القسطلاني نقل عن القرطبي وهما إمامان كبيران ونجمان سـاطعان في فَلَك العلوم الإسلامية أن «سيد ولد عدنان» عندما وصل إلى يثرب وجد اليهود يصومون يـوم عاشوراء فصامه وكلف تبعه بِ صيامه، وأن فعله الشريف هذا من الجائز قصد به استئلاف بنـي إسرائيل مثلما استألفهم باستقبال قبلتهم أي بيت المقدس ـ في الصلاة ـ وأنه في ذياك الإبان دأب على موافقة أهل الكتاب في مالا يخالف الديانة الشريفة التي يبشر بها.

إن هذا الأثر بالغ الثمانة، عالي القيمة، موفور القدر، فضلاً عن أنه ثرّ بالدلالات، غنيّ بِ المعاني، مليء ب الإيحاءات.

إنه يؤكد ما سبق أن زبرناه أن السلف من المـؤلفين والمصـنفين بِ عكـس المحـدثين/ المعاصرين على درجة رفيعة من المسئولية الفكرية، ورتبة عالية من الأمانة العلميـة، ومسـتوى منيف من الالتزام بِ الموضوعية.

[٣]

في الإسطير المقدس عند بني إسرائيل أن ربهم أنجز الخلق وفرغ منـه فـي سـتة أيـام واستراح في اليوم السابع.

سبق أن رقمنا أن العدد سبعة له قداسة لدى الديانات الإبراهيمية الثلاث نقلاً عن الـديانات السامية القديمة التي خيمت على شعوب المنطقة قروناً متطاولة.

ومن ثم فإنهم يعتبرون السبت (اليوم السابع) يوم بطالة وعطالة وراحة وفيما بعـد أطلـق عليهم القرآن المجيد أصحاب السبت.

وكَ بادرة وداد قرر «سيد ولد عدنان» اعتبار يوم الجمعة يوم اجتماع

---

(١) (المواهب اللدنية بِ المنح المحمدية) (لِ شيخ الإسلام القسطلاني) ـ المجلـد الثـاني ـ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤/ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م ـ دار الغد العربي ـ بمصر.

عام فـَ غَدَتَ له نكهة خاصة ومذاق متميز وطعم منفرد عن سائر أيام الأسبوع، وحتى الآن وبعد مرور أربعة عشر قرناً وقرابة ربع قرن يتخذ المسلمون منه يوم عطلة تغلق فيه المصالح الحكومية والمتاجر والمصانع أبوابها... الخ.

ويوم الجمعة هو اليوم السابق مباشرة لِ يوم السبت ومن يحاج في أن هذه خطوة موادعة لبني يعقوب من قبل «المعصوم من الناس» لنا أن نسأله:

لماذا لم يتخذ يوماً آخر مثل الاثنين أو الثلاثاء أو الأربعاء أو الخميس يوم اجتماع عام، خاصة يوم الاثنين، فقد حُفظ عنه أنه فيه ولد وفي ليله التقى ملاك الرب جبرائيل لِ أول مرة في مغارة حرَى؟!

هذه واحدة.

أما الأخرى فهي أن «سيد الخلق» ظل بعد أن أعلن ديانة الإسلام في قرية القداسة بكة ثلاث عشرة سنة فـَ لماذا لم يأمر باتخاذ يوم الجمعة يوم اجتماع عام؟

ذكرت مؤلفات سيرته المعطرة أن أول جمعة أقيمت في قرية يثرب في محلة بني سالم بن عوف بعد أن نزل بـِ قباء على شيخ بني عمرو بن كلثوم بن الهدم، وطفق يجلس مع اليثاربة ويحادثهم في بيت سعد بن خيثمة لأنه عزب «غير متزوج» وقضى بها «= قباء» عدة أيام بنى فيها مسجداً أسس على التقوى، ولا شك أنه إبانها خبر أحوال أثرب ونقه ثِقل وخطر يهود فيها فـ سنّة موادعتهم والتقرب إليهم واتخاذ خطوات في هذه السكة ومنها «التجميع».

* * *

[٤]

عندما استقر «سيد الكائنات» في يثرب كتب ما يسمى بـِ الصحيفة، وقد وصفها البُحّاث المحدثون بـِ أوصاف لا تنطبق عليها فـَ على سبيل المثال أطلق عليها الشيخ محمد سيد طنطاوي[٢] «معاهدة»، وهذا توصيف خاطئ، لـ أن شروط المعاهدة لا تنطبق عليها، فـَ اليهود لم يوقعوا عليها، وقد أورد ذلك في الرسالة التي تقدم بها لِ نوال إجازة العالمية[٣] يسميها الأزهريون الآن «الدكتوراة» متابعين في ذلك الفرنجة، وعنوانه «بنو

(٢) حالياً يتربع على دست رئاسة شئون التقديس في مصر المحروسة.
(٣) يسميها الأزهريون الآن «الدكتوراة» متابعين في ذلك الفرنجة.

إسرائيل في القرآن والسنة» وقد مشى الشيخ طنطاوي وراء عبد الرحمان عزام الذي وصــفها بِ أنها من أنفس العقود الدولية وأمتعها وأحقها بِ النظر والتقدير.[٤]

لاحظ وصفه لِ الصحيفة التي أطلق عليها معاهدة بأنها متعة وهو وصف لا يليــق بهــا، وهذا يؤكد ما سنذكره بعد قليل أن عزاماً هذا ليس له في الفكر نصيب، وفي صعيد مصر ينعتــون المرأة التي ترضي الرجل عند المفاخذة أنها «مَرَة مِتْعة» بِ كسر الميم.

وعبد الرحمان عزام، الذي تابعه طنطاوي، رجل سياسة «تولى منصب أمين عام جامعــة الدول العربية» وليس له في العلم عير ولا نفير وبعض الكتبة نفح «الصحيفة» لقب دستور وزايــد عليه غيره فقال إنها أول دستور في العالم.

ثم نرجع بعد هذه التفريعة إلى سياقة التنقير:

(ذكر ابن كثير: قال محمد بن إسحق وكتب رسول الله كتاباً بين المهــاجرين والأنصــار وادع فيه اليهود).[٥]

والذي يهمنا في هذه الفقرة المنقولة عن ابن كثير أنه سماها (كتاباً) لا معاهدة أو دســتوراً كما تصنع جوقة التعظيميين والتفخيميين من الكتبة المحدثين، ولا شك أن «أول من تنشــق عنــه الآرض» استهدف من الكتاب أو الصحيفة موادعة أولاد يعقوب.

* * *

[٥]

توالت مبادرات التواد والموادعة من ناحية «أول من يفيق من الصعقة» إلى بني إسرائيل، وهنا نصل إلى المحطة الأخيرة وهي استقبال بيت المقدس في الصلاة وهي قبلة اليهود:

(أخرج الطبري والنحاس والواحدي وغيرهم عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال:

---

(٤) (الرسالة الخالدة) لِ عبد الرحمن عزام ــ ص ٦٥ نقلاً عن (بنو إسرائيل في القرآن والسنة) لِ محمــد ســيد طنطاوي ص ١٤٤ طبعة نوفمبر ١٩٩٧م دار الشروق بِ مدينة نصر.

(٥) (البداية والنهاية لِ ابن كثير) ــ ج ٣ ص ٢٢٤ نقلاً عن «بنو إسرائيل في القرآن والسنة» لِ طنطــاوي ص ١٣٨.

كان أول ما نُسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله عز وجلّ أن يستقبل بيت المقدس، ففرح اليهود، فاستقبلها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بضعة عشر شهراً، فكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحب قبلة إبراهيم ــ عليه السلام ــ فكان يدعو وينظر إلى السماء.

فأنزل الله تبارك وتعالى: «قد نرى تقلب وجهك في السماء».. إلى قوله: «فولوا وجوهكم شطره» (البقرة ١٤٤)

فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: «ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟! فأنزل الله عز وجلّ:

«قل لله المشرق والمغرب» وقال: «فأينما تولوا فثم وجه الله».[٦]

وهناك مصدر آخر يؤكده:

(عن ابن عباس، كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ــ ص ــ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود ف أمره الله أن يستقبل بيت المقدس فَ فرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ــ ص ــ بضعة عشر شهراً وكان يُحبّ قبلة إبراهيم ف كان يدعو الله وينظر إلى السماء ف أنزل الله (قد نرى تقلب وجهك في السماء).[٧]

هذا الخبر الذي حملته إلينا مصادر من الوزن الثقيل صريح في أن «الصادق المصدوق» ما إن وطئت قدماه الشريفتان أرض يثرب وأحيط علماً بِ مكانة يهود فيها أخذ يوادع يهوداً وطرح المبادرات التي ذكرناها ويأتي في مقدمها أنه استقبل قبلتهم في الصلاة وتحول صوب بيت المقدس وظل عليها ثمانية عشر شهراً.

إبانها لم يبادل أولاد يعقوب «البشير النذير» موادعة بِ موادعة أو وداداً مقابل وداد، ولم يدخلوا الديانة التي بشرهم بها بل ادعوا في صلف أنهم الأصل والجرثومة والأس، وجادلوه فأكثروا، وحاوروه فأطالوا، وناقشوه ف أبعدوا، ولم يكتفوا بل لجأوا إلى الدسائس وما هو أوعر، والمؤامرات وما هو أشنع، والمكائد وما هو أفظع، وأثبتوا أنهم يستحقون اللقب الذي

---

(٦) (المقبول من أسباب النزول). تأليف: الدكتور/ أبو عمر نادى بن محمود حسن الأزهري.
(٧) (التيسير ــ خلاصة تفسير ابن كثير) ــ ت ٧٧٤هـ ب قلم الشيخ محمود محمد سالم ــ الجزء الأول ــ ص ٦٧ ــ الناشر: دار الشعب ــ مصر.

وسمهم أو وصمهم به آخر البطاركة الأكابر عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم «أولاد الأفاعي».

* * *

تيقن «سيد ولد قُصيّ» أنه لا فائدة من بني إسرائيل فَ لا هم سيتركون عقيدتهم ويسلمون ولا سيكفون عن مسلكهم الأثيم وأفعالهم وممارساتهم الدنيئة، وغدت متابعتهم على قبلتهم أو الاقتداء بهم في التولية نحو بيت المقدس والتأسي بهم في التوجه صوب إيلياء غير مجدية، خاصة أن الذرية المباركة ل بني يعرب بن يشجب لم تسترح نفسياتها ولم تطمئن صدورها ولم تهدأ قلوبها من جرائه، فغدا من الضروري ترك قبلة أولاد الأفاعي واستقبال الكعبة إرث إبراهيم كبير البطاركة وحامل لوائهم وإسماعيل أبي العرب المستعربية... وهنا أصبح شروق آية تقضي على طقس الاتجاه نحو بيت المقدس وتأمر ب استقبال القبلة الحبيبة حتماً لازماً وحاجة ملحة.

وهذا ما نقلته إلينا كتب «أسباب النزول».

(عن أبي إسحق عن البراء قال: كان رسول الله ــ ص ــ يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله فَ أنزل الله «قد نرى تقلب وجهك في السماء...»).[٨]

وهنا نرى واجباً علينا أن نلفت نظر القارئ إلى مسألة على درجة خطيرة من الأهمية وبدون فهمها يظل استيعابه لِ مضمون كتابنا هذا غائماً ويغدو إدراكه لِ طروحاته مشوشاً وتصبح معرفته بِ مراميه مُضبّبة وهي الانتباه إلى كلمة أو عبارة «فَ أنزل الله» إذ أنها تصبغ النص «الآية» ب صبغة تعاقبية للنازلة أو الواقعة أو المسرودة التي هلّت بِ سببها، وبِ معنى أوضح التي شكّلت علة بزوغها أو ظهورها، لأن الفاء في «ف أنزل الله» إما هي فاء السببية في تمسي هي ال ما صدق لما طرحناه، وإما هي للتعاقب مثل توضأت ف صليت وهنا نوثق ما رقمناه من قبل أن النص أو الآية ترسخت على التاريخ «تاريخ الحدث» وانسابت مع مسيله الزمني

---

(٨) (لباب النقول في أسباب النزول) ل السيوطي ــ ص ١٩ طبعة ١٣٨٢هـ كتاب التحرير ــ ٢ دار الشعب ب مصر.

وعامت في نهره وسبحت في تياره.

ولك أن تختار أي الوجهيْن: السببية أو التعاقب، فكلاهما يثبت أن النص أو الآية لا ينفكان عن سلسال التاريخ وحركة الزمن، ونأمل وضوح هذه النقطة الجوهرية، لِ أن حكمها يجرى على سائر الآيات أو النصوص التي سوف نسوقها في الفصول القوادم.

* * *

وساهمت كتب التفسير سنية أو معتزلية «نسبة إلى المعتزلة» تراثية أو حديثة في تأسيس ما سلف:

(كان رسول الله ــ ص ــ يتوقع من ربه أن يحول القبلة إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم وأدعى ل العرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ولِ مخالفة اليهود فَ كان يراعى جبريل ــ س ــ والوحي بِ التحويل).[٩]

وإذ إن صاحب الكشاف «الزمخشري» من المعتزلة الذين ينعتون بِ أنهم (فرسان العقل) لذا نجده يذكر أن (سيد الحاضر ــ والبادي) توقع من ربه أن يحوّل القبلة إلى الكعبة لأن لفظه (يتوقع) أبلغ في الدلالة من الكلمة التي خطها زميله السني ابن جزّى الكلبي «رجاء» في في فقه اللغة الرجاء أضعف من التوقع ب ما لا يقاس، لأن من يتوقع لديه قدر من اليقين على تشيؤ أو تموضع ما يتوقعه بخلاف من يترجّى: (كان النبي ــ ص ــ يرفع رأسه إلى السماء رجاء أن يؤمر ب الصلاة إلى الكعبة).[١٠]

* * *

من أحدث التفاسير التي ظهرت «تفسير القرآن الكريم» ل عبد الله محمود شحاته، ومثل ضروبه من كتب التفسير الحديثة توكأ على القدامى أو السلف، بيد أننا نورد ما نقشه في شأن تفسير آية تحويل القبلة لأنه جاء بِ عبارات تؤكد ما وضعناه عنواناً ل هذا الفصل وهو إشراق آيات تحقيقاً ل رغبة القائد، بل إن شحاته استخدم لفظاً أكثر جرأة، فهو يؤكد أن آية التحويل هلّت علينا بطلعتها المضيئة إجابةً لما طلب (صاحب الخاتم) وتلبية لما سأل:

---

(٩) (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) ل أبي القاسم جار الله الزمخشري ٤٦٧ ــ ٥٣٨هـ ــ طبعة دار المعرفة ــ بيروت.

(١٠) (التسهيل ل علوم التنزيل) لمحمد بن جزّي الكلبي ــ نشر دار الكتاب العربي ــ بيروت.

(قد رأيناك تتجه ب وجهك إلى السماء دائماً تصرفه في أرجائها مردداً بصرك في ضراعة ورجاء تطلعاً ل الوحي ب تحويل القبلة إلى الكعبة وها نحن قد أجبناك إلى ما طلبت وأعطيناك ما سألت ووجهناك إلى قبلة تحبها وتميل إليها..).[١١]

هذا هو المثل الأول الذي وضعناه في يد القارئ للآيات التي تهادت بناء على تطلع أو رغبة أو تشوق «المخصوص ب المجد» وقد رأينا وس نرى فيما يتلوه أن الاستجابة لا تتأخر والتلبية لا تتوانى وتحقيق الطلب أو الرجاء لا يغيب.

* * *

[٦]

زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي ـ صحبته أمه سعدى ل زيارة قومها ف أغارت عليهم خيل ل بني القين بن جسر ف احتملوه وهو غلام يفعة ف أتوا به سوق عكاظ ف عرضوه ل البيعة ف اشتراه حكيم بن حزام ل عمته خديجة ب أربعمائة درهم ف لما نكحت «مقدم بني هاشم» وهبته له ف بحث عنه أبوه حارثة حتى أخبره حاج بني كلب أنه ب مكة ف خرج هو وأخوه كعب ل فدائه وطلبوا من «أبي القاسم» أن يمن عليهم ويحسن في فدائه ف عرض عليهم أن يخيّروا زيداً فإن اختارهم دفعه لهم ب غير فداء ف اختار «الحبيب المصطفى» عليهما ف رداً على ذلك أعلن أن زيداً ابنه يرث أحدهما الآخر ومن ذياك الوقت دعى (زيد بن محمد) وبعدها قال له: يا زيد أنت مولاي ومنى وأحب الناس إليّ، وقال ابن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلاّ زيد بن محمد.

ومن حبه له زوجة ثلاث قرشيات هن: أم كلثوم بنت عقبة، ودرة بنت أبي لهب، وهند بنت العوام أخت الزبير.

ثم أنكحه زينب بنت جحش وهي نصف قرشية، ل أن أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة «أول شافع ومشفع».[١٢]

---

(١١) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله محمود شحاتة ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٠ ـ الناشر دار غريب ـ الفجالة ـ القاهرة.

(١٢) ب اختصار وتصرف من كتاب «الإصابة في تمييز الصحابة» للحافظ شيخ الإسلام وقاضي القضاة أبي الفضل شهاب الدين ـ المشهور بابن حجر العسقلاني ـ ٧٧٢هـ/ ٨٥٢هـ ـ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ـ ص ٢٢ وما بعدها المجلد الثالث ـ بدون تاريخ ـ الناشر: دار الغد العربي ب مصر.

ونضيف أن قبيلة «كلب» من بين القبائل التي انتشرت فيها النصرانية قبل الإسلام.

* * *

عن الشعبي قال:

(مرض زيد بن حارثة ف دخل عليه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وزينب ابنة جحش امرأته عند رأسه ف قامت ل بعض شأنها ف نظر إليها رسول الله ــ ص ــ كذا» ثم طأطأ رأسه ف قال: سبحان الله مقلب القلوب والأبصار ف قال زيد أطلقها لك يا رسول الله؟ ف قال: لا، ف أنزل الله عز وجلّ: «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه» إلى قوله: «وكان أمر الله مفعولا»).(١٣)

يصف المحققان «سيرة ابن إسحق ب الآتي:

أعظم الكتب التي عنيت ب سيرة أعظم العظماء ــ ص ــ ومن أقدم كتب السيرة الجامعة وأهمها.. ومن أوائل أمهات المراجع وأهمها في السيرة النبوية العطرة.(١٤)

ولقد عول عليه أبو محمد عبد الملك بن هشام في مصنفه المشهور ب «سيرة ابن هشام» والذي يعتبر ذروة سنام السير.

وأبرز المحققان المكانة العلمية السامقة ل ابن إسحق، ف هو ثبت في الحديث عند أكثر العلماء ولا تجهل إمامته في المغازي والسير ثم أوردا ثناء كبار العلماء عليه منهم الزهري والبخاري والشافعي وشعبة بن الحجاج، وأضافا أن كلاً من يحيى بن معين والإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان وثقوه واحتجوا بحديثه.(١٥)

وذكرنا ل مكانة محمد بن إسحق العلمية ول مقام سيرته مآبه قطع الطريق على أي طعن على ما أورده في شأن خبر زينب بنت جحش.

* * *

لم ينفرد ابن إسحق بل ساقه موثقاً عدد من أصحاب الأسماء اللوامع

---

(١٣) (السيرة النبوية) ل ابن إسحق تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وبدوي طه بدوي ــ (المجلد الأول) ــ ص ٣٣٩ ــ الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م الناشر: القطاع الثقافي ب دار أخبار اليوم ــ القاهرة.
(١٤) المصدر ذاته ــ ص ٤.
(١٥) ذات المصدر ص ١١.

في سماء العلوم الإسلامية: إخباريين: مؤرخين، مفسرين.

رقم الإمام الإخباري النسابة أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي المتوفى سنة ٢٤٥هـ في مصنفه الذائع الصيت «المحبر» ما يلي:

(ثم تزوج ــ ص ــ زينب جحش.. وكانت قبله عند زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله ــ ص ــ وكان سبب تزويجها أن النبي ــ ص ــ أتى زيداً ذات يوم ف وقف على بابه ثم نادى زيداً. فَ نظر إلى زينب وعليها قميص لها مردع ب الزعفران ف وقعت في نفسه فَ قال سبحان مقلب القلوب ــ ثلاثاً، ف سمعه زيد وهو يتوضأ ف عرف أنها وقعت في نفسه ف خرج زيد إلى النبي ــ ص ــ ف مكث أياماً ثم قال: يا رسول الله أنا أطلق زينب، قال: ولم؟ قال قد ساء خلقها وآذتني ب لسانها ف قال: اتق الله وأمسك عليك زوجك، فَ طلقها فَ تزوجها النبي ــ ص ــ وفيها أنزل الله تبارك وتعالى (وإذ تقول.. إلى آخر الآية).[١٦]

وقد قال محقق الكتاب عنه «أما عن كلام علماء الجرح والتعديل عن ابن حبيب وحكمهم على تلقي العلوم عنه من ناحية القبول أو الرد أو التوقف فيها فقد قال جماعة إنه ثقة حافظ، وقال آخرون إنه صدوق وهي درجة تجعلنا نطمئن لما يروي لنا من أخبار عن الثقات من طريقه هو».[١٧]

وأضاف أنه ألف اثنين وأربعين كتاباً منها ما هو في القرآن والحديث.

* * *

أجمعت أمة لا إله إلا الله أن صحيح البخاري هو أصح كتاب بعد القرآن العظيم وقد جاء فيه:

(عن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ أنّ هذه الآية: «وتخفي في نفسك ما الله مبديه».. نزلت في زينب ابنة جحش وزيد بن حارثة.[١٨]

* * *

أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبري فقيه صاحب مذهب ولكن لم

(١٦) «المحبّر» ل أبي جعفر بن حبيب ــ تحقيق سيد كسروى ص ١٠٨ طبعة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ــ الناشر: دار الغد العربي/ مصر.
(١٧) ذات المصدر ص ١٦.
(١٨) صحيح البخاري ــ كتاب التفسير.

يجد من ينشره فاندثر وغدا من المذاهب الدارسة التي تقرب من العشرين، كما أنه مفسر عظيم وكتابه في التفسير يُعد عمدة في هذا العلم ومؤرخ ثبت ومؤلفه «تاريخ الرسل والملوك» المعروف ب (تاريخ الطبري) لا يشق له غبار ويعتبر مقدم كتب التاريخ الإسلامي ومثله من المستحيل أن تحمل مصنفاته أخباراً غير صحيحة أو مشكوكا فيها وقد نقل إلينا بشأن زينب وزيد الخبر الآتي:

(... عن محمد بن يحيى بن حسان قال:

جاء رسول الله ــ ص ــ بيت زيد بن حارثة وكان زيد إنما يُقال له زيد بن محمد، ربما فقده رسول الله ــ ص ــ الساعة ف يقول: أين زيد؟ ف جاء منزله يطلبه ف لم يجده، ف قامت إليه زينب جحش فُضُلاً بضم الفاء والضاد» ف أعرض عنها رسول الله ــ ص ــ ف قالت: ليس هو ها هنا يا رسول الله فادخل ب أبي أنت وأمي ف أبي رسول الله ــ ص ــ أن يدخل وإنما عجلت زينب أن تلبس إذ قيل لها رسول الله ــ ص ــ على الباب، ف أعجبت رسول الله ــ ص ــ ف ولى وهو يهمهم ب شيء لا يكاد يفهم إلا أنه أعلن: سبحان الله العظيم، سبحان الله مصرف القلوب!

قال: ف جاء زيد إلى منزله ف أخبرته امرأته أن رسول الله ــ ص ــ أتى إلى منزله، ف قال زيد: ألا قلت له: ادخل؟ ف قالت: قد عرضت عليه ذلك ف أبي، قال: ف سمعته يقول شيئاً؟ قالت: سمعته يقول حين ولى: سبحان الله العظيم سبحان الله مصرف القلوب، ف خرج زيد حتى أتى رسول الله ــ ص ــ ف قال: يا رسول الله بلغني أنك جئت منزلي في هلا دخلت ب أبي أنت وأمي.

يا رسول الله، لعل زينب أعجبتك فأفارقها! ف قال رسول الله ــ ص ــ أمسك عليك زوجك ــ ف ما استطاع زيد إليها سبيلاً ف كان يأتي رسول الله ــ ص ــ ف يخبره ف يقول له رسول الله ــ ص ــ أمسك عليك: زوجك ــ ف فارقها زيد واعتزلها وحلّت.

ف بينا رسول الله ــ ص ــ يتحدث مع عائشة إذ أخذت رسول الله ــ ص ــ غشية ف سرى عنه وهو يبتسم ويقول: من يذهب إلى زينب يبشرها. يقول إن الله زوجنيها؟ وتلا رسول الله ــ ص ــ: «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك...» القصة كلها.

قالت عائشة: ف أخذني ما قرب وما بعد لما بلغنا من جمالها وأخرى هي أعظم الأمــور وأشرفها ما صنع الله بها زوجها ف قلت تفخر علينا بها.

قالت عائشة: ف خرجت سلمى خادم رسول الله ــ ص ــ تخبرها ب ذلــك ف أعطتهــا أوضاحاً عليها).(١٩)

وفي الهامش امرأة فُضُل أي تلبس ثوباً واحداً.

والأوضاح: جمع وضح وهو حلى من فضة.

ومما هو جدير ب الذكر أن عائشة في ذلك الوقت لم تجاوز الثالثة عشرة.

* * *

آن الأوان ل المفسرين كيما يطلعونا على ما سطروه في هذه الخصوصية ومنعاً ل الإطالة ودرءاً ل الإملال وتجنباً للسأم فإننا نكتفي ب ثلاثة منهم وقطعاً لطريق المشاكسة فقد اخترناهم من القمم الشوامخ والذرى السوامق والقُلل العوالى.

أ ــ الإمام ناصر الدين البيضاوي:

(أمسك عليك زوجك زينب وذلك أنه ــ ص ــ أبصرها بعدما أنكحها إياه ف وقعت فــي نفسه ف قال سبحان الله مقلب القلوب وسمعت زينب ب التسبيحة ف ذكرت ل زيد ف فطن ذلــك ووقع في نفسه كراهة صحبتها ف أتى النبي ــ ص ــ وقال: أريد أن أفارق صاحبتي، ف قــال: مالك أرابك منها شيء؟ قال لا والله ما رأيت منها إلاّ خيراً ولكن ل شرفها تتعظم علي، ف قال له أمسك عليك زوجك واتقِ الله في أمرها ف لا تطلقها ضراراً لها وتعللاً ب تكبرهــا وتخفــي فــي نفسك ما الله مبديه ونكاحها إن طلقها وإرادة طلاقها).(٢٠)

نرى المفسر البيضاوي يذهب إلى أن ما أخفى في النفس هو إرادة طلاق زينب من زيــد لنكاحها بيد أنه سيظهر أو يبدو أو سيعلن وهو ما جاء في الآية بعد «زوجناكها» وهــو تحقيــق ل الرغبة الكامنة والمدسوسة في

---

(١٩) (تاريخ الطبري) ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبــراهيم ــ الجــزء الثــاني ص ص ٥٦٢/ ٥٦٣ ــ الطبعــة السادسة ١٩٩٠م ــ دار المعارف ب مصر.

(٢٠) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمّى تفسير البيضاوي) ل الإمام ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمــر الشيرازى البيضاوي ــ دون تاريخ نشر ــ دار الفكر دون ذكر البلد.

حنايا الصدر وفي داخل النفس.

ب ــ الإمام فخر الدين الرازي:

(«وتخفي في نفسك ما الله مبديه» من أنك تريد التزوج ب زينب).[٢١]

والفخر الرازي من أعلام المفسرين وكتابه (مفاتيح الغيب) موسوعة في التفسير حتى اشتهر ب «التفسير الكبير».

وهو يؤكد أن إرادة نكاح زينب دون غيرها هي مقصود ما نص عليه «وتخفي في نفسك ما الله مبديه» وهو عين ما خلص إليه البيضاوي في أنواره.

وهذا أفحم رد على جوق الطبالين الذين يلوون أعناق الآية ويزعمون على خلاف السياق وما تقضي به ضرورات اللغة العربية هو أن المقصود به الخوف من مخالفة العرف الراسخ أن ذاك وهو تحريم نكاح الأب لمنكوحة ابنه بالتبني تماماً مثل تحريم زواجه ب حليلة ابنه الصلبي التي دخل بها وعاشرها.

ج ــ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي:

(اختلف الناس في تأويل هذه الآية ف ذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين منهم الطبري وغيره إلى أن النبي ــ ص ــ وقع منه استحسان ل زينب بنت جحش وهي في عصمة زيد وكان حريصاً على أن يطلقها زيد فَ يتزوجها هو، ثم إن زيداً لما أخبره ب أنه يريد فراقها ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر وأذى بِ اللسان وتعظيماً بالشرف قال له: اتق الله ــ أي فيما تقول ــ وأمسك عليك زوجك وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها وهذا الذي كان يخفي في نفسه ولكنه لزم ما يجب من الأمر ب المعروف.

وقال مقاتل: زوج النبي ــ ص ــ زينب بنت جحش من زيد فَ مكثت عنده حيناً ثم إنه عليه السلام أتى زيداً يوماً يطلبه فَ أبصر زينب قائمة وكانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش فَ هويها وقال: سبحان مقلب القلوب ف سمعت زينب بِ التسبيحة فَ ذكرتها ل زيد فَ فطن زيد فَ قال: يا رسول الله إئذن لي في طلاقها فَ إن فيها كبراً تتعظّم عليَّ،

---

(٢١) (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير) للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي ٥٤٤/ ٦٠٦هـ المجلد الثاني عشر الطبعة الأولى ١٩٩٢/ ١٤١٢هـ الناشر: دار الغد العربي/ مصر.

وتؤذيني بِ لسانها، فَ قال عليه السلام: أمسك عليك زوجك واتقِ الله.

وقيل: إن الله بعث ريحاً ف رفعت الستر وزينب متفضّلة في منزلها فَ رأي زينب فَ وقعت في نفسه ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبي ــ ص ــ وذلك لما جاء يطلب زيداً ف جاء زيد ف أخبرته بِ ذلك فوقع في نفس زيد أن يطلقها.

وقال ابن عباس «وتخفي في نفسك» الحب لها، و«وتخشى الناس»؛ أي تستحييهم وقيل تخاف وتكره لأئمة المسلمين لو قلت طلقها ويقولون أمر رجلاً ب طلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها).[٢٢]

* * *

هذه الفقرة ــ على طولها ــ ثرّة ب الدلالات حتى إنها في غُنية عن أي تعليق وليست في حوجة ل تحليل ف عبارات مثل:.. وكان حريصاً على أن يطلقها زيد فَ يتزوجها.. وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها وهذا الذي كان يخفي في نفسه.. وكانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش ف هويها.. ف وقعت في نفسه ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفسه.. وتخفي في نفسك.. الحب لها.. وتكره لأئمة المسلمين لو قلت «أي لِ زيد» طلقها ويقولون أمر رجلاً بِ طلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها.. الخ. صريحة النص والدلالة معاً على أن «زوجناكها» تحقيق لإرادته نكاحها.

* * *

أما الذي جاء في السياق (... وقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبي ــ ص ــ فيؤكده وغيره مما قرأناه في سائر الأخبار من أقوال بنت جحش لِ زيد بن محمد «حتى ذياك الحين» عن واقعة زيارة «أعظم الكائنات» ل منزلهما وإحاطة زوجها (الذي امتعضت هي ورهطها من زواجه إياها ثم أذعنت وإياهم بعد أن تلا «أبو القاسم» عليهم آية حاسمة تأمرهم به الامتثال) بِ العبارات التي سمعتها من الزائر العظيم عند انصرافه خاصة «سبحان مقلب القلوب» ودلالتها لا تستبهم على زيد

---

(٢٢) (الجامع ل أحكام القرآن) المشهور ب تفسير القرطبي ل أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المجلد الثامن ــ كتاب الشعب ب مصر.

نقول يؤكده أن ابنة جحش تشوّفت منذ بَديّ الوقائع إلى نكاح «ذوابة ولد إسماعيل»:

(وأخرج الطبراني ب سند صحيح عن قتادة قال: خطب النبي ــ ص ــ زينب وهو يريدها ل زيد فَ ظنت أنه يريدها ل نفسه ف لما علمت أنه يريدها لِ زيد أبت ف أنزل الله «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم» الآية ٣٦ من سورة الأحزاب).(٢٣)

إن ما نهدف إلى توضيحه هو أن موقف زينب بعيد عن السلبية بل إنها ساهمت ب قدر ملحوظ في إيقاع الطلاق من قبل زيد ل تحل لنكاح «أول من يفيق من الصعقة» وتحقق حلمها القديم وتحظى ب هذا الشرف الباذخ وتحمل اللقب المنيف «أم المؤمنين» الذي يحلي جيد من هن أقل منها جمالاً وحسناً وبهاءً وأخفض منها حسباً ونسباً.

* * *

وسواء لقى هذا التحليل القبول أم أبدى القارئ عليه تحفظاً أو أكثر، ف الثابت أنه بعد تمام ما حدث هلت آية كريمة «... زوجناكها» حققت رغبة «المزمل» ووفت ب منيته وموضعت طلِبته على أرض الواقع.

وهذا الملحظ الدقيق أدركته التيمية ابنة أبي بكر وصرحت به علانية ولا يتاح ل غيرها لا من الزوجات ولا حتى من أكابر الصحابة أن يفعله معتمدة على قسامتها وحلاوتها وصغر سنها وحبه الشديد إياها: (... حدثنا أبو أسامة قال هشام حدثنا أبيه عن عائشة ــ رضي ــ قالت: كنت أغار على اللآتي وهبن أنفسهن ل رسول الله ــ ص ــ وأقول أتهب المرأة نفسها؟ ف لما أنزل الله تعالى «ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت ف لا جناح عليك» قلت ما أرى ربك إلاّ يسارع في هواك).(٢٤)

* * *

---

(٢٣) (لباب النقول في أسباب النزول) ل السيوطي ص ١٣٩ ــ طبعة ١٣٨٢هـ كتاب التحرير ــ مصر.
(٢٤) (صحيح البخاري) كتاب التفسير.

على هامش ذلك الخبر بِ رواياته المتعددة وبِ مصادره الغزيرة تسيل بعض الحواشي أو التعليقات ال شديدة الأصرة به:

أولاً: مقام المفسرين الثلاثة ومكانة مؤلفاتهم كما رقمها الشهيد الشيخ محمد حسين الذهبي ـ عطر الله مرقده:

أ ـ الرازي ومفاتيح الغيب:

(.. كان رحمه الله فريد عصره ومتكلم زمانه، جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها، ف كان إماماً في التفسير والكلام والعلوم العقلية وعلوم اللغة، ولقد أكسبه نبوغه العلمي شهرة عظيمة ف كان العلماء يقصدونه من البلاد ويشدون إليه الرحال من مختلف الأقطار...

وإن تفسير الرازي لَ يحظى ب شهرة واسعة بين العلماء وذلك ل أنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير ب الأبحاث الفياضة الواسعة في نواح شتى من العلم.(٢٥)

ب ـ قاضي القضاة البيضاوي وأنوار التنزيل:

... صاحب المصنفات وعالم أذربيجان وشيخ تلك الناحية.

وقال السبكي: كان إماماً نظاراً خيراً صالحاً متعبداً.

تفسير العلامة البيضاوي، تفسير متوسط الحجم جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل على مقتضى قواعد اللغة العربية وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة.(٢٦)

ج ـ الإمام القرطبي والجامع ل أحكام القرآن:

... كان رحمه الله من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الزاهدين في الدنيا، المشغولين ب ما يعنيهم من الأمور الآخرة...

وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير ف قال: هو من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعاً أسقط منه القصص والتواريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ).(٢٧)

* * *

(٢٥) (التفسير والمفسرون) ل محمد حسين الذهبي ـ الجزء الأول ـ ص ص ٢٧٨/ ٢٧٩ ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ـ مكتبة وهبة/ ب مصر.
(٢٦) المصدر ذاته والجزء نفسه ص ص ٢٨٢/ ٢٨٣.
(٢٧) المصدر ذاته ـ الجزء الثاني ص ص ٤٣٧/ ٤٣٨.

مؤلف كتاب (التفسير والمفسرون) هو الشيخ محمد حسين الذهبي أستاذ علوم القرآن والحديث ب كلية الشريعة ــ جامعة الأزهر وتولى في ما بعد منصب وزير الأوقاف في عهد الرئيس السادات وقامت ب تصفيته جسدياً بطريقة دامية إحدى الجماعات المتطرفة ل تصديه للإرهاب ــ رحمه الله وأنزله منازل الشهداء.

وكتابه المذكور من أميز المؤلفات الحديثة في بابه شمولاً وعمقاً وغزارة مادة وإحاطة ب الموضوع منذ عصر الصحابة حتى الأستاذ الإمام محمد عبده وتبعه الشيخ محمد رشيد رضا.

ولعل القارئ بعد جِماع ما قدمه الذهبي في حق المفسرين الثلاثة ومؤلفاتهم اطمأن قلبه وهدأ فؤاده وثلج صدره ل الأخبار التي نفحنا بها أولئك العلماء الأماثل والأئمة الأفذاذ والشيوخ الكُمّل، إذ يستحيل ديناً ويستبعد عقلاً ويتعذر منطقاً أن أمثالهم يتورطون في سرد وقائع مكذوبة أو طرح أحداث منحولة أو ذكر نوازل زيوف.

وإذا نسب واحد من المتشنجين لأي منهم ضعفاً في النقل أو وهناً في الاستقراء أو هُزالاً في الاستنباط أو تخليطاً في التخريج أو رَبكاً في الاستنتاج ف هذا ليس طعناً فيهم ف حسب ولكنه ب مثابة هدم للتراث الفكري الإسلامي ب رمته.

* * *

ثانياً: اختلاف روايات الخبر هل هو علة قادحة؟

يمتاز التاريخ الإسلامي خاصة في الفترة الباكرة ب الاختلاف البيّن سواء في أسماء الأشخاص أو في رواية الأحداث ومرده إلى الأمية التي هيمنت على الأفراد وجهلهم ب التدوين كما درجت عليه الأمم المتحضرة مثل مصر القديمة ولا يعني ذلك كذباً أو اختلافاً أو تزويراً.

ضَربَ هذا التباين كافة المناحى وإذ إن السيرة المحمدية العظيمة هي البدء الحقيقي ل مسيرة التاريخ الإسلامي ف نلفى أنه رافقها منذ فاتحتها، ف مثلاً أولاده الذكور من خديجة هل هم القاسم وعبد الله والطيب والطاهر أم هما اثنان القاسم (وبه كنّى) وعبد الله الذي لقب ب الطيب والطاهر؟

وبعد وفاة خديجة هل تزوج في مكة قبل نزوحه إلى يثرب اثنتين هما سودة بنت زمعة والتيمية عائشة بنت ابن أبي قحافة أم ثلاثاً أضاف إليهما غزية بنت دودان بن عوف؟

أما عندما عَدَن في أثرب فعدد وأسماء من تزوجهن وخَطَبَهن وفارقهن ب خلاف التسع المشهورات لا يعلمه إلاّ الله وحده لا بسبب الكثرة وإنما مآبه ل اختلاف كتاب السيرة المعطاءة والمؤرخين والإخباريين ب شأنهن.

وذات الأمر مع غزواته وسراياه وتواريخها وترتيبها وعددها وأسامي من استخلفهم على قرية أثرب عند خروجه وأعداد من رافقه في كل منها سواء من النازحين (المهاجرين) أو من بني قيلة «اليثاربة أو الأنصار» وأمراء السرايا وعدد القتلى إن من تبعه أو من عدوه والغنائم التي ظفروا بها والمدة التي استغرقتها كل واحدة منها بداهة باستثناء الغزوات ذات الصيت المدوي مثل بدر وأُحد والخندق وتبوك علماً بأنها لم تفلت من الاختلاف في الجوانب الفرعية وإن اتسمت ب قدر من الأهمية مثل عدد المقاتلين والفارين.(٢٨)

كذا وقع عدم اتفاق على الأسماء حتى ل بعض كبار الأصحاب وأشهرهم في هذا المجال أبو ذر الغفاري فقد أغدقت عليه كتب الصحابة مثل «أسد الغابة والاستيعاب والإصابة» عدة أسماء، وما توافقت عليه فحسب هو كنيته: «أبو ذر الغفاري» الزاهد المشهور الصادق اللهجة ـــ مختلف في اسمه واسم أبيه والمشهور أنه جندب بن جنادة بن سكن وقيل ابن عبد الله وقيل اسمه بربر وقيل ب التصغير، والاختلاف في أبيه كذلك إلا في السكن قيل: يزيد وعرفه وقيل اسمه هو السكن بن جنادة بن بياض... الخ.(٢٩)

* * *

إن الاختلاف وصل إلى بعض سور الذكر الحكيم من ناحية تواريخ وأمكنة شروقها ووصل في سورة الفاتحة ذاتها وهي أم الكتاب، فقال بعضهم إنها مكية والآخر إنها مدنية، وحتى يحل هذا الإشكال ذكر ثالث

---

(٢٨) «نفر من كبار الصحبة أطلقوا لأرجلهم عنان الفرار في بعض الغزوات في مقدمها أُحد وحُنين واعترف العدوي عمر بن الخطاب ب أنه ارتكبه يوم أُحد» ا.ه.

(٢٩) (الإصابة) المجلد السابع ــ ص ١٥٥.

أنها نزلت مرتين أي ب قرية القداسة أولاً ثم ب يثرب، ورابع طلـع علينـا ب رأي فـي غايـة الطرافة إذ قسمها شطرين أولهما ب بكة والآخر هلّ ب أثرب (... وذهب قوم إلـى أن الفاتحـة مدنية وقال آخرون نزلت مرتيْن وقال بعضهم نزل نصفها ب مكة ونصفها ب المدينة، وقال أبـو الحسن الحصار في كتابه «الناسخ والمنسوخ» المدني عشرون سورة ونظمها مع السور المختلـف فيها).[٣٠]

ونشد بصر وبصيرة القارئ إلى ما تضمنه عجز الفقرة «ونظمها فـي السـور المختلـف فيها» وهو شأن معروف لمن لدنه أدنى ذرة أو مُسكة في علوم القرآن وأقـرب كتـابين متـاحين للقارئ هما «الإتقان» لِ السيوطي و«البرهان» لِ الزركشي.

* * *

نخلص من جِماع ما وضعناه تحت أعين القراء أن اختلاف روايات الخبر بخاصة حوادث الفجر ووقائع المبتدأ ونوازل المفتتح لا يشكّل علة تقدح في الخبر ولا عيبـاً يفسـده ولا منقصـة تشينه، ولو اتخذنا الاتفاق مقياساً للصحة ومعياراً للصدق وميزاناً ل الاطمئنـان إليـه ل انهـارت مئات بل ألوف الأخبار والآثار التي هي بِ مثابة ركيزة التراث الفكري الإسلامي.

* * *

ثالثا: التدرج في تحريم الربا والخمر والفورية في تحريم التبني:

اتخذ القرآن المجيد منهجاً سديداً في تحريم عادتين متأصلتين في المجتمـع آن ذاك همـا الربا ومعاقرة الخندريس «شرب الخمر» على الوجه الآتي:

أ ــ تحريم الربا:

في البديّ (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما أتيتم مـن زكـاة تريدون وجه الله فـَ أولئك هم المضعفون).[٣١]

ف هنا لم يأت حكم في الربا بل توجيه إلى الفرق بينه وبين الزكاة فهي

---

(٣٠) (التحبير) ل السيوطي ص ٤٣ سابق.
(٣١) سورة الروم ــ الآية التاسعة والثلاثون.

تتضاعف وتزيد إذا أريد بها وجه الله تعالى في حين هو «= الربا» على النقيض.

ثم تشرق آية كريمة أخرى في ذات المَحجة (فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً. وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس ب الباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً).[٣٢]

هاتان الآيتان الكريمتان لم تحظرا الربا إنما سارتا شوطاً ملحوظاً في درب تحريمه ف قامتا ب تبشيعه فهو صد عن سبيل الله وظلم وأكل أموال الناس ب الباطل ومن يستحله ف جزاؤه عذاب أليم.

ثم تضيء آية النهي (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون).[٣٣]

ثم طلعت آيتان حاسمتان لا تدعان مجالاً لأي شك في التحريم: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله...).[٣٤]

وبعدها غدا الربا حراماً على تبع «الأمين المأمون»

* * *

ب ــ تحريم الخمر:

عموماً شرباً وبيعاً وشراءً، بيد أننا ذكرنا المعاقرة لأنها الأصل الذي يتفرع عنه سائر الأفعال في لولا الإقبال على المزّة لما دارت حولها تجارة أو خدمة.

في أول الأمر نهى القرآن الكريم الصحابة عن الصلاة في حالة السكر لأن واحداً من المقدّمين أمّ نفراً منهم وخربق في تلاوة سورة «الكافرون» فظهرت الآية الكريمة (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون).[٣٥]

---

(٣٢) سورة النساء الآية الستون بعد المائة والآية الواحدة والستون بعد المائة.
(٣٣) سورة آل عمران الآية الثلاثون بعد المائة.
(٣٤) سورة البقرة الآية الثامنة والسبعون بعد المائتين والتاسعة والسبعون بعد المائتين.
(٣٥) سورة النساء الآية الثالثة والأربعون.

والتي جاءت ب تحريم جزئي أو وقتي وهو عدم الاقتراب منها عند العزم على الصلاة.

يبدو أن البعض سأل «المزمل» عن الخمر والميسر معاً فَ أجابت آيـــة (يســـألونك عـــن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما).[٣٦]

ف ذكرت أن إثم احتساء القهوة (الخمر) كبير وكأنما هي وطّأت الطريق أمام آية التحـــريم كيما تقبل: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشـــيطان ف اجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميســـر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون).[٣٧]

وما إن سمعها أحد متنفذي الصحاب حتى صاح: انتهينا يا رب، ومنذ تلك الساعة حُرّمـــت الخمر على المسلمين.

* * *

لماذا عدل القرآن المجيد عن منهجه التدرجي في تحريمه للربا وللخمـــر واتخـــذ المـــنهج الفوري في تحريم التبني وما استتبع ذلك من حليّة منكوحة الابن المتبنى (سورة الأحزاب) الـــذي حطم نسقاً اجتماعياً راسخاً في مجتمع شبه جزيرة العرب؟

من الجائز وجود بصيص من النور يساعدنا على الإجابة الصحيحة على هذا السؤال لـــو في مقدورنا معرفة الفارق أو المسافة الزمنية بين تبغيض الربا والميسر والتحريم القاطع، بيد أنـــه يحول بيننا وبينه تعذر معرفة الترتيب التاريخي ل ظهور السور والآيات. والعمـــل الـــذي أنجـــزه نولدكه في هذه الدائرة لم يترجم إلى اللغة العربية حتى الآن.

والأرجح في مجال الرد على السؤال أن الربا ضفيرة من نسيج النظام الاقتصادي الســـائد آنذاك والذي يتمحور حول التجارة النشاط اليتيم في أم القرى والمشارك في قرية اليثاربـــة وأبنـــاء يعقوب، فَ تحريمه دفعة واحدة سوف يصيب المعاملات المالية ب تصدعات غوائر ومن ثم فـــإن الحكمة استلزمت التدرج.

* * *

---

(٣٦) سورة البقرة الآية التاسعة عشرة بعد المائتين.

(٣٧) سورة المائدة ــ الآيتان التسعون والواحدة والتسعون.

أما من رجا «= ناحية وجمعها أرجاء» السلسبيل ف كتب التراث ب ما حملته من آثار ب شأنها تؤكد أنها تمكنت من كثير من الصحابة بل من بعض الأماثل إن من بني قيلة اليثاربة أو من النازحين من قريش أم دونها من القبائل ومن ثم فإن تحريمها فجأة سوف يصيب نفوسهم ب الحبوط ومزاجهم ب العكر ووجدانهم ب الانقباض و«المنتصر» حرص على إرضائهم ودأب على مداراتهم وتوخى تأليف قلوبهم، وهذا أمر طبيعي بل بديهي لأنهم أعوانه المخلصون وشيعته المؤازرون وجنده المقاتلون ومن فجاج هذه الأرضية انفجرت علة التدرج في تحريمها وغدا من الحتم اللازم تهيئة ذواتهم للحظر المقبل والنهي القريب والمنع الوشيك.

* * *

على نقيض ذياك جِماعه فَ تحريم التبني وإباحة الدخول ب منكوحة الابن الدعيّ فهو خفيض الشأن هزيل المنزلة نحيف الخطر ف لا يُحدث زلزلة في سوق المال ودوائر التجارة ولا هو تمكن من النفوس أو تغلغل في الوجدان أو تعمق في الشعور الجمعي. ورغم الحوجة إلى إحصائية بِ عدد الأبناء الأدعياء ليغدو الحكم صحيحاً فَ إن ما تناثر من آثار بِ خصوصهم ينبئ بِ ضمور العدد.

ولعلنا: ب ذلك أفلحنا في أن نلقم حجراً من يغمزون ويلمزون مباينة (الموعظة = القرآن) المنهاج الذي استقر عليه في موضوع التبني وزواج منكوحة الدعيّ ونذكرهم ب أن الذكر الحكيم حرم فوراً وأد البنات لأنه أيضا أمره هامشي فَ حالاته عوارض وحوادثه طوارئ ووقائعه خمائص.

رابعاً: شرف الكلبي بذكر اسمه في (البلاغ/ المبين) في حين أنه خوى من ذكر اسم أو كنية أو لقب التيميّ عتيق:

في رحلة النزوح من مكة إلى أثرب رافق «خير من مشى على الأرض» التيميّ ابن أبي قحافة واسمه عتيق وكنيته أبو بكر ولقبه الصدّيق ومكث معه في غار ثور وسجلته آيات كريمة من القرآن المجيد، ولِ هذا يذهب الفقهاء إلى أن من ينكر صحبة أي واحدة من الصحابة ف لا تثريب عليه إلا هو لأن عدم الاعتراف ب صحبته تكذيب لما ورد في الذكر الحكيم ــ نعوذ

بِ الله تعالى من ذلك.

بيد أن الآيات خلت من اسمه أو لقبه أو كنيته في الوقت الذي نصت على اسم الدعيّ الكلبيّ أو الكلبيّ الدعيّ وهي مفارقة معجبة لعدة أمور منها:

أ ـ أن أبا بكر ولو أنه من فرع هزيل من قريش إلا أنه قريش في حين أن زيداً كلبي ولا وجه ل المقارنة بين قريش وكلب.

ب ـ أن الخدمات التي قدمها التيمي ل (المحمود في السماء والأرض) ولِ الديانة التي بشر بها لا يقاس بها كل ما قدمه الكلبي، بل إن (الجامع ل أنواع الخير) نفح الأخير أي (= الكلبي) أفضالاً لا تقدر.

ج ـ أن رحلة النزوح علامة فارقة بل هي ذروة سنام العلامات الفوارق في مسيرة الدين الذي دعا إليه «أحمد» ولا تعد منا مغالاة إذا رقمنا أنه لولاها ل تغير تاريخ جزيرة العرب.

وليس من الإنصاف في شيء أن توضع في رتبتها واقعة طلاق الكلبي ل ابنة جحش، بعد أن حدّس أن «سيد الأولين والآخرين» يريده وغِبّ أن أوحت إليه (= إلى الكلبي زيد) زينب به. ما زال الاستفسار يحك قذاله «مؤخر رأسه» لأنه لم يتلقَ إجابة شافية أو حتى قطرة ماء يبل بها ريقه النشف.

من وجهة نظرنا أن الحرص من جانب (البشرى = القرآن) على تعيين الاسم وتحديده هو قطع الطريق على أي لبس أو شك في أن الزوجة التي بشره ب نكاحها هي زينب بنت جحش دون غيرها ل يحقق رغبته كما توصل إليه المفسرون الكُمّل والإخباريون الأثبات وكتاب السيرة المحمدية المعطار الذين ألمعنا إليهم.

فَ لو قال الذكر الحكيم «فلما قضى منها وطراً» أو «فلما قضى منها زوجها وطراً» ل تساءل أحدهم من الذي قضى منها وطراً؟ أو من هو ذلك الزوج؟ ولو تزوج «سيد ولد قصي» ابنة جحش دون هذا التحديد الدقيق ل أحدث ذياك النكاح ربكاً وأوقع بلبلة وأثار اضطراباً في مسألة على قدر وفير من الدقة ونصيب كبير من الحساسية وحظ غزير من الحروجة.

ونأمل أن يصح هذا التحليل ف هو نتاج مكث طويل على باب الموضوع ولبث مديد أمام الواقعة ووقوف متأن عند الخبر.

وبداهة فإن للقارئ الحق في قبول هذا التحليل أو ملاقاته ب نظرة زوراء، إنما الذي لا محاجة فيه أن الكلبي نال شرفاً تقطعت دونه أعناق أكابر الصحاب وتشوف إليه أعاظمهم وتمنته ذؤابتهم وأنه جاء من (القصص/ القرآن) مكافأة له جزاءً وفاقاً على إقدامه على فراق الزوجة الحسناء الفاتنة ل يحقق رغبة أبيه بِ التبني ومولاه فيما بعد.

* * *

خامساً: رد بنت الشاطئ المفحم على جوق الطباالين و«مايسترو»هم هيكل:

خرجت من قراءتي ل عشرات كتب السلف التراثية في السيرة أن القدامى اتصفوا ب الأمانة العلمية وامتازوا ب الضمير الفكري ومن ثم اتسموا ب الموضوعية والنزاهة، في حين أن المحدثين نفضوا أيديهم من ذلك كله وآثروا النفاق واختاروا الانتهازية وانحازوا إلى الذبذبة، ومن ثم حفلت كتاباتهم ب التلفيق وطفحت ب الانتقائية واكتظت ب الترقيع وامتلأت ب التبرير وتضلعت من التعمية وارتوت ب التضبيب ونهلت من الغطرسة «التعالي عن الحق»، ولهذا فهي توسم بالنفاق الفكري ومجافاة الأمانة العلمية ومخاصمة الضمير الثقافي ولسنا في حوجة إلى تبيين العلة الكامنة وراء سلوك المحدثين ل هذا المنهج الفسيد والسير في هذا الطريق المعوج والمشي في هذه الجادة الملتوية.

ولو أنك رسمت خطاً بيانياً للأمانة الفكرية ل هذا الفرع من العلوم ل جاء منحدراً وهابطاً ونازلاً لأن القدامى أوردوا الوقائع كما سمعوها والأحداث كما تلقوها والآثار كما رويت لهم مهما حملت من صدمة للقارئ أو دهشة ل المتلقي أو استنكاراً لدى السامع، وكان منطقهم وهم يصنفُون:

ل يستحسن من يستحسن ول يستهجن من يستهجن ول يستغرب من يستغرب ف هذا ليس من شأننا ولسنا مسئولين عنه. ثم خلف من بعدهم خلف أمعنوا في الغواية وأسرفوا في الضلالة وبالغوا في النكراء «المنكر» ف أخفوا وغطوا وسوغوا وجماعه على حساب الضمير والمسئولية والأمانة التي حملها الإنسان الظَّلوم الجهول.

والذي حَيّرني في موقفهم هذا أمران:

الأول: أنهم ليسوا ب حال من الأحوال ب أتقى من سلفهم الصالح ولا أشد خوفاً مـــن الله تعالى هذا من جانب، ومن آخر أن علمهم ــ الحق أنني أقولها تجاوزاً ــ بجانب علم السلف مثـــل قطرة في محيط أو حبة واحدة في رمل عالج، فـَ مَن منهم يصل إلى مستوى ركبة ابن إســـحق أو الطبري أو الرازي أو البيضاوي أو القرطبي.. الخ؟

الآخر: من المفروض أننا مرقنا من العصور الوسطى وخرجنا من عهود الظلام وغادرنا زمن القيود والسدود ونعيش الآن في أيام حقوق الإنسان وحرية الفكر والإبـــداع والكتابـــة وغـــداً العالم قرية كبيرة هذا من رجا، ومن آخر لم تعد المؤلفات السوابق أسراراً مكتومة ولا أحاجي ولا ألغازاً مستورة ولا ألغازاً مخبوءة وب أي صورة تغدو كذلك ونحن ننعم ب ثورة الاتصالات. لكن فيما يبدو وب أيأة «هيئة» جلية أنهم عندما يغمضون عيونهم يتوهمون أن غيرهم لا يراهم.

* * *

بعد هذه الفرشة التي نأمل عدم تململ القارئ من طولهـــا النســـبي نـــدخل فـــي صـــميم الموضوع:

محمد حسين هيكل بدأ كاتباً ليبرالياً مستنيراً وأصدر مؤلفات محترمة، أما عنـــدما خـــاض في خضم بحر (الإسلاميات) ف قد فَكّ صمولة[٣٨] ضميره العلمي لأسباب لا تخفى علـــى الفطـــن ولا تغيب عن اللبيب ولا تتوارى عن الذكي.[٣٩]

* * *

ومن أشهر ما طلع به على القراء في ذات المضمار كتابه «حياة محمد» ويند عن جـــوهر دراستنا تقييمه أو غيره من الإسلاميات الهيكلية، إنما الذي يهمنا ما خطه ب شـــأن خبـــر الكلبـــي وطلاقه لِ ابنة جحش:

«أفيبقى بعد ذلك أثر ل هذه الأقاصيص التي يكررها المستشـــرقون والمبشـــرون ولكنهـــا شهوة التبشير المكشوف تارة والتبشير باسم العلم أخرى والخصومة القديمة للإسلام هي التي تملي على هؤلاء جميعاً ما يكتبون

---

(٣٨) مجمع اللغة العربية في مصر أقرها واعتبرها كلمة عربية فصيحة وأدرجها في الوسيط والوجيز ومعناهـــا صلابة.

(٣٩) عباس محمود العقاد قام ب ذات الصنيع.

وتجعلهم في أمر زواج النبي وفي أمر زواجه من زينب بنت جحش يتجنون على التاريخ ويلتمسون أضعف الروايات فيه مما دُسّ عليه ونسب إليه».[٤٠]

هذا كلام يصيح به ب أعلى طبقات صوته المهيب في خطبة منبرية في يوم جمعة واعظ في مسجد إحدى القرى أو الأحياء الشعبية ولا يستقيم ب حال صدوره من باحث جاد.

ونحن هنا إزاء احتماليْن لا ثالث لهما:

أولهما: أنّ هيكلاً لم يطلع على أمهات كتب السيرة والتاريخ وأسباب النزول والتفسير والأحاديث والأخبار..

وهذا عيب قادح وقصور فادح ونقص واضح.

آخرهما: أو أنه قرأها وسمح له ضميره العلمي أن يرقم هذه العبارات الفلوت وهنا يثبت أنه تخلى عن أمانة القلم.

ومهما تصدى واحد من خشداشينه للدفاع عنه ف لن يفلح لأنه (هيكل) لو هرب من الفرض الأول فإنه سوف يتردى في براثن أو شباك الآخر وهو الأوعر.

* * *

هذا المسلك من جانب هيكل أثار ثائرة الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» ويعرف الجميع عنها أنها باحثة رصينة فضلاً عن أنها سلفية تقليدية لأقصى درجة ـ ف هلهلته.[٤١] وبهدلته «= كلمة عربية فصيحة» ولم تترك له جنباً يرقد عليه.[٤٢]

«إن قصة إعجاب الرسول ب زينب وحكاية الستر من الشعر الذي رفعته الريح وانصراف الرسول عن بيت زيد وهو يقول: سبحان الله مقلب القلوب، قد كتبت قبل أن تسمع الدنيا ب الحروب الصليبية ب أقلام نفر من مؤرخي السيرة ورواة السيرة لا يرقى إليهم اتهام ب عداء النبي والدس على الإسلام.

---

(٤٠) (حياة محمد) ل محمد حسين هيكل ص ٣٣٦ وما بعدها ـ الطبعة الحادية عشرة دار المعارف ب مصر.
(٤١) في المعجم الوجيز/ تهلهل الثوب = رق حتى كاد يبلى.
(٤٢) عبارة تقال في صعيد مصر دلالة على أن الخصم فند جميع حجج خصمه حتى أعياه واضطره للصمت.

ف من الحق أن ندع المستشرقين والمبشرين أمثال موير ومرجليوث وارفنج وسبرنجر لنقرأ القصة على مهل في تاريخ الطبري وفي الإصابة وفي كتب التفسير وفي السمط الثمين». ص ١٤٠.

وفي الهامش: راجعها ب التفصيل في تاريخ الطبري ٢/ ٤٢ و٤٣ وفي النهاية ل بن الأثير/ حوادث السنة الخامسة للهجرة وفي السمط الثمين/ ١٠٧ وفي الإصابة ج/ ٨.

وأضافت ابنة الشاطئ:

«... فيكفى للرد عليه أن ننقل هنا تفسير الزمخشري للآية منذ أكثر من ثمانية قرون ب أن رسول الله أبصر زينب بعد ما أن أنكحها زيداً ف وقعت في نفسه ف قال سبحان الله مقلب القلوب». ص ١٤١/ ١٤٢.

ثم انتهت إلى نتيجة حاسمة وهي:

«... أن الدكتور هيكل أخطأ من حيث أراد الدفاع عن الرسول ذلك أنه ب إنكاره ميل الرسول إلى زينب ورفضه أن يكون ــ ص ــ تعلق بها قد ألقى على المسألة ظلالاً من الريبة توهم أن هذا التعلق خطأ لا يجوز على الرسول ومنقصة يجب أن ــ ننزهه عنها...» ص ١٤٢.[٤٣]

هذا مثل قدمناه لما تقوم به فرقة الطبالين والمداحين بطريقة فجة تلحق ب «الحبيب المجتبى» وب سيرته المعطار أفدح الضرر، ومما يؤسف له أن من جاءوا من بعد هيكل زايدوا عليه وتضاعفت الفجاجة والركاكة والهياف «الضمور»، ولقد تنبأ هو بِ عبقريته الفاذة وبِ معرفته ب ما جاء في التوراة والإنجيل من قصص أنبياء بني يعقوب أن تبعه سوف يطرونه بذات الكيفية التي أطرى بها النصارى عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم، أي أنه حذر منه لأنه الطريق المؤدي حتماً إلى التألية.

* * *

وختاماً ف هذه الفاصلة التي انضوت على قصة الكلبي وبنت جحش وإن طالت بعض الشيء فإنها تضع في حجر القارئ دليلاً على صحة ما جاء ب الشطر الأول من العنوان وهو أن «الفرقان/ القرآن» خصص نصوصاً لتحقيق رغائب محمد وكيف لا أليس هو «سيد الخلائق» على بكرة أبيها؟

---

(٤٣) (نساء النبي) د. بنت الشاطئ ــ د. ت ــ دار الهلال ب مصر.

أطبقت كتب السيرة المحمدية «الشريفة» أن «صاحب النسب الموصول» نكح عائشة بنت أبي بكر التيميّ وهي بنت ست أو سبع سنين وأنه بنى بها «دخل عليها» وهي إما في الثامنة وإما التاسعة، وهو في ذياك الوقت جاوز الخمسين ب ثلاثة أعوام من عمره الشريف وإنها «= التيمية عائشة» أخذتها والدتها أم رومان من على أرجوحة تلعب هي ولداتها عليها كيما تهيئها لما هي مقبلة عليه في حين أنها لم تستوعب جلية الأمر.

ول صغر سنها وجمالها ولأنها البكر الوحيدة بين نسائه العديدات، فقد حظيت عنده وبلغت في نفسه درجة لم تصل إليها إحدى زوجاته بِ استثناء سيدة نسون قريش خديجة بنت خويلد، وفي إحدى المرات حاولت أن تنال من مكانة أم هند «= خديجة» لديه ف زجرها زجراً شديداً حتى قررت فيما بينها وبين نفسها ألاّ تعود ل مثلها وأيقنت أن المقام المحمود الذي بلغته سيدة قريش عنده لم ولن يلحقه رجل أو امرأة.(٤٤)

* * *

وطفق «من تنام عيناه ولا ينام قلبه» يدلل الزوجة الصغيرة ويحملها على عاتقه(٤٥) وكثيراً ما ردد على مسامعها «حبك يا عائشة في قلبي ك العروة الوثقى، وعندما سأله عمرو بن العاص، ذلك الذي فعل الأفاعيل في مصر عندما غزاها غزواً استيطانياً، عن أحب الناس إليه أجاب على الفور: عائشة.(٤٦)

* * *

أدركت التيمية مكانتها في قلب «صاحب الخلق العظيم» ف أخذت هي من جانبها تتدلل عليه مما دفعها إلى أن تأتي ب تصرفات فيها جرأة لم تقدم عليها واحدة من نسونه حتى الحسناوات منهن مثل أم سلمة وزينب بنت جحش.

---

(٤٤) فضلاً ارجع في هذه الخصوصية إلى كتابنا (فترة التكوين في حياة الصادق الأمين) نشرته دار ميريت سنة ٢٠٠١. وظهرت له طبعتان في أقل من ستة أشهر.
(٤٥) (نساء النبي) لِ بنت الشاطئ ص ٧٤ السطر قبل الأخير ــ مرجع سابق.
(٤٦) صحيح البخاري نقلاً عن «نساء النبي» ل بنت الشاطئ ص ٩٢ مرجع سابق.

ففي مرة وهو يجلس مع نفر من صحبه في حجرتها بعثت إليه صفية بنت حيي بن أخطب طبقاً به طعام، وإذ أنها يهودية ومن بيت رفيع فـ َقد عُرف عنها أنها تجيد الطهو فـ َمـــا إن رأت التيمية الصفحة حتى ألقتها على الأرض فاندلق ما بها وانكسرت، كل ذلك أمام الحاضـــرين مـــن تبعه، فـ تبسم ولم يزد على قوله «لقد غارت أمكم» بيد أنه ألزمها أن تبعث لـِ ضرتها صـــفية بـ صفحة عوضاً عن تلك التي حولتها إلى فتات أو فتيت. وباستقراء سيرته الباذخة المنيفة نؤكد أنـــه ما من رجل مهما بلغ خلاطه به أو مَرَة زوجة أو غيرها يبلغ به أو بها الجُسُـــور (بضـــم الجـــيم والسين) أن يفكر مجرد تفكير في الإقدام على مثل ذاك العمل.

وسبق أن رقمنا قولها له: «ما أرى ربك إلاّ يسارع في هواك أو مرضاتك» وتعقيبنا عليه ولقد ذكرت الدكتورة عائشة عبد الرحمن أن التيمية فاهت بهذه الصـــيحة عنـــدما هلـــت (الآيـــة الكريمة) بـ نكاحه بنت جحش «الهاشمية الحسناء».[٤٧]

وإذ إن لكل جواد كبوة ولـ كل عالم هفوة فـ َإن ابنة الشاطئ في هذا الموضـــع غلطـــت مرتين:

الأولى: أن ابنة جحش ليست هاشمية ولا حتى قرشية فـ أبوها جحش ابن رئاب من بنـــي أسد بن خزيمة وأمها هي التي من بني هاشم فهي أميمة بنت عبد المطلب بن هاشـــم والعـــرب لا ينتسبون إلى الأم بل إلى الأب لأن مجتمعهم ذكوري بطريركي.

الأخرى: أن العبارة الفلوت التي جابهت بها التيمية بنـــت أبـــي قحافـــة «ســـيد الأولـــين والآخرين» ليست بـ سبب إشراق آية من الذكر الحكيم بـ نكاحه زينب وإنما قالتها ابنة أبي بكـــر عندما أقدم بعض النسون على هبة أنفسهن له فانبثقت آية «ترجى من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء».[٤٨]

ويبدو أن الدكتورة عائشة عبد الرحمن اعتمدت على الذاكرة وهي خؤون، وقـــد نصـــحنا البحاث ألا يفعلوا وأن يرجعوا في الصغير والكبير إلى المصادر.

* * *

بعد انكسار المسلمين في غزاة أحد ظن الأعراب الجفاة أن نجمهم

---

(٤٧) (نساء النبي) ص ٧٩.
(٤٨) الآية ٥٢ من سورة الأحزاب.

دخل في فلك الأفول ــ وقد خاب فألهم ول جهلهم وبداوتهم لم يقدروا «أبا القاسم» حق قدره وضاق أفقهم عن إدراك عبقريته وقصر فهمهم عن معرفة ملكاته، فـَ طفقوا يتحرشون به ويناوئونه، وأول من بدأ ذلك جلف يقال له عامر بن الطفيل وتعاقد معه بطنان من سلم هما عصية ورعل فـ عدوا على سبعين رجلاً شَبَبَة «شبان» من القراء أي حفظة القرآن الكريم وكلهم من اليثاربة بني قيلة لا يوجد بينهم من النازحين «المهاجرين» أحد فـ قتلوهم عن آخرهم عند ماء يقال له «بئر معونة» وأحزن ذلك «المصطفى» لأنه من رجا «= ناحية» تم غدراً وخيانة. ومن آخر الخسارة في أولئك الشببة القراء الحفاظ ثقيلة، فـَ أخذ يدعو عليهم ومن عاضدهم من الأفخاذ وأفناء القبائل في صلاة الصبح.

وبحيلة دنيئة مشابهة تمكن بنو لحيان من عضل والقارة من استدراج سبعة من القراء الحفاظ أيضا فـ ما إن فارقوا قرية بني قيلة/ أثرب وعند ماء لـ هذيل قريب من الهدة يقال له الرجيع قتلوا بعضهم وأسروا من استطاعوا أسره وأحدهم يسمى عاصم بن ثابت حدثت معجزة بـ شأنه إذ بعد قتله لم يستطيعوا أن يصلوا إلى جسده إذا انتصبت حوله كتيبة من الدبر[٤٩] فكلما اقترب منه أحد الأعاريب الخونة لدغته فـ أطلقت عليه كتب السيرة المحمدية المعطرة «حمى الدبر».

وبِـ المثل حز هذا الغدر الذي راح ضحيته سبعة من خيرة القراء في نفس «الأمين المأمون».

بيد أن انتصاره الساحق على بني النضير وهم من أبناء يعقوب والقبيلة القوية الغنية والتي تنافس القبيلة الأخرى بني قريظة في المنعة والثروة وتمكنه من إجلاءهم من آثرب واحتياز دورهم وأموالهم ارتفعت أسهمه إلى عنان السماء، فـَ من ناحية ما انفكت القبائل البدوية الجافية، سواء حول بني قيلة أو في سائر أنحاء شبه جزيرة العرب، تعيد حساباتها وتعمل لِـ «صاحب العلو والدرجة» ألف حساب، كما أن الغنائم التي غنمها من أولاد الأفاعي بني النضير ساهمت في مضاعفة قوته لأن المال كما هو عصب التجارة فهو مدماك الحرب.

---

(٤٩) العامة في مصر تسميها الدبابير.

كذا فإن تبعه من المنازيح واليثاربة معاً بدأت الثقة تعود إلى نفوسهم سواء مـن الناحيـة القتالية أو العقائدية.

كيف؟

بعد انتصارهم الساحق في غزاة بدر الكبرى قويت روحهم المعنوية بدرجة مذهلة إن فـي الشق الحربي أو في الجانب الإيماني، أما عن الأول فقد هزموا صناديد قريش الذين بلغوا ثلاثـة أضعافهم هزيمة نكراء، وعن الآخر فقد ترسخ في عين يقينهم أن دينهم هو الحق ومن ثم فـإن الله أعلى رايتهم ورفع لواءهم وجعل كلمتهم هي العليا وكلمة عدوهم في أسفل سـافلين كمـا عـزز مكانتهم في يثرب، وقمع مشاكسيهم من اليهود والمنافقين والذين اتخذوا موقف التـربص وسـلكوا درب التردد وأخذوا يقدمون رجلاً ويخنسون الأخرى، وأقنع الأعاريب الغلاظ حولها أنهم بخلاف ما حدّسوه قوة لا يستهان بها ومن العبط تجاهلها.

بيد أنه بعد الوجيعة التي نالتهم في أُحد طفق الخط البياني للثقة في النفس يتدحرج إن مـن الناحية العسكرية أو من الجانب الإيماني. أما الأولى فهي ليست في حوجة إلى كشف الغطاء عنها أما الآخر فيتمثل فيما راودهم من تساؤلات كيف يهزم جند الله مع أن البلاغ أكد أن جنـد الله هـم الغالبون، وهم كذلك!!

إنما بعد سحق بني النضير واستصفاء أموالهم ما فتئ الشعور الذي هيمن عليهم بعد غزاة بدر الكبرى يحتل مكانه الذي غادره ويعدن في الموطن الذي فارقه ويتربع على الكرسـي الـذي هجره.

ويمكن أن نرقم أن جلاء بني النضير شكل علامة فارقة ورسم طريقاً جديداً وفـتح جـادة مغايرة.

فَـ أرسل «المنصوب ب الرعب قرابة شهر» نفراً من تبعه إلى أبي رافع اليهودي الـذي دأب على إيذائه والتطاول عليه ف قتلوه في عقر داره وفي خيبر المعقل اليهودي الحصين والتـي تخبرنا مصنفات السيرة المحمدية البالغة ذروة المجد والسؤدد أن بها أربعة آلاف مقاتـل ف هـل توجد ثقة ب النفس أعمق؟

* * *

سمع «الإنسان الكامل» من عيونه الذين دأب على بثهم في كافة الأرجاء

أن ثعلبة وأنماراً من القبائل البدوية التي تحتل قطاع نجد تحدثها نفسها ب الاحتكاك به وب المسلمين ف خرج في جيش كثف عدته ثمانمائة، وفي روايات أخرى أقل، يريدهم بيد أنه ركبهم الهلع وشملهم الخوف وسيطر عليهم الرعب. ومعروف عن هؤلاء البدو أنهم لا يستأسدون إلاّ على من يوقنون أنه أضعف منهم ناصراً وأهزل منهم عدداً وأنحف عُدّة شأن الجبناء وهم على رأسهم فَ أرقلوا إلى رؤوس الأجبل وتركوا نساءهم في محالهم في سباهم المسلمون وسميت هذه الواقعة «ذات الرقاع» ولم تحقق كسباً مادياً بل ظفراً معنوياً إذ أيقنت القبائل المتبدية أن المسلمين أمسوا قوة غلابة لا قدرة لهم على الوقوف في وجهها.

* * *

ثم غزا «سيد الناس» دومة الجندل وهي طرف من أفواه الشام قاصداً أن يفزع قيصر الروم واستنفر من تبعه ألف مقاتل ولما تناهى الخبر إلى مسامع الجنادلة أخلوها فَ لما وطئها لم يلق بها أحداً ف شنوا الغارة على الماشية ورعائها في احتازوها وأسروها وكرة أخرى حقق الجيش المسلم نصراً معنوياً فحسب.

بيد أنه بخلاف من سبقه ولِ أول مرة في تاريخ جزيرة العرب المبروكة يرى أو يسمع أعرابها الجفاة أن عربياً واتته الجرأة على إرهاب قيصر الروم والاقتراب من تخوم إمبراطوريته ومن منظورهم أنه ضرب من المغامرة غير المحسوبة.

* * *

ثم نصل إلى المحطة النهائية ل هذه الرحلة التي تفوح من جنباتها رائحة الإطالة:

وهي غزوة بني المصطلق أو المريسيع التي وقعت في مختتمها حادثة الإفك وموجز مفاصل الوقعة أن الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق من خزاعة ومنازلهم «الفرع» جمع من قومه وممن قدر عليه من أوشاب الأعراب جيشاً لمهاجمة «المدثر» والمسلمين في يثرب، ويبدو أنه من هذه النوعية من البشر التي ينعت الفرد منها ب «الأحمق المطاع» إذ سرعان ما

طارت الأخبار إلى قرية اليثاربة بني قيلة، فندب «الحبيب المصطفى» الناس ل لقائــه ف مــا إن سمعوا الهيعة حتى سارعوا طائعين ملبين، ومما له دلالة عميقة أن شطراً وســيعاً مــن عصــبة المنافقين الذين أدمنوا التخلف سارعوا هذه المرة إلى الخروج معه، ومرجعه في نظرنا طابور من الدوافع نقتصر منها على ثلاثة نذهب إلى أنها جوهرية.

الأول: الرهبة من سلطان «من جعلت له الأرض طهوراً» الذي غدا قوياً، ويأســهم مــن معارضته أو مناوأته.

الثاني: الرغبة في الحصول على نصيب من الغنائم، لأن السلب والنهب والغــارة علــى العدو وهم نيام يقولون «صبّحناهم» وهذا من سمات الجبن والخسة والنذالة التي امتاز بها أولئــك الأعاريب، والحصول على الأسلاب والغنائم وسبى النسون.. جماعها مكون رئيسي فــي بنيــتهم النفسية. في حين أنه على النقيض يشكل الزرع والحصد والري وجمع المحصول والبناء والتشييد والإعمار عناصر ومقومات شخصية المصري القديم، ومن ثم ترك حضارة باذخة لا ضروب لها حتى الآن، في حين خلّف أولئك الأعاريب الأجلاف قصصاً أليمة عن التصبيح وشن الغارات فــي غفلة المهاجمين «بفتح الجيم» ونوازل فواجع عن القتل والاغتيال وروايات دامية عن أسر الرجال وسبى النسوة والفتيات إما لبيعهن في أسواق الرقيق إماءً وجــوارى وإمــا لاتخــاذهن محظيــات وسراري.

الثالث: إذا ظهرت بوادر هزيمة أو تراجع أو تقهقر لدى المقاتلين اهتبل «المنافقون وقــود الدرك الأسفل من النار» الفرصة وبدأوا ب فتح بوابة الفرار من العدو لِ يلجها الباقون وأشــاعوا البلبلة والتخذيل وأذاعوا أخباراً كواذب ل تثبيط عزم من يقاتل من المسلمين، وجِماعه تنفيس عــن الحقد الكامن في نفوسهم والبغضاء المشتعلة في صدورهم والشنآن الخبئ في قلوبهم نحو «حامــل لواء الحمد»، ومن رأينا أن النفاق ما هو إلا المعارضة السياسية، بدليل أنه لم يفرخ بيضه الفســيد إلا بين بعض بني قيلة، أما في قرية القداسة ف لم يوجد لأنها انضوت ف حسب على معارضــة عقائدية أُسها الخوف على المكانة الاجتماعية، وجرثومتها الحفاظ على المكاسب الماليــة وســندها العض ب النواجذ على المصالح

الاقتصادية ودليل الثبوت على أنها (المعارضة المكية) عقائدية قبلية تتمثل في التمسك ب «دين الآباء» لا شبهة فيها ل الرجا السياسي هو أن الصناديد المكاكوة أو ملأ قرية القداسة عرضوا على «الأمين» الرئاسة بِ شرط أن يهجر الدين الجديد الذي جاءهم به وبداهة رفضه ب شدة.

* * *

كما أن البرهان على أن المنافقين اليثاربة معارضون سياسيون فقط، هو أنهم لم يعلنوا تمسكهم بعقائدهم السابقة فضلاً عن أن يدعوا إليها أحداً، ولم تخبرنا مدونات السيرة المحمدية المعطاءة لكل خير وجمال أنهم في اجتماعاتهم الخاصة بشّروا بِ ديانة مغايرة ل الإسلام أو حاولوا إقناع مسلم ب مفارقة ديانته والولوج في دينهم، إذ ليس لهم دين خلاف الإسلام «عن طريق التظاهر» ولم يطعنوا في العقيدة الإسلامية ولا في العبادات، بل ب العكس عُرف عنهم القيام بها ومن ثم حقنت دماؤهم وأعراضهم وأبشارهم وذراريهم ونسوانهم، فقط عيب عليهم أنه كله صدر عنهم من قبيل المداهنة دون إخلاص، وهذه مسألة متروكة لله وحده، ومن هذا المنطلق عاملهم «الرحمة المهداة» معاملة تبعه المسلمين وأوكل حسابهم إلى ربه. وما حملته مصنفات السيرة المحمدية المعطرة هو غمرتهم ولمزهم لذاته الشريفة مثل قول بعضهم في غزاة الخندق: يعدنا ب كنوز قيصر وكسرى، في حين أن أحدنا لا يأمن على نفسه وهو ذاهب ل قضاء حاجته، فَ هذا نقد خسيس ولكنه معارضة سياسية لم تمس عقيدة أو عبادة وقبلها وغبّ غزاة أحد وما حدث فيها، صرح رأس النفاق عبد الله بن أُبيّ خالفني «رأيه عدم الخروج من يثرب لقتال المكاكوة» وأطاع الصبيان «الشببة الذين اقترحوا العكس» ف هذا أيضا تقييم ل خطة عسكرية وليس طعناً في الديانة. الخلاصة أن النفاق معارضة سياسية. ثم بعدها نستأنف السياق:

وسمع الأعراب الجبناء ب جيش المسلمين ف غدروا ب الأحمق المطاع الحارث بن أبي ضرار وخانوا عهدهم وميثاقهم معه وتخلوا عنه وتركوه هو وبني المصطلق ينالون هزيمة ساحقة، وغنم المسلمون مغانم كثيرة وسبياً كثيفاً، ولو أن مائة واحد من الصحابة أعتقوا السبايا التي وقعن في

قسمهم إكراماً ل جويرية بنت الحارث التي تزوجها «ذو الفضل العظيم» والتي وصفتها التيمية عائشة ب أنها حلوة ملاحة لا يكاد يراها أحد إلا ذهبت ب نفسه، وعرفت أنه سيرى منها مثل الذي رأت، وصدق حدسها، إذ عرض عليها أن يؤدي عنها كتابتها «ثمن عتقها» ويتزوجها فوافقت وتم العتق والنكاح.

* * *

دأب «المعصوم» على اصطحاب زوجة أو أكثر بطريق الاقتراع عند الخروج إلى أي غزاة، وفيها اصطحب أم سلمة وعائشة وهما من أجمل زوجاته وتلحق بهما في البهاء والحسن زينب بنت جحش.

في طريق الرجوع وقرب أثرب بات «أبو القاسم» ومن معه ثم أدلج وأذن ب الرحيل، بيد أن التيمية بنت أبي بكر أبي قحافة شعرت بضرورة قضاء الحاجة فمشت مسافة حتى جاوزت المعسكر وعند عودتها تحسست عقداً من جزع ظفار ف لم تجده ف عادت تبحث عنه إنما عندما وصلت إلى المعسكر فوجئت بأن الموكلين ب جملها الذي عليها هودجها قد ظنوا أنها به فقادوه وارتحلوا مع الآخرين ومن ثم لم تجد أحداً، والحل الذي توصلت إليه بقاؤها في مطرحها حتى يتبينوا خطأهم وعندئذ سوف يعودون ل أخذها.

وآن ذاك من عادة الجيش أن يعين أحد أفراده يسير خلفه لالتقاط ما قد ينساه البعض أو يسقط منهم، وتولى هذه المهمة في تلك الغزوة صفوان بن المعطل السلمي أحد الصحب المخلصين ل «سيد ولد قصي»، فلما رآها استرجع «قال: إنا لله وإنا إليه راجعون» إذ عرفها وأناخ لها بعيره وأركبها عليه وسار حتى لحقا ب الباقين شدّ الضحا.

رأى المنافقون وعلى رأسهم كبيرهم عبد الله بن أُبيّ هذا المنظر فَ أطلقوا ألسنتهم القذرة ب حديث عفن في حق عائشة وصفوان سمى فيما بعد «حديث الإفك» وللأسف ساهم نفر من المسلمين في لوك هذه الحكاية الحقيرة، منهم حسان بن ثابت الذي طالما نافح عن «سيد الخلق» وهجا أعداءه وخصومه، ومسطح بن أثاثة، ومن العجيب أنه يمت بصلة قربى لأبي بكر التيمي، وحمنة أخت زينب بنت جحش ربما اعتقاداً منها ب

أن ذلك يخدم أختها، في حين أن هذه ــ وهي الضرة ــ جاء موقفها على النقيض وشهدت في حق التيمية شهادة رائعة رغم أنها كانت تنافسها في الجمال.

ومما عقّد المسألة أن عائشة في ذياك الوقت لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها فقد ذكــرت جاريتها بريرة أنها ل صغر سنها ترقد عن العجين حتى تأتي الشاة ف تأكله. وهي نفسها وصــفت ذاتها أنها جارية حديثة السن لا تقرأ كثيراً من القرآن وغاب عن ذاكرتها اسم يعقوب فقالــت والله ما أجد لي مثلاً إلا أبا يوسف..

وصغر سن الفتاة مدعاة إلى الظن بها الطيش وعدم التعقل والاندفاع والبعد عن التــروي ومخاصمة قراءة العواقب.. الخ، أي أن هذا العنصر في جانبها أعطى المنافقين الأوباش فرصة لِ مزيد من الاتهامات الباطلة والادعاءات السافلة والمزاعم الفسيدة.

* * *

تولى كبر حديث الإفك والبطلان والافتراء عبد الله بن أُبيّ بن سلول رأس النفاق وزعــيم المنافقين وخبّ فيه ووضع وتوسع فيه ما شاء له خياله المريض ونفسيته الخبيثة وشعوره الدنس.

والنفاق حسبما ألمعنا: معارضة سياسية، أمسك ب زمامها ابن سلول لأنه قبيل أن ينــزح «المعطي جوامع الكلم» إلى يثرب أطبق بنو قيلة أوسهم وخزرجهم على تنصيبه ملكاً عليهم، بيــد أن وصول «المعروض عليه مفاتيح خزائن الأرض». خربق التــدبير وأفســد الخطــة وبعــزق الرصيص، فـَ خاب أمله وطاشت طِلبته وتبددت مُنيته، ف كيف لا يترســب الحقــد فــي فــؤاده وتتغلغل الضغينة في أضلاعه وتتعمق البغضاء في حناياه نحو «أحمد»، والتف حولــه نفــر مــن الذين أصابهم الجزع على مصالحهم لِ عُدون النازحين معهم بين الحرتين وكذا من لهم علائق مع أولاد الأفاعي اليهود وأسسوا ما نستطيع أن نطلق عليه حزباً معارضاً.

أخذ ابن سلول ومن سار في دربه الوبيء يضايقون «إمام الأولين والآخرين» وتبعــه ب الأقوال والأفعال، وما انفك بعض صالحي المسلمين

من رهط عبد الله بن أبي يعتذرون عن أفعاله الفواحش ويقولون ل «صفوة البشر» ارفــق بــه إذ عند تشريفك قريتنا طفقنا ننظم الخرز له توطئة ل تتويجه.

وكلما ارتفع نجم «أحمد» وعلت مكانته وصُعد في الخافقين مقامه تميز رأس النفاق غيظـاً وامتلأ كراهية وتأجج بعضاً.

* * *

وفي وقعة المريسيع أو بنى المصطلق أصيب ابن سلول ب الكمد وعلاه الغم وأحـاط بـه الهم من أخمص قدميه حتى ذؤابة رأسه العفن ل فلج المسلمين الساحق على عـدوهم، لأن كبيـر المنافقين اعتقد أن الأحمق المطاع الحارث زعيم بني المصطلق، وقد جمع الألوف من الأعاريـب ــ كما وصلت إليه الأخبار ــ سوف يكتب له الظفر ف لما حدث العكس تضـاعفت مرارتـه ف انتهز فرصة نزاع بين سقاء النازحين ونديده الذي يعمل ل حساب بعض اليثاربة فـأراد أن يوقـع فتنة هوجاء بين الطائفتين وصدرت منه عبارات طائشة كشفت عن مكنون ذاتـه مثـل «والله مـا صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل = سمن كلبك يأكلك.. ولئن رجعنـا إلـى المدينـة «أثرب» ل يخرجن الأعز منها الأذل.. إلخ.

وتركت هذه العبارات الفلوت أثراً غائراً في نفوس المنازيح حتى إن العـدويّ عمـر بـن الخطاب اقترح على «رحمة الأمة» أن يأمر واحداً من رهط عبد الله بن أُبيّ ب قتله لكنه رفـض هذا العرض النزق الذي لو أخذ به لاشتعلت حرب أهلية بين النازحين وبني قيلة.

وب حكمته الرائعة وأفقه الوسيع وحلمه اللامحدود وخلقه الكريم استطاع «صاحب العلو» أن يخمد نيران الفتنة ويطفئ أوارها ويكتم لهبها.. غبها ازداد رئيس المنافقين تحفزاً وغـدا أكثـر تربصاً وأشد توقانا لأي نهزة وأعمق تشوقاً لأقل فرصة للانتقام من «صفوة البشر» الـذي قطـع تشريفه أثرب عليه طريق الملكية ولا أمل ولا رجاء في ظعنه عنها كما أن سـهمه فـي ارتفـاع مستمر ومن ثم أتت إليه حادثة الإفك من حيث لا يحتسب وظلت تتدحرج حتى قرت قُرورا مكينـاً في حِجره فكيف لا يوسع

فوهة فتنتها ولا يعرّض جوانب بلبالها ولا يعمق غور مرجها ولا يكشف طباق هرجها[٥٠]؟

* * *

رغم ثقة من «أعطي الشفاعة» الكاملة في طهارة وإخلاص زوجته الصبية الجارية «آنذاك» عائشة ويقينه الذي لا يتزعزع في براءتها مما ألصقه «الإفِكيّون» بها ظلماً وعدواناً ونذالة وخسة وجبانة فإن النازلة قد أصابته بقدر غير قليل من الضيق والمعاناة والمكابدة حتى إنه أبدى جفاءً لها ف اضطرت إلى أن تطلب منه أن تنتقل إلى بيت أبيها للتولى أمها تمريضها لأنها عليلة فأذن لها.[٥١]

ويبدو أن المنافقين أمعنوا في السفول والوقاحة وضاعفوا من إطلاق ألسنتهم في حق التيمية وصفوان فاضطر إلى صعود المنبر وخطب «أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي.. ويقولون ذلك لرجل «= صفوان بن المعطل» ما علمت منه إلاّ خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا معي».[٥٢]

ولكن عقب هذا الخطبة أوشك الأوس والخزرج أن يتقاتلا، لأن أحد زعماء الأوس ألحن إلى قتل ابن سلول «الخزرجي» فتعصب له رهطه ولولا دبلوماسية «أكمل البشر» وحنكته ل دخل بنو قيلة في عركة دامية وتمكن بعد لأي من فض الاشتباك بينهما.

إنما هذا الشروع من جانب اليثاربة في العودة إلى حالتهم قبل نزوحه إليهم منذ ما يقرب من خمسة أعوام وكأنما ما بذله من جهود تفوق طاقة البشر لتأليف قلوبهم غدا على جرف سرعان ما ينهار وسببه حديث الإفك، جماعه ضاعف ألمه، خاصة أن هذه الأحداث توالت الواحدة إثر الأخرى وهو في قمة انتصاراته..

ويضاف إليه أن هذا الاتهام الجائر العاري من أي أساس لم يلصق إلاّ بابنة أخلص أعوانه وصاحبه في الغار إبان رحلة النزوح ومن قدم له من

---

(٥٠) اعتمدت فيما أوردته عن الغزوات على «كتاب المغازي» ل محمد بن عمر بن واقد المعروف ب الواقدي المتوفي سنة ٢٠٧هـ تحقيق د/ مارسدن جونس د.ت.ن من منشورات مؤسسة الأعلمي/ بيروت لبنان ــ وهو من ثلاثة أجزاء ويقال: الناس عيال في المغازي على الواقدي وهو شيخ محمد بن سعد صاحب «كتاب الطبقات الكبرى» وقد اشتهر ب «كاتب الواقدي».

(٥١)... (السيرة النبوية) ل ابن إسحق ــ المجلد الثاني ص ١١٦ سابق.

(٥٢) «المصدر السابق ص ١١٧».

الأيادي والخدمات دون مَنٍ وكثيرا ما صرح هو به.. فاستتفر ذلك مزيداً من الاضطراب والتمزق. وبيت التيمي أبي بكر ذاته دخل عليه ما لم يدخل على بيت من العرب كما أكدته عائشة وتصف لنا أنه قبيل أن يقرأ عليهم «من تنام عيناه ولا ينام قلبه» آيات براءتها أوشكت روحا أبويها أن تخرجا مما يشف عن سوء الأحوال النفسية الذي ضرب أبطال القصة.

* * *

من أجله كله أصبح من ألزم اللازم إشراق آية أو آيات تحقق رغبة «خيرة خلق الله» في إظهار براءة عائشة التي لم يساوره ب شأنها أدنى ريب ول يسترد وزيره الأول ــ ونعني به التيمي ــ كرامته وقدره ومكانته ولينقمع الخبيث الدنيء عبد الله بن أبيّ سلول ومُشايعوه ولِ يغلق هذا الملف المرعب كيما يتفرغ لمهامه الجسيمة وليواصل تثبيت أركان دولة قريش في أثرب والتي بها حقق حلم جدوده قصى/ هاشم/ عبد المطلب، وهذا ما حدث.

* * *

(قالت عائشة.. ثم تحولت واضطجعت على فراشي.. وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ب براءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وَحْيٌ يتلى ولَ شأني أحقر في نفسي من أن يتكلم الله تعالى فيَّ بأمر يتلى، ولكني كنت أحب أن يرى رسول الله ــ ص ــ رؤيا يبرئني الله تعالى بها، قالت ف والله ما رام رسول الله ــ ص ــ منزله «يعني مكانه» ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه ــ ص ــ وأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه لِ يتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: ف سرى عن رسول الله ــ ص ــ وهو يضحك، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة أما والله لقد برأك الله، ف قالت لي أمي قومي إليه، ف قلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله سبحانه وتعالى هو الذي برأني، قالت ف أنزل الله سبحانه وتعالى: إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ــ

ال عشر الآيات من سورة النور ــ رواه البخاري ومسلم).[٥٣]

* * *

ندر أن يجتمع ل حديث شريف مثل هذا التوثيق، ومن ثم فَ إنه ثُلّة درجات الصحة وهو ثَرّبِ المعطيات، غنى بِ المعاني، مليء بِ الدلالات متضلع بِ المضامين، التيمية عائشة على لسانها جاء كرتين: «وحي يتلى» و«آمر يتلى» لا «يدون أو يكتب أو يرقم أو ينسخ» أي أن الأصل في القرآن الكريم التلاوة والقراءة والحفظ في الصدور.

وفي الحديث أن «الحبيب المصطفى» بعد أن هلّت آيات البراءة طفق يضحك ونقل إليها البشري وحق له أن يفعل وأن يقول فقد حققت الآيات البينات أمنيته لا في براءة زوجته الحبيبة فهو لم يساوره في ذلك ريب وإنما لأنها «الآيات» إعلام لِ الكافة بها ومن ثم فإن ما فاهت به بنت التيميّ أبي بكر من تطلعها أن يرى «الأمين» رؤيا تبرئها في غير محله لأن البراءة لو سيقت عن هذا الطريق لما كفت ولعقب المنافقون الحاقدون: إن الرؤى تخضع لتعبيرات مختلفة وتفسيرات شتى وتأويلات متباينة بعكس الآيات الحاسمة التي قطعت دابر أي شك وقضت على كل التباس وأنهت سائر ضروب الريب، هذا من أهم دوافع سرور «حامل لواء الحمد» وضحكه.

فقد قمعت هذه النصوص ابن سلول وتبعه ودحرتهم، وأكدت أن مقامه السامي لا تنال منه هذه المزاعم العفنة والافتراءات الحقيرة والادعاءات الباطلة. ومن رجا آخر وثقت طهارة بيت صاحبه ووزيره الأول التيمي ابن أبي قحافة وردت إليه كرامته التي حاول المبطلون خدشها ورفعت رأسه وأعادت إليه مكانته. ولم تكتف الآيات به بل كَ نتيجة حتمية لها أهدى للمسلمين الذين خاضوا في موحل الإفك عقابهم: حسان ومسطح وحمنة

---

(٥٣) (أسباب النزول) ل الواحدي ــ ص ٢١٧ ــ مصدر سابق.
(لباب النقول في أسباب النزول) ل السيوطي ــ ص ١٢٣ وما بعدها ــ مصدر سابق.
وأثبت أنه أخرجه الشيخان أي البخاري ومسلم.
وأضاف: في الباب عن ابن عباس وابن عمر عند الطبراني ــ وأبي هريرة عند الطبراني وأبي اليسر عند ابن مردويه.
و(المقبول في أسباب النزول) ل أبي عمر نادى بن محمود حسن الأزهري ص ٤٨٢ وما بعدها مرجع سابق ــ وقال عنه أخرجه البخاري ومسلم وأحمد في المسند وابن جرير في التفسير والبيهقي في الدلائل والواحدي في أسباب النزول.

بنت جحش إذ أقيم عليهم حد القذف.. وهكذا حققت الآيات التي ظهرت كل ما أمّله «المدثر» وزوجته وأبواها ورهطاهما بل وكافة المسلمين.

وهكذا بِ الأدلة الدوامغ يتوثق ما ذكرناه من تمكّن علاقة جدلية حميمة بين «الهدي = القرآن» وبين المخاطبين به وعلى رأسهم القائد وهي علة تنجيمه أي انبثاقه مُنجّماً ب خلاف التوراة/ اللوحين، أو اللوحين/ التوراة التي هبطت دفعة واحدة من العلياء مرقومة «= ب أصبع الرب» وجاهزة.

* * *

[٨]

تعاقدت نسون «أبي القاسم» على طلب زيادة في النفقة وسألنه شيئاً من عرض الدنيا أو آذينه بِ غيرة بعضهن على بعض أو أنه تأذى ببعضهن فَ أقبلت الآيتان الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون من سورة الأحزاب «يا أيها النبي قل ل أزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فَ إن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً» «بالحل الناجع وبما أزاح عن كاهل «سيد ولد عدنان» هذه الأزمة العائلية التي أوشكت أن تعصف بِ البيت المحمدي الرفيع العماد والمثل الأعلى والقدوة الطيبة والأسوة الحسنة لكل المسلمين لا في ذياك الزمان المدهش بل في ما تلاه من أعصر.[٥٤]

* * *

من أدلة الثبوت على شدة وقعها على «خيرة أهل الأرض» أن التيمي أبا بكر قام إلى عائشة ابنته يجأ عنقها ومثله فعل العدوي ابن الخطاب مع ابنته حفصة.

إنما الحجة الدامغة في أن «صاحب الخير» اعتزل نسونه شهراً أو

---

(٥٤) «تفسير القرطبي» ــ المجلد الثامن ص ٥٢٤٤ ــ مصدر سابق.
«أسباب النزول» ل الواحدي ص ٢٤٠ مصدر سابق.
«المقبول من أسباب النزول» ل أبي عمر نادى الأزهري مرجع سابق.
وقال عنه: أورده مسلم في صحيحه والنسائي في سننه الكبرى، وأحمد في المسند، ومحمد بن سعد في طبقاته الكبرى. ومن هذا تثبت صحة هذا الحديث.

تسعة وعشرين يوماً وهو لم يقدم عليه إلا لفداحة موفقهن لأنه صرح أكثر من مرة ان الذي حبب إليه من الدنيا أمران:

الطيب والنسوان كما قرأنا في سيرته العطرة، إن من عاداته المستقرة أن يمر على بيوتهن جميعاً كل ليلة، (أخرج ابن سعد عن سلمى مولاة رسول الله ــ ص ــ قالت طاف رسول الله ــ ص ــ على نسائه التسع ليلة).[٥٥]

وسلمى مولاته/ خادمته هي التي أرسلها لِ تبشر زينب بنت جحش بِ انبثاق آيات من الذكر الحكيم بِ نكاحه إياها وإذ تحققت الخطة التي أحكمت تدبيرها الأسدية «بنت جحش» سيطر عليها الفرح وشملها السرور وعلتها الغبطة ف نفحت سلمى المولاة/ الخادمة أوضاحها التي عليها وقت ذاك وسلمى هذه بحكم وجودها معه بين نسونه هي أعرف الناس بِ أحواله الشريفة مما يعلي من مكانة هذا الحديث الذي يقويه غيره من الأحاديث والأخبار في هذه الخصوصية.

(وقال ابن سعد عن الواقدي عن موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال: قال رسول الله ــ ص ــ كنت من أقل الناس في الجِماع حتى أنزل الله على الكفيت فما أريده من ساعة إلاّ وجدته وهو قدر فيها لحم).[٥٦]

وبرهان آخر يضاف هو أن الاعتزال شمل جميعهن غير الجميلات مثل سودة وحفصة والوضيئات الحسناوات مثل عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش اللائي حملت إلينا مؤلفات سيرته السامية المنيفة أنه يديم التردد على حجراتهن.

* * *

في هذه الأزمة النفسية التي ألمت بِ «صاحب الحُجّة» والتي تمنى زوالها جاء «أحسن الحديث» الذي يعايش ولا ينفصل عن الواقع الحياتي وتربطه وإياه آصرة قوية الأسر بِ الفرج فَ أشرقت آيتا التخيير اللتيْن أوردنا نصيهما فيما سبق. ف خيّرهن وجميعهن رفضن التسريح وهذا هو

---

(٥٥) (الخصائص الكبرى) للسيوطي ــ الأول ــ باب الآية في جماعة ــ ص ــ ١٦٧.
(٥٦) ذات المصدر والصفحة ــ وفي هامشها.
حبب إليّ النساء ورزقت الكفيت أي ما أكفت به معيشتي يعني أضمها وأصحها وقيل أراد بالكفيت قوة الجماع اﻫ.

المتوقع إذ لا يعقل ألا تريد واحدة منهن الله والأجر العظيم والعشرة المثالية مع «متمم مكارم الأخلاق» وتفضل عرضاً من الدنيا قليلاً.

ومن البديهي أن يسر خاطره ويفرح:

وقالت عائشة ــ رض ــ ف فرح بذلك النبي ــ ص ــ وضحك».(٥٧)

وحق له أن يفعل فقد انفكت معضلة كادت تتسبب في صدع حياته العائلية، وبذا ــ هلّت إشراقات من الذكر الحكيم آزرت «المصطفى» ووقفت بِ جانبه في شدته وأخذت بِ ناصره وأزاحت عنه ما غمّه وأقلقه، تماماً مثل ما حدث في المرات السوابق.

* * *

عندما نزح إلى قرية الحرتين «صاحب البيان» وتبعته القلة التي آمنت ب دعوته واعتنقت الديانة التي بشر بها في أم القرى ل مدة ثلاثة عشر عاماً ثم عَدَن بـأثرب برهة درس فيها ب عناية مكثفة الأحوال إن في داخلها أو في ما حولها بعدها بدأ يرسل السرايا وحرص على ألا يؤمّر عليها أحداً من غير المنازيح وخاصة القرشيين ل أسباب يدركها اللوذعي وينقهها الفطن ويلمحها الذكي. وهناك نفر من المؤرخين الأثبات على رأسهم الواقدي يؤكد أنه لم يشرك أحداً من بني قيلة فيها حتى غزاة بدر الكبرى وهو ما نرجّحه وعللناه في كتاباتنا السوابق.

* * *

لم يمض عليه سوى سبعة أشهر حتى استهلها ب سرية وضع على رأسها عمه الحمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر الأحمر وبعدها ب شهر واحد عقد لواء آخر لِ عبيدة بن الحارث إلى رابغ، ولم ينصرم شهر حتى استنفر ثالثة ألقى زمام قيادها إلى سعد بن أبي وقاص وجهه إلى خرار الجُحفة القريب من خُمّ.(٥٨)

ثم غزا بِ نفسه الشريفة الأبواء على رأس أحد عشر شهراً وفي الثالث عشر بواط حيال ضبّة من ناحية ذي خشب ثم أعقبها غزاة بدر الأولى أو

---

(٥٧) (التيسير خلاصة تفسير ابن كثير) المتوفى سنة ٧٧٤هـ ــ بقلم محمود محمد سالم ــ خريج الأزهر ــ ص ٩١٢.

(٥٨) يوجد في خم غدير يؤكد إخوتنا الشيعة أن «المحمود في الأرض والسماء» أعلن أن على بن أبي طالب كرم الله وجهه وعطر مرقده هو وصيه وهم يحتفلون بِ هذه المناسبة وأهل السنة والجماعة ينكرون مسألة الوصية مع ملاحظة أن حديث غدير خم ورد في صحيح البخاري ــ انتهى.

الصغرى وما إن بزغ هلال السادس عشر حتى شهد غزوة ذي العشيرة. وبعدها ب أربعة أسابيع سرية نخلة وأميرها عبد الله بن جحش وس نقلّب أخبارها فيما يلحق. ثم سرايا وغزوات أخريات لا موجب ل ذكرها لِ أننا لسنا ب صدد استقصائها ف ليرجع إليها من أراد في مصنفات السيرة المحمدية العاطرة الفاخرة.

* * *

لماذا أقدم «المصطفى» على إنفاذ السرايا ثم بعث الغزوات ولم يمر على مقامه ب ببلدة الأثاربة سوى شهور قليلة؟

هناك بواعث عديدة لَبَكَ بعضها بالبعض واختلط أحدها بِ الآخر وأنشب أولها ب منتهاها والتبس المجلى «السابق» ب المصلى «اللاحق له» ومن ثم يتعذر ترتيبها، منها: النشأوى «من النشأة» والنفسي والسياسي والاقتصادي، ولذا فسوف ننسخ طرفاً منها بِ أيأته «هيأته» المتشابكة ونحاول على قدر الطاقة والوسع تصنيفها:

١ ــ من استقراء المعالم التاريخية والأنساق الاجتماعية ندرك أنه لدى عربان شبه جزيرة العرب الميمونة فإن الغارات ومداهمة العدو وغزوه وتصبيحه أي كبسه «الهجوم عليه» وحياطته في عماية الصبح وهو مستغرق في نوم عميق، يشكّل شطراً وسيعاً من تكوينهم النفسي ومساحة عريضة من بنيتهم الوجدانية ومكاناً رحباً من سمتهم الشعورية، فضلاً عن أن ما تدره هذه الهجمات من عائد يتمثل في الأسلاب والغنائم هو مصدر دخل على درجة من الأهمية والاستمرارية معاً حتى إنه من المتعذر أو المستحيل تصور وجود مجتمعهم إذا صفر من الغارات أو خلا من الغزوات أو تجرد من المنهوب أو خوى من المغصوب وهو مَعْلم متوافق تماماً مع أوديتهم غير ذات الزرع وجهالتهم التي تحول دونهم ومعرفة استخراج المعادن التي بدونها لا تقوم صناعة.

٢ ــ إن الأخذ بِ الثأر عرف مستقر لديهم وعادة مركوزة في نفوسهم وتقليد راسخ في وجدانهم حتى إنهم عندما دعسوا أرض الكنانة بِ خيولهم المبروكة وغزوها واستوطنوها واستعمروها ونهبوها بقيادة عمرو بن العاص ــ ذلك الذي فعل الأفاعيل في مصر المحروسة هو وجنوده

الأعاريب ــ جلبوا معهم هذه العادة الحضارية الرائعة وما زالت رغم ذهاب أكثر من أربعة عشر قرنا مُعششة في الأقاليم التي استوطنوها بحد السيف بكثافة ثم عدنوا فيها مثل الصعيد ومحافظة الشرقية.

* * *

إذا تجاوزنا التنظير إلى التطبيق العملي أو بِ عبارة مقاربة إذا أنزلنا المبادئ على ما وقع فعلاً نجد أن «المنصور بالرعب مسيرة شهر» علاوة على أنه ابن بجدتها فإنه أثبت ــ ودائماً ــ أنه سياسي محنك وقائد فاز وعسكري طويل الباع واقتصادي خبير.

أطبق طواغيت مكة على أن ينزح منها تبعه مليطين لا يملك أحدهم شروى نقير حتى دورهم وضعوا أياديهم النجسة عليها فَ وصلوا إلى قرية اليثاربة وقد صفرت أيديهم حتى من الفلوس «العملات الصغيرة» وليس من بينهم من يعرف مهنة أو حرفة أو صناعة إلا النادر الذي لا يقاس عليه إذ من المعروف أن قريشاً قوم تجار والمال هو شريان البيع والشراء وب دونه يتحول التاجر إلى صعلوك.(٥٩)

ولولا أن بنى قيلة أظهروا كرماً ف آووا المنازيح ل تفاقمت أزمتهم ولَ غدوا في وضع بئيس وانطلاقاً من نشأته الرائعة وعبقريته التي لا ضريب لها ألفى أن إرسال صحبه في سرايا سوف يحقق له ولهم أهدافاً عديدة منها:

أولاً: الموجهة ل اعتراض قوافل صناديد قريش:

أ ــ الراحة النفسية الكاملة التي س تشملهم بِ أن تشفي صدورهم وتريح قلوبهم وتدخل السرور على أفئدتهم من الذين أخرجوهم من بلدتهم الحبيبة وقلعوهم من دورهم واحتازوها واستولوا على نشبهم وتجاراتهم وجماعه تم ظلماً وعدواناً وجوراً واغتصاباً إذ كل جريرتهم في نظرهم «= طَواغيت مكة» أنهم اعتنقوا الديانة التي أفشاها «سيد بني هاشم».

ب ــ الخناق الاقتصادي الذي سيضرب أفراد الملأ القرشي الذين لا همّ لهم إلاّ جمع المال من أي طريق بغض النظر عن الوسيلة فهم يتعاملون بِ

---

(٥٩) فيما بعد وصف «سيد ولد آدم» أحد صحبه وفي ذات الوقت صهره ب أنه صعلوك ومن الغريب أنه بعد أقل من ربع قرن تولى هذا الصعلوك ولاية الشام لعشرين عاماً ثم خليفة عشرين أخرى!

الربا الفاحش.[٦٠]

واستحلال عرق العبيد بل وأفخاذ الإماء والجواري، فقد نقلت إلينا مدونات السيرة المحمدية الفياضة بِ النور أن بعضاً من أكابرهم تملك البغايا اللاتي عرفن ب «صواحب الرايات الحمر»، فقد سمحت أخلاق أولئك المرازبة الجحاجح أن يغدو الواحد منهم ديوثاً ولا يرى فيه مسبة أو عيباً أو نقيصة أو مما يخل ب الرجولة أو يخدش الكرامة أو يمس المروءة

ج ــ الغنائم والأسلاب التي يفوز بها الصحاب بعد كل هجمة وإثر كل غارة وعقب كل كبسة وغب كل هيعة ستعدل أحوالهم المالية وتجعلهم أقل اعتماداً على بني قيلة مما يمنحهم استقلالاً في الرأي وحرية في اتخاذ القرار وطلاقة في التصرف.

د ــ تخلف في قرية القداسة عدد من ضعفة المسلمين الذين منعتهم ظروفهم من النزوح إلى يثرب وعندما يتيقن طواغيت قريش أن «سيد البادي والحاضر» أمست شوكته قوية ويداه ذواتي طول ودراعه لها قدرة فَ لا شك أنهم سيكفون آذاهم وسيرفعون رذالاتهم وسيمنعون سفاهاتهم عنهم، لأن هؤلاء العرب الأجلاف يخبرنا تاريخهم المجيد بل يؤكد أن الجبن طبيعة فيهم والخسة غائرة في حنايا نفوسهم والنذالة من مقومات تكوينهم ولا تردعهم إلا القوة ولا يعملون حساباً إلا لِ الغلبة فهم لا يستأسدون إلا على النحيف الأعجف المهزول. أما إذا لاحت لهم أي بارقة منعة فإنهم يولون الأدبار.

هـ ــ القبائل حول مكة وقرية الحرتين المتربصة المنتظرة عندما ترى أن «صاحب الزوجات الطاهرات» فثأ شدة المكاكوة وكسر حدتهم وفت في عضدهم ووهّن جمعهم وأصابهم بِ البوار وألحق بهم الخسار وأزال مهابتهم ومرّغ كرامتهم في التراب وأوقَعهم في المواحل فإنها «= القبائل الجافية المتبدية» ستعيد حساباتها، فَ إن وجد حلف يربطها بهم فسخته أو موالاة أنكرتها أو إيلاف ضربت به عُرض الحائط أو عقد نبذته.

وليس هذا بمستغرب على الأعاريب فهم كما وصفناهم. ثم يرقلون إلى التقرب إلى «سيد الناس جميعهم عرباً وعجماً» وإلى طلب وده والعمل على نوال رضاه.

---

(٦٠) من بين أكابر المرابين العباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد بن المغيرة قبل إسلامهما.

ثانياً: عن السرايا التي أرسلت إلى القبائل:

أ ــ يأتي في البديّ الظفر بَ الغنائم هو قاسم مشترك مع الأول «التعرض ل قوافل أهل مكة» والعنصر المادي عامل في غاية الخطورة ويتوجب أن يتوافر ل المنازيح في أقرب آونة، لأن المليط من النشب الصفر اليدين من المال، الخالي الوفاض، المملق تراه زائغ البصر، مشوّش الفكر، نفسيته محمومة ووجدانه مضطرب، ومثله لا نفع منه في شأن ديني ولا رجاء في أمر دينوي.. خاصة أنهم «= النزحة» جرثومتهم «أي أصلهم وأسّهم» من سخينة.(٦١)

وقد وصف الذكر المعظم بنى سخينة أنهم «يأكلون التراث أكلاً لما، ويحبون المال حباً جماً».(٦٢)

ب ــ نشر الديانة الإسلامية التي جاء بها «النذير»، ففي حديث محمدي لا مطعن عليه ورد في صحيح مسلم أنه أمر أن يقاتل الناس حيث ينطقوا ب الشهادتيْن ف إن فعلوا عصموا دماءهم وأموالهم، وكذا آية السيف وهي الواحدة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة التي هي باتفاق مدنية وهناك من رأى أنها أشرقت في رحلة النزوح ما خلا بضع آيات.

ونحن ملزمون ب احترام اتفاق العلماء الأثبات على أنها مدنية إذن هي ب استنطاق وقائع السرايا والمغازي والبحوث.. قد هلّت قبل تحريكها أو تسييرها أو استنهادها، ومن ثم قرأنا في أخبار بعضها لا كلها أن قائد أو أمير وأعضاء السرية ملزم ب دعوة المغزوين أو المصبّحين «بفتح الباء مع التشديد» أو المهاجَمين «بفتح الجيم» إلى الدخول في دينهم ــ دين الإسلام ــ ف إن فعلوا شملتهم عصمة الأبشار والأموال وإن استكبروا اعملوا فيهم السيف فَ قتلوا رجالهم عن بكرة أبيهم وأسروا من استأسر «رفع الراية البيضاء» واسترقوا ذراريهم وفتياتهم ونسونهم فإما استبقوهن ل المتعة أو الخدمة وإما باعوهن في أسواق النخاسة واستوفوا أثمانهن.

---

(٦١) سخينة هي قريش، هكذا وصفها كعب بن مالك في إحدى هجائياته ل المكاكوة وقد أعجب الحبيب ب هذا الوصف وهذا الشعر وقال له: ما نسي ربك وما كان ربك نسياً شعراً قلته ــ ا.هـ. ومالك أحد شعرائه المدافعين عنه مثل حسان بن ثابت وكعب بن زهير ــ «دلائل إعجاز القرآن» ل عبد القاهر الجرجاني ــ قراءة وتعليق أبو فهر محمود محمد شاكر ــ ص ١٧ طبعة سنة ٢٠٠٠ مكتبة الأسرة ــ الأعمال الدينية ــ الهيئة المصرية العامة.

(٦٢) سورة الفجر/ الآيتان التاسعة عشرة والعشرون.

وفي كلتا الحالتين هم الكاسبون فـ إن لم يذعن المغزون في عقر ديارهم وأبوا الإيمان بـِ عقيدتهم غنموا الأموال والأسرى «الرجال» والنساء الفتيات والذرية أما إن أسلموا فـ علـيهم بـ الظعن إلى أثرب لأن الإسلام لا يتم إلا به، فـَ هذه قاعدة أصلها حديث محمدي شريف في غاية الصحة، وهنا يغدو الرجال قوة تضاعف إلى جيش المسلمين ويفرز اتساعاً لرقعة الإسلام كما يؤدي إلى موازنة تدريجية بين عدد المنازيح وعدد الأثاربة وفيه ترسيخ لـ مركز «خيرة خلق الله» وهو يعمل بـ همة قعساء على إنشاء دولة قريش ــ حلم أجداده قصيّ وهاشم وعبد المطلب.

ج ــ إشعار القبائل في كافة أنحاء الجزيرة العربية المباركة بـأن نجم بنى سخينة أو المكاكوة أو طواغيت قريش في أفول ومنعتهم في طريقها إلى الضمور وضوءهم في ذبول ومكانتهم في انحدار، ومن ثم فـ على كل قبيلة تحكيم عقلها فـ لا تختار الجانب الذي يتدحرج بـِ سرعة نحو الهاوية.

د ــ في صفحات السيرة المحمدية العظيمة بضعة أخبار عن عدد من زعماء القبائل ممن راودته نفسه الأمارة بـ السوء ووزّه طموحه الأرعن ودفعه شيطانه المريد أن يسيطر على الجزيرة العربية فـ يمسب هو عميدها وسيدها وملكها وينافس «ذروة سنام بني إسماعيل».

بيد أن توالى السرايا والغزوات والبعوث والفرق «= مهمتها التصفية الجسدية للمناوئين» يقطع دابر أحلام أولئك الطائشين ويقنعهم بـ أنها مجرد أضغاث أحلام أو هي رؤى يقظة لا صلة لها بـِ الواقع وأن وشيجتها بـ الحقيقة مهترئة وحبلها بـ الأوضاع الرواهن ذائب.

هـ ــ هناك حصيلة مؤكدة من الغزوات والسرايا والبعوث وهـي أسـر نسـون وفتيات الأعادي الذين لا يستسلمون ولا يسلمون بل يظلون على عنادهم ويتشبثون بـ كفرهم ويتمسكون بـ ضلالهم ومن بين هاتيك المأسورات: الحسناء والوضيئة والفائقة الجمال والبالغة القسامة ومثلهن لا كفىء لهن إلاّ «صاحب التاج والبراهين» وقد نسخنا فيما سلف أن جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق وصفتها التيمية بنت ابن أبي قحافة أنها حلوة ملاحة تأخذ بنفس من يقع بصره عليها وأن حدْسها «عائشة» لم ينزل الأرض فـَ لما جاءت إليه تستعينه على أداء مكاتبتها «ثمن عتقها» للصاحب الذي وقعت في قرعته «حظه ونصيبه» عرض عليها

أن يعتقها وينكحها هو ف قبلت على الفور لأنه شرف لم يخطر لها في يقظة ولم تره في نومة.

* * *

وفي غزاة خيبر أسرت صفية بنت حيى بن أخطب أحد زعماء أولاد الأفاعي ومن أنشط العناصر التي دأبت على التأليب والتجييش والتحريض ضد «أبي القاسم» وقد قتل زوجها كنانة بن الربيع وهو مالك أمنع وأقوى حصن في خيبر ومن ثم أصبحت «= صفية» خلاءً من موانع النكاح فـَ لما دنا منها وشملها ب نظرة فاحصة ألقى عليها رداءه «وهي عادة عربية مستقرة تعني العزم على الزواج» وأمر بها في حِيزت خلفه ف علم تبعه أنه اصطفاها لِ نفسه.

وسلمها ل الماشطة «الكوافيرة» أم خادمه أنس بن مالك[٦٣] كيما تقينها «= تزينها» ف وصفتها ب أنها لم تر بين النساء أضوأ منها.

وأقيمت وليمة عرس حافلة بِ طيبات خيبر ف أكل المدعوون حتى شبعوا ودخل عليها وهم في طريقهم إلى قرية الحرتين وتطوع أحد كبار بني قيلة بِ حراسة القبة التي شهدت الدخول وظل ساهراً طوال الليل متوشحاً سيفه حتى الصباح ففاز بدعوة طيبة «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني» وعلل اليثربي ما فعله ب «أن هذه المرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك».[٦٤]

وما جاء على لسان أبي أيوب من نعت صفية ب أنها كافرة غير صحيح ف هي يهودية وهو قد فاه بذلك ل يعلي من قدر الحراسة التي تطوع بها أ.هـ.

إنما من باب الأمانة العلمية علينا أن نرقم أن نكاح الأسيرات الفواتن شكل قصداً هامشياً وب أي حال من الأحوال لم تستهدفه الغزوات والسرايا في المقام الأول ولم يدخل في حساباتها الهامة، بيد أن التحليل الموضوعي الصحيح لا يشمل القصود الرئيسية فحسب بل يتعين حتى

---

(٦٣) (تحول بعد الغزو الاستيطاني النهبوي ل دول الجوار من كبار الأثرياء).

(٦٤) «نساء النبي» ل د/ بنت الشاطئ ــ الفصل العاشر: (صفية بنت حيي ــ عقيلة بني النضير) ص ١٥٩ وما بعدها واستندت في ذلك إلى: «السيرة النبوية» ل ابن هشام وتاريخ الطبري» ل ابن جرير، و«الإصابة» ل ابن حجر.. الخ.

يغدو مكتملاً وعرّياً عن النقصان أن يضم بين حناياه الأهداف الجانبية خاصة أن الفهـوم تختلـف والعقول تتباين والأنظار تفترق في توصيف الغايات ف ما قد يراه البعض جِدّعاً ينتهي الآخر إلى أنه فرع وما قد يذهب إليه واحد أنه جوهر يعده الآخر عرضاً ويقدر نفر أنه خطير في حـين أن آخرين يؤكدون أن أهميته بين بين.

* * *

ثالثا: عن المقيمين في قرية الحرتين:

أ ـ ب النسبة إلى اليهود الذين حققوا وجوداً كثيفاً فيها وربطتهم ب بنـي قيلـة وشـائج متشابكة: الجوار ـ الحلف ـ الولاء ـ المناكحة[٦٥] والعلاقات التجاريـة والماليـة والزراعيـة وتنشئة الأولاد لدى القبائل اليهودية ف الأثربية التي يموت أولادها في طفولتهم عندما تـرزق ب ولد تبعث به إلى القبيلة اليهودية التي يربطها بقبيلتها عقد لِ يتربى بينهم ب اعتبار أنهم أهل كتاب وفيهم البركة، وقد حدث أن كثيراً منهم اعتنقوا ديانة أولاد الأفاعي ونفر منهم رفض بشدة تركهـا والدخول في الإسلام وبعضهم فضل مصاحبة اليهود الذين أجلاهم «أبو القاسم» عنها على العـدن في يثرب بين أهله وعشيرته ا.هـ.

ف قد ذكرنا فيما سلف أنه في المبتدأ عمد إلى الملاطفة والملاينة، لكن التركيبـة النفسـية لأولاد يعقوب من التعقيد بحيث إنها لم تستجب ربما لأن بأيـديهم الكتـاب المقـدس الأول أو لأن التجارب المريرة التي مروا بها والتي حكى رواياتها إسطيرهم العتيق وما وقع لهم بعـد تدوينـه. ويضاف إليه نظرتهم المتعالية ل العرب والعربان والأعراب والأعاريب وما ترسب في وجـدانهم أنهم أرقى منهم في سلم الحضارة، جماعه قبض نفوسهم عن مبادلة مبادرات «الحبيب المصطفى» ب مثلها ولو اكتفوا ب هذا الموقف السلبي ل هان الخطب بيد أنهم عمدوا إلى الدس ومـالوا إلـى الوقيعة وجنحوا إلى الفرتكة وعملوا على النقض وسعوا إلى الإتلاف وعاضدهم تقدير بنـي قيلـة لهم بِ اعتبار أنهم أصحاب إسطير مقدس وعندهم علم وفير ب «الكتاب» مما دفعهم إلى مزيد من التحريض والتحريش والإفساد.

---

(٦٥) «= كعب بن الأشرف الذي أرسل «المنصور ب الرعب مسيرة شهر» فرقة مما يمكن أن نسـميه «سـلاح المهمات الخاصة» صفته جسدياً أبوه عربي من طيىء وأمه يهودية».

لقد غاظهم وأحرق قلوبهم وأضغن صدورهم أن ما توعدوا به بني قيلة من ظهور نبي من سلالة إسحق بن يعقوب يستنصرون به عليهم لم يتم إنما الذي دفع الإحباط ل الهيمنة على نفوسهم ووز اليأس ل السيطرة على وجدناهم وحث الخيبة القوية ل التغلغل في شعورهم هو نجاح «أكمل البشر» في إعادة الوئام والصفاء بين فرعي بني قيلة لأن هذا التأليف بين قلوبهم أصابهم في مقتل ف هم يستثمرون الشقاق بين العشيرتين ويتكسبون من الفرقة بين الرهطين ويتربحون من دوام التناحر بين الفريقين. وفي محاولة يائسة ومخطط ساقط وبادرة خبيثة أرسل بنو قينقاع واحداً من شبانهم الرقعاء وفتيانهم المخنثين وأولادهم الخلعاء ف جلس بين اليثاربة وأخذ ينشد أشعاراً مما قاله الجانبان في «يوم بعاث».[٦٦] فاشتعلت الحماسة واتقدت الحمية وارتفع لهيب العصبية وامتشقوا السلاح ل يحارب بعضهم بعضاً ول يستكملوا ما بدأوه في وقعة «بعاث» لولا شجاعة «سيد أهل الله» وحكمته وذلاقة لسانه ف أغمدوا السيوف وطفقوا يتعانقون وعيونهم تفيض ب الدمع السخين ندماً على السقطة التي تردوا فيها والزلة التي ارتكبوها والخطيئة التي مارسوها والفحاشة التي أقدموا عليها، ومما زاد مرارتهم وضاعف ندمهم وعمق أساهم أنهم لم يلتفتوا إلى مكر أولاد الأفاعي ولم ينتبهوا إلى خبثهم ولم يفطنوا إلى مكيدتهم.

هنا أدرك «الصادق المصدوق» أنه لا فائدة فيهم أو معهم وأن النعوت التي وسمهم بها عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم صحيحة، ونقه أن الانتصارات التي يفوز بها في المغازي والسرايا وترفع رايته إلى عنان السماء ستدفعهم إلى التزام جحورهم والقبوع في وكورهم والخنوس إلى أكنستهم.

بيد أن هذا الهدف لم يفلح ولم ينجح كله ولم يظفر جميعه بل فاز جزئياً ف بعد بدء المغازي والسرايا لملم بنو إسرائيل أرجلهم المفرشحة إنما

---

(٦٦) عركة شهيرة بين الأوس والخزرج حدثت قبل الإسلام، سقط فيها قتلى من كلٍ وتوزع فيها أولاد الأفاعي فَ حالف بعضهم الأوس والآخر الخزرج. ا.هـ.

ظلت أياديهم الوسخة وأصابعهم القذرة وأناملهم الملطخة وراحاتهم الدرناء تعمل في الخفاء ف تحيك الدسائس من وراء ستار وتدبر المكائد في العتمة وتخطط للفتن في الظلام ومن ثم عالجهم «السراج المنير» ب الدواء الناجع ل شرورهم وعاجلهم ب ما استأصل شأفة آثامهم وقضى على سمومهم ف قتل من قتل وغرب من غرب.

ب ــ وصفنا المنافقين ب المعارضين السياسيين الذين هم ب بمثابة الشوكة في الحلق أو الطابور الخامس الذي يمالئ العدو ويعاون الخصم ويعاضد المحارب ويساعد المهاجم وأخطر ما فيهم إظهارهم المودة وإبطانهم العداوة وإبرازهم الصفاء وإخفاؤهم الضغينة وإعلانهم الإخلاص ودسهم الشحناء.

من ثمة طفق «سيد ولد آدم» يعدهم من ألد الأعداء وإن اضطر إلى ملاينتهم لأنهم ينطقون ب الشهادتين ويؤدون صلوات النهار بل ويحضرون بعض مجالسه الشريفة ب حسبان أنهم من الصحب الخلص والتبع الأوفياء.

وجاءت المغازي والسرايا ضربة على رؤوسهم، إذ انتصر «سيد البادي والحاضر» في عامتها وفلج في غالبيتها وظفر في أكثريتها الأمر الذي أصابهم بالغم وملأهم ب النكد وشحنهم ب الكراهية حتى إنهم في بعض الغزوات والسرايا اضطروا إلى الخروج وسبق أن أوضحنا دوافعهم.

* * *

بعض بني قيلة آمن بدعوة «أشرف ولد عدنان» وهو في المشاعر المقدسة قرب مكة وتحديداً في منى واندفع جمهور غفير منهم إلى اعتناق الإسلام على يد مندوبه الذي بعث به إلى قريتهم مصعب بن عمير وهو أحد الصحبة الخلص المتجردين بينما الغالبية أسلمت عند نزوحه إليهم. إنما الذي لا مشاحة فيه أن شطراً لا بأس به من الأثاربة ظل متردداً يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى، يظهر ثم يخنس، يبرز ثم يكنس، والدوافع كثيرة والبواعث متعددة والتحضيض أنواع منها:

الحماسة ل العقيدة السابقة أو الاقتناع ب آراء يهود أو لِ انتصاب العلاقات الملتبكة التي ذكرناها فيما سلف ربما أكثر من مرة.

فَ جاءت الغزوات والسرايا والبعوث تضع حداً لِ الذبذبة ولو أنه لم يتم دفعة واحـــدة، فَ حين ينتصر المسلمون مثل ما حدث في بدر الكبرى يتشجعون ولما ينكسرون كما في غزاة أحـــد يتقهقرون إذ طفقت نفوسهم تخاطبهم: لو أنهم على حق لما تخلى عنهم ربهم، ولضيق أفقهـــم لـــم يدركوا أن الفلج والخيبة في المعارك مرجعها إلى حُسن التخطيط أو ســـوئه ودقـــة الاســـتعداد أو خربقته وثقل التسليح أو هزاله وهكذا، ولا صلة لهما البتة ب الماورائيات ولا وشيجة بينهما وبـــين الغيبيات ولا حبل يربطهما ب العوالم الخفية ولا علاقة لهما ب الكائنات غير المنظورة الخ، الخ.

* * *

لما شالت كفة الهزائم ورجحت كفة الانتصارات السواحق وارتفعت الرايات المحمدية إلى أعلى عليين، وإذا شئنا الدقة رقمنا أنه بدأت تلوح في الأفق بشائر الظفر وتظهر علامـــات الغلبـــة وتحصحص آيات النجاح خلف المترددون وراء ظهورهم التذبـــذب وتركـــوا الإحجـــام وفـــارقوا الارتجاح وطفقوا يعتنقون الديانة الإسلامية على ريث لا على عجل وعلى مهل لا علـــى ســـرعة وب روية دون اندفاع. بيد أن مصنفات سيرة «المحمود في الأرض والسماء» أخبرتنا أن إسلامهم لم تشبه شائبة ولم تخالطه عكارة ولم تفسده غبرة وغدا شطر وسيع منهم من خيـــرة الأصـــحاب وأبلى بعضهم في سبيل الإسلام بلاءً حسناً.

* * *

تلك إذن الأسباب أو الدوافع التي وزّت «صاحب الجهاد» على إصدار قراره الحاسم القيام بِ المغازى وبعث السرايا وإرسال البعوث وإنفاذ فرق المهمات الخاصة التـــي اقتصـــرت علـــى تصفية الأعداء جسدياً واشتبكت البواعث بِ النتائج وبلغ في عدد منها حـــداً يصـــيب بِ الربـــك ويدعو ل الحيرة ويستنفر الدهش، إذ من الصعب التوصل إلى رأي سديد: هل هـــذا حضـــيض أم محصّلة؟

إنما في مغلاق الشأن تبقى حقيقة مؤكدة أنه أثبت ويثبت دائماً في مختلف مقـــاطع ســـيرته المعطاءة أنه عبقري لا يفري فريه أحد وفاذ شديد الفذوذة لم تر له جزيرة العرب مثيلاً ولا حتـــى شبيهاً.

إذ إن القرار الذي نسخناه في فاتحة هذه الفاصلة «= إرسال الغزوات والسرايا والبعوث» من أحكم القرارات التي اتخذها في حياته المباركة والحصيلة التي نتجت عنه بكل المقاييس: العسكرية والاقتصادية والأمنية والاجتماعية والإعلامية والسياسية فاقت كل التصورات حتى إن عصبة ممن رقموا سيرته المجيدة بَهَرتهم المغازي فاحتلت رجاً مفرطحاً من مصنفاتهم ولو أننا نفاصلهم فيه لأن في مذهبنا أن الحقبة المكية هي الأعظم والأشمخ ولو أن كل مراحل حياته الشريفة هي كذلك وخاصة فترة التأسيس(٦٧) فهي ذروة سنام التألق وقُلة «بضم القاف» الروعة وقمة السمو.

* * *

جِماع ما سبق هو فرشة ل السرية التي هلّت عقبها آيات من (الموعظة = القرآن) تقف بِ جانب «المعصوم من الناس» تعاضده وتؤازره وترفع عنه الحرج وتنفي عنه الضيق وتغرّب عنه القلق وتخرس ألسنة الشانئين وتلقم الأعداء حجراً وتقطع حجة المناوئين.

تلك هي «سرية نخلة» أو «سرية عبد الله بن جحش» الذي أمّره «من تنام عيناه ولا ينام قلبه» على نفر من قريش ودفع إليه كتاباً أي رسالة مكتوبة على صحيفة من جلد مطوية لا يفتحها إلا بعد مسيرة ليلتين وفي بقعة يطلق عليها «بطن نخلة» نشرها وقرأ ما فيها على مسلحته فإذا بها تخيير لهم: من يشاء أن يمضي ومن أراد أن يتخلف ويعود ل داره.

ومن البديهي أن يسمع جميعهم ويطيع لما يقطع به الرجوع من جبانة.

هذا من ناحية ومن أخرى دأبت الديانات السامية الإبراهيمية الثلاث على دمغ تبعها ببصمة «أكلشيه» الطاعة ووسمه بِ خاتم السمع ووشمه بِ علامة الانقياد وكيّه «غالباً ما يتم ذلك على جبهته» ب أثر يقطع ب التسليم وليس مصادفة أن وردت «الطاعة» ب تصريفاتها المتنوعة عشرات المرات في القرآن. ومن جانب ثالث إذا رفض النازح «القرشي أو غيره» الانخراط في الغزوات والسرايا سيقال له إذن دبّر حالك وشمّر عن

(٦٧) خصصنا لها كتابنا السابق على هذا وقد ظهر ب عنوان (فترة التكوين في حياة الصادق الأمين) ٢٠٠١م دار ميريت.

ساعديك وقم على أمور معاشك.

ولَ نستأنف سياقة خطوات السرية:

أمره المكتوب أو الصحيفة أن يستدبر البطن «بطن نخلة» ويستقبلها هي «نخلـــة» وفيهـــا فوجئوا بِ عير ل قريش وتشاور المنازيح فيما يفعلون واستقر قرارهم على مهاجمتهم ل يحتـــازوا ما معهم من بضائع ف حلقوا رأس أحدهم ل يطمئن القرشيون أصحاب العير أنهم عُمّار بيـــت الله الحرام ليأمنوا لهم ولِ يصبحوا لقمة سائغة.

وجازت الحيلة على المكاكوة وأمنوا في أنفسهم وأخذوا يصطنعون طعاماً وبداهـــة ألقـــوا أسلحتهم وقيدوا ركابهم وسرحوها...

هنا انتهز أصحاب السرية الفرصة وشدوا عليهم فاستأسر بعضهم وأعجزهم هرباً أحـــدهم وقتل آخر واستاقوا العير ومن بين البضائع خمر من زينب الطائف وشرب الخندريس وقتها حلال زلال.

إلى هنا ومسلك المنازيح لا غبار عليه، حتى حلْق رأس أحدهم ليظن عدوهم أنهم ليســـوا أهل حرب بل هم معتمرون قد يجد تبريره تحت شعار أن الحرب خدعة، بيد أن الذي عقد المسألة أن القتال وقع في آخر يوم من شهر رجب وهو من الأشهر الحرم وهي كما هـــو معلـــوم أربعـــة ثلاثة سرد وواحد فرد وهو رجب ومن ثم يقال له رجب الفرد وهناك عُرف راسخ رسوخ الجبـــال في جزيرة العرب المباركة أن القتال محرم فيها ولهذا العرف وازع اقتصادي، إذ إن هذه الأشـــهر جعلوا منها مواسم بيع وشراء وأسواقاً تجارية وتنتقل فيها القوافل في دروب الصحراء وهي آمنـــة مطمئنة والذي وزّ النَزَحَة على تحطيم هذا العرف المتأصل عند جميع قاطني الجزيرة أنهـــم لـــو تركوا العير لَ دخل الحرم ولَ أفلتت منهم الغنيمة التي يتحلب ريقهم عليها خاصة ـــ وهذا معلـــم شديد الأهمية ـــ أنها أول غنيمة يحتازها تبع «بشري عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم».

ورجع السبعة الكرام بها وب الأسيرين اللذين استسلما إلى أثرب.[٦٨]

* * *

(٦٨) ١ ـــ «كتاب المغازي» ل الواقدي ـــ الأول ـــ ص ١٤ وما بعدها ـــ مصدر سابق.
٢ ـــ «تاريخ الطبري» ل ابن جرير ـــ الثاني ـــ ص ٤١٢ وما بعدها ـــ سابق.
٣ ـــ «سيرة ابن هشام» تحقيق د/ السرجاني ـــ الجزء الثاني ص ١٧٥ ـــ طبعة ١٩٧٨ المكتبة التوفيقية/ مصر.
٤ ـــ «إمتاع الأسماع» ل المقريزي ـــ ٨٤٥ ـــ تحقيق محمد عبد الحميد النميسي ومراجعة د/ محمد جميل غازي ـــ الجزء الأول ـــ ص ٦٩ ـــ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م الناشر: دار الأنصار ب القاهرة.

زلزلت الأرض من جراء هذا الحدث فقد اهتبل السفلة المناوئون ل «أبي القاسم» على تباين توجهاتهم النهزة وطفقوا يوجهون سهام النقد له ول تبعه: «فقال المشركون ل المسلمين: فعلتم كذا وكذا في الشهر الحرام فأتوا النبي ــ ص ــ ف حدثوه الحديث».(٦٩)

إن عرامة الرغبة لدى ابن جحش وعسكره للاستحواذ على الغنيمة وشدة ميلهم ل تملكها وعمق تشوفهم ل وضع يدهم عليها دفعتهم إلى أن يدوسوا بـِ أقدامهم على حرمة شهر رجب الفرد، ولقد وضعت في حجورنا أسفار السيرة المحمدية الباذخة المنيفة، أن أكثر من واحد من أولئك الصحاب في سبيل أن يستولي على السلب وهو أخفض نفاسة من الغنيمة لا يتورع أن يقتل الرجل حتى بعد أن ينطق ب الشهادتين كيما يؤكد له أنه مسلم مثله ولا يحق له قتله، الأمر الذي أحزن «الرحمة المهداة» ف مرة يسأل الصاحب القاتل أو القاتل الصاحب: هل شققت عن قلبه، أي ل تعرف هل نطق ب الشهادتين عن صدق وإخلاص أم خوفا من حرّ السيف وفراراً من القتل، ومرة يجابهه: كيف لك ب «لا إله إلا الله» ويظل يكررها من شدة بثه وعميق حزنه ودفين أساه حتى يعقب التابع الباطش الفاتك: ليته يسكت.

ثم مآبة إلى السياقة:

ذاك الصنيع النزق أصاب «صاحب النسب الموصول» وتبعه بـِ الحرج فقد نبح سائر الكلاب الذين يتربصون بهم ويتمنون أن تدور بهم الدوائر وأن تنصب على رؤوسهم النوازل وأن تصك يوافيخهم المصائب:

قالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال.(٧٠)

وفي رواية ابن جرير الطبري وهو عمدة مؤرخي الإسلام:

ف فخر عليه المشركون وقالوا: محمد يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب.(٧١)

---

(٦٩) «تاريخ الطبري» الثاني ــ ص ٤١٥ سابق.
(٧٠) «السيرة النبوية» ل ابن هشام ــ تحقيق محمد فهمي السرجاني ــ الجزء الثاني ــ ص ١٧٧ ــ مصدر سابق.
(٧١) «تاريخ الطبري» الجزء الثاني ص ٤١٤ سابق.

واضطرب المسلمون الباقون في مكة وهيمن عليهم الربك وأصابتهم الحيرة وشملتهم اللخمة «الارتباك وثقل النفس» ومن غزارة ما اعتراهم لم يثبتوا على قول، ف مرة ادعوا أن الواقعة المشينة ارتكبت في جمادى[٧٢] وكرة أخرى زعموا أنهم «= رجال السرية المغاوير» إنما أصابوه «يعني القتيل» في شهر شعبان.[٧٣]

ومعلوم أن التخطيط دليل على التبلبل وبرهان على ضعف الحجة وشاهد على المرج.

* * *

ليس من المتصور أن يترك أولاد الأفاعي هذه الفرصة دون أن يخبوا فيها ويضعوا «وقالت يهود ــ تفاءل بذلك على رسول الله ــ ص ــ عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو = عمرت الحرب ــ والحضرمي = حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله وقدت الحرب، ف جعل الله ذلك عليهم لا لهم».[٧٤]

إن اليهود لم يكتفوا بِ الأقوال المرسلة بل تراهم يعمدون إلى تحريض قريش على الأخذ بِ ثأر رجلهم المقتول في الشهر الحرام = عمرو بن الحضرمي.

والذي شوّش على صناديد قرية التقديس وهم قوم تجار أنهم ذعروا من الاستهانة بِ الأشهر الحرم من قبل المسلمين لأن دالته المباشرة هي إعلان موت حرمة الأشهر التي تغدو فيها وتروح قوافلهم آمنة مطمئنة بل إنهم «= المسلمين» كفنوها «= الحرمة» وصلوا عليها صلاة الجنازة. ولم يعد لها وجود ومن ثم فإن متاجرهم، وهي عماد حياتهم، أمست في خطر داهم وشر مستطير وتهديد مستمر.

فإذا أضيف تمزيغ كرامتهم في التراب وشرفهم في الوحل ومكانتهم في الطين مع قتل واحد منهم وأسر اثنين أصبح ل تحضيض بني إسرائيل إياهم على شنّ الحرب صدى عميق يلفى منهم آذاناً مصغية ونفوساً مستجيبة.

* * *

---

(٧٢) ذات المصدر والجزء والصفحة.
(٧٣) «السيرة النبوية» ل ابن هشام ــ الثاني ص ١٧٧ ــ سابق.
(٧٤) «السيرة النبوية» ل ابن هشام ــ الجزء الثاني ــ ص ١٧٧ ــ مصدر سابق.

ومن ثم بلغ الضيق ب «المنصور ب الرعب مسيرة شهر» مـداه حتـى إنـه «قـال لِ أصحابه: ما أمرتكم ب قتال في الشهر الحرام».(٧٥)

ولم يكتف بِ هذا التعنيف بل إنه وقف العير وأبى أن يأخذ شيئاً.

وشعر ابن جحش وجنده بِ نكارة فعلتهم وفحاشة صنيعهم وسوء تدبيرهم «ف لمـا قـال ذلك رسول الله ــ ص ــ سقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسـلمين فيما صنعوا».(٧٦)

وتبكيت إخوانهم لهم مرده في تقديرنا ل أمرين:

أولهما: أنهم رأوا في فعلة ابن جحش وزمرته تحطيماً ل معلم هام وعرف مستقر وتقليـد راسخ وهو الكف عن القتال في الأشهر الحرم وعدم رضائهم عنها وعن الباعث اليتيم الذي كمـن خلفها.

آخرهما: ما لمسوه بِ أيديهم وسمعوه ب آذانهم ونظروه ب باصراتهم ما أصـاب سـيدهم وسيد الخلق من غم وما علاه من هم واعتوره من قلق من جراء عدم تملك ابن جحش وعصـبته لزمام أنفسهم وانسياقهم وراء غريزة الجشع والطمع.

* * *

وإذ بلغت الأزمة ذروتها والمعضلة غايتها والمشكلة أقصى مداها ف مـن المسـتحيل أن يذر «الحق/ القرآن» «قطب الأقطاب» في الحالة التي وصفناها، فَ أشرقت آية عظيمـة تتهـادى تلبي نداءه الكريم وتحقق طِلبته العزيزة وتوفر له مُنيته الملحة والتي وإن لم يصرح بها فقد كشفت عنها شواهد الحال.

«فوقف على ذلك النبي ــ ص ــ وقال: لم آمركم ب القتال في الشهر الحرام، ف قالـت قريش: استحل محمد الشهر الحرام فنزلت: «يسألونك عن الشهر الحرام» إلى قوله «والفتنة أكبـر من القتل».(٧٧)

«ف قال المشركون ل المسلمين قتلتم في الشهر الحرام ف أنزل الله تعالى: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه» الآية.(٧٨)

---

(٧٥) «إمتاع الأسماع» ل المقريزي ــ الأول ــ ص ٧٠ ــ سابق.
و«أسباب النزول» ل الواحدي ــ ص ٤٣ ــ سابق.
(٧٦) «السيرة النبوية» ل ابن هشام ــ تحقيق السرجاني ــ الثاني ــ ص ١٧٧ ــ مصدر سابق.
(٧٧) «أسباب النزول» ل الواحدي ــ ص ٤١ مصدر سابق.
(٧٨) (لباب النقول في أسباب النزول) لِ السيوطي ص ٢٩ ــ سابق.

والآية هي السابعة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة ونصها:

«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه ويمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

أي «إن القتال في الأشهر الحرم كبير وعظيم ولكن الأعمال التي ارتكبتموها مع المسلمين ومع النبي ــ ص ــ ولا تزالون ترتكبونها هي أكبر وأفظع وأشد خطراً على الإنسانية من القتال في الأشهر الحرم».[٧٩]

وهنا استراحت نفس «المصطفى» الشريفة وهدأ باله واطمأن خاطره فقبل الغنيمة والأسيرين «ف لما نزل القرآن ب هذا الأمر وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق قبض رسول الله ــ ص ــ العير والأسيرين».[٨٠]

وأخذ «المدثر» خمس الغنيمة وهو أول خمس من أول غنيمة وفادى الأسيرين ب أربعين أوقية لكل منهما وهذا أول فداء ل أول أسير في الإسلام.[٨١]

وهكذا أثبت الذكر الحكيم أنه يدور مع القائد المظفر حيثما دار ويحاثيه أينما ذهب ويواكبه أنى تحرك وما إن يتعرض ل ضائقة أو يوقعه تبعه في ورطة أو تتآمر عليه نساؤه تشرق إحدى شموسه النيّرة «نعني آياته» ف تجلو عنه الظلمة وتبدد من حوله العتمة وتعيد إلى أساريره الطاهرة: البسمة.

[١٠]

رداً على رسالة «أجود الناس» أرسل المقوقس هدية إليه فيها فتاتان إحداهما مارية القبطية «شابة مصرية حلوة جعدة الشعر جذابة الملامح جاءت من أرض النيل.. تحمل في كيانها سحر مصر وفي أعطافها أريج

---

(٧٩) «سيرة المصطفى ــ نظرة جديدة» تأليف هاشم معروف الحسني ــ ص ٣١٩ ــ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م ــ دار التعارف ل المطبوعات ــ بيروت.

(٨٠) «السيرة النبوية» ل ابن هشام ــ تحقيق السرجاني ــ الثاني ص ١٧٨ سابق.

(٨١) (إمتاع الأسماع) ل المقريزي ــ الأول ــ ص ٧٠.

الوادي العطر..[٨٢]

وعنها قالت التيمية بنت ابن أبي قحافة «ما غرت على امرأة ما غرت على مارية وذلك أنها جميلة من النساء دعجة فأعجب بها رسول الله ــ ص ــ وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت الحارثة بن النعمان وكانت جارتنا وكان رسول الله ــ ص ــ عامة النهار والليل عندها حتى فرغنا لها فجزعت فحولها إلى العالية وكانت يختلف إليها هناك وكان ذلك أشد علينا ثم رزقه الله منها الولد وحرمناه.[٨٣]

وذكر المحققان أن المؤلف إمام عالم بلغ منزلة رفيعة فريدة في العلم وشهد له بها شيوخه وأساتذته وله عشرة مؤلفات في شتى فروع العلوم الإسلامية خلا «السمط» مما يضفي على كتاباته سمة الصحة والصدق.

وتضيف الدكتورة عائشة عبد الرحمن أنه في ذياك الوقت شارف الستين وتزوج بعد السيدة خديجة عشر زوجات منهن الشابة الفتية والمرأة الناضجة.[٨٤]

* * *

عن عائشة قالت:.. فلما كان يوم حفصة، استأذنته أن تأتي أباها فأذن لها فذهبت فأرسل إلى جاريته مارية فأدخلها بيت حفصة قالت حفصة: فرجعت فوجدت الباب مغلقاً، فخرج ووجهه يقطر وحفصة تبكي فعاتبته فقال أشهدك أنها عليّ حرام انظري ولا تخبري بهذا امرأة وهي عندك أمانة».[٨٥]

أما الواحدي في يطلعنا على الحوار الذي دار بين «متمم مكارم الأخلاق» وبين زوجته العدوية حفصة بنت عمر الذي مسّ مارية في حجرتها وعلى فراشها «دخل رسول الله ــ ص ــ بِ أم ولده مارية في بيت حفصة فوجدته حفصة معها فقالت: لِم تدخلها بيتي ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلاّ من هواني عليك، فقال لها لا تذكري هذا لعائشة هي عليّ حرام إن قربتها، قالت حفصة، وكيف تحرم عليك وهي جاريتك فَ

---

(٨٢) (نساء النبي) لـ د/ بنت الشاطئ ص ١٩٠ وما بعدها ــ مرجع سابق.
(٨٣) (السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين) تأليف الإمام محب الدين الطبري ــ المتوفى بسنة ٦٩٤هـ ــ تحقيق أ.د/ حمزة النشرتي والشيخ عبد الحفيظ قرغلى ص ص ٢٤٦/ ٢٤٧ ــ الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ/ ١٩٩٦م ــ الناشر هو المحقق الأول.
(٨٤) (نساء النبي) ــ ص ١٩٢ ــ سابق.
(٨٥) (المقبول من أسباب النزول) د/ أبو عمر الأزهري ــ ص ٦٨٣ مرجع سابق.

حلف لها ألاّ يقربها قال لها لا تذكريه لأحد».[86]

وفي «المختصر»: «قيل أصاب رسول الله مملوكته مارية القبطية في بيت زوجه حفصة بنت عمر وفي يومها فوجدته حفصة في ذلك فغارت فقال: ألا ترين بأن أحرّمها فلا أقربها قالت: بلى فحرّمها على نفسه وقال لا تذكري ذلك لأحد».[87]

حفصة من بين فريق الزوجات غير الجميلات نكحها «المعصوم من الناس» إرضاءً ل العدوي ابن الخطاب الذي يعتبر بـِ مثابة وزيره الثاني وقد عرضها قبله على كل من التيميّ أبي بكر والأمويّ عثمان فـَ رفضاها رغم شبابها الغض إذ لم تصل إلى العشرين وكثيراً ما ردد أبوها على مسامعها أن «سيد الناس» لا يحبها ولولا هو لـَ طلقها ومع عدم اتسامها بـِ القسامة ورثت عن بني عديّ حدة المزاج ويبدو أنه لم يطق عشرتها وقد جمعت بين الأمرين فـَ طلقها لكنه سرعان ما راجعها لأنه أدرك أن طلاقها سوف يغيّر قلب العدويّ وهو من ركائز مجلس شوراه وله مناقبه.

وهي أيضاً من اللائي استبقاهن على ذمته لِ أسباب أخرى بخلاف الرغبة فيهن كزوجات وتنضم إليها سودة بنت زمعة وأم حبيبة بنت أبي سفيان بعكس اللاتي استبقاهن لِ ذواتهن بغض النظر عن أي اعتبار آخر وهنّ: عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش اللاتي تمتعن بـِ حسن فائق ووضاءة بالغة وجمال فاتن وحلاوة آسرة وقسامة أخاذة.

وهذا يفسر قول العدوية: ما صنعت لي هذا من بين نسائك إلاّ لِ هوانى عليك. ومن المفسرين المحدثين اخترنا عبد الحميد كشك:

روى النسائي بسنده عن أنس أن رسول الله كانت له أمة يطؤها فـَ لم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها فأنزل الله عزّ وجل «يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك إلى آخر الآية».[88]

---

(٨٦) (أسباب النزول) لِ الواحد ــ ص ٢٩١ ــ مصدر سابق.

(٨٧) «المختصر في تفسير القرآن» مختصر من تفسير الإمام الطبري ل ابن صمادج التجيبي وأمهات كتب التفسير ــ تنقيح وتحقيق د/ عدنان زرزور ــ في تفسير سورة التحريم ص ٤٤٧ ــ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت.

(٨٨) (في رحاب التفسير) للشيخ عبد الحميد كشك ــ الجزء الثامن والعشرون ــ ٦ تفسير سورة التحريم ــ ص ٧٢٦٧ ــ د. ت. ن المكتب المصري الحديث ــ القاهرة.

ولعل القارئ لاحظ أن هذا المفسر الحديث اختصر الواقعة اختصاراً مخلاً بيد أنه لم يستطع أن يشكك فيها وأورد سندها.

والمؤلفون المحدثون على بكرة أبيهم في ضروب الإسلاميات ينهجون ذات النهج متوهمين أنهم على حق وأن سلفهم الصالح قد ذكروا الوقائع كما هي على ضلال وبداهة وهو منهاج فسيد فَ علاوة على مجافاته لِ الموضوعية والأمانة العلمية فَ هم ليسوا بأكثر تقوى ولا أشد ورعاً ولا أعمق إيماناً من السلف.

* * *

بعد أن حلف «ذروة بني هاشم» لِ العدوية ألاّ يقرب أم ولده مارية القبطية وهي بِ الوصف الذي جاء على لسان التيمية عائشة وهو في ذات الوقت شديد الإعجاب بها وعامة النهار والليل عندها وهي في نفس الحين أمته وسريته وملك يمينه ومن حقه أن يأتيها ــ أي يمسها ــ متى شاء فَ هذا حقه وحق أي مسلم. تسببت العدوية حفصة إذن بِ غيرتها الملتهبة ومزاجها الحاد في أزمة لِ «سيد الأولين والآخرين» فَ إما ألا يأتي ناحية مارية وهي من هي وإما أن يحنث بِ حلفه وحاشاه أن يفعل وهو إمام المتقين وصاحب الخلق العظيم والشمائل الكاملة والمناقب الشريفة مما لا يتصور معه أن يفعل.

ولِ الإبانة عن وقع الضيق على نفس «الفدغم»[٨٩] نذكر أنه لم يحب من الدنيا سوى الطيب والنسوان «عن الزهري عن النبي ــ ص ــ قال: رأيت كأني أتُيت بقدر فَ أكلت منها حتى تضلعت فما أريد أن آتي النساء أي ساعة إلاّ فعلت منذ أكلتها».

وعن مجاهد قال «أعطى رسول الله ــ ص ــ قوة بضع وأربعين رجلاً كل رجل من أهل الجنة» أي في الجماع.[٩٠]

بيد أن القرآن المجيد لا يفاصله طرفة عين يعاضده في كل موقف ويقف بِ جانبه في كل حين فتنظهر الآيتان الأولى والثانية من سورة

---

(٨٩) الحسن الجميل والعظيم الجليل «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» لِ الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي المتوفى سنة ٩٤٢هـ وهو المعروف بـ «السيرة الشامية» الجزء الأول ــ ص ٦١٢ تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ــ الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢ ــ لجنة إحياء التراث الإسلامي ــ المجلس الأعلى لِ الشئون الإسلامية بـ مصر.

(٩٠) «الخصائص الكبرى» لِ السيوطي ــ الأول ــ ص ١٦٨.
ومعلوم أن أهل الجنة لا يعيهم نصب ولا لغوب بـ «أي تعب أو إرهاق» أ.هـ.

التحريم «يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم».

إذن فَ ما عليه إلا أن يكفر عن يمينه التي حلفها «قد فرض الله لكم تحلــة أيمــانكم» أي أوجب لكم الكفارة».[٩١]

ويذكر الشيخ عبد الحميد كشك عند تفسيره ل سورة التحريم ما يلي: رضى ــ كان يقــول في الحرام يمين تكفرها ــ وقال ابن عباس «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حســنة» يعنــي أن رسول الله ــ ص ــ حرم جاريته فقال الله تعالى: «يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لــك» إلــى قوله: «قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم» فكفر يمينه فصيّر الحرام يمينــاً ورواه البخــاري ومســلم والدار قطني.[٩٢]

وبِ هذا بلغ هذا الحديث قمة التوثيق وذروة التوكيد وقمة الصحة.

* * *

ومرة أخرى، وليست أخيرة يهدي الذكر الحكيم آيتين كريمتين إلى خيرة خلقِ الله تفرجــان عنه الضائقة وتنتزعانه من الحرج وتنفخانه الحل السعيد فَ يعود إلى مملوكته المحبوبة المُعجبــة مارية القبطية بعد أن كفّر يمينه بل إنه يغدو حكماً لكل مسلم بعده يحلف على امرأته أنهــا حــرام عليه.

* * *

نهى «أول من تنشق عنه الأرض» العدوية بنت ابن الخطاب نهياً قاطعاً أن تخبر أحداً بِ ما حدث وخاصة زوجاته وبِ الأخص عائشة التيمية وهذا حديث صحيح أورده الحافظ «= ابــن حجر العسقلاني» في الفتح

---

(٩١) (تفسير غريب القرآن) ل أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ــ تحقيق السيد أحمد صــقر ــ ص ٤٧٢ ــ الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ــ دار الكتب العلمية/ بيروت/ لبنان.
ــ (أحكام القرآن) ل الإمام الفقيه عماد الدين محمد الطبري المعروف ب الكيا الهراسى ــ المجلد الثاني ــ الجزء الرابع ــ ص ٤٢٥ ــ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣ ــ وفي الهامش «انظر محاسن التأويــل ــ ح/ ١٦ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت. ويؤكد الكيا الهراسى أنه «لا إيمان في مجرد التحريم».
(٩٢) (في رحاب التفسير) لِ عبد الحميد كشك ــ الجزء الثامن والعشرون ــ ٦ ــ ص ٧٢٦٧ ــ مرجع سابق.

والطبراني في تفسيره وابن جرير «الطبري» في التفسير والضياء المقدسي في المختار وابن كثير في تفسيره والهيثم بن كليب في مسنده والسيوطي في أسباب النـزول والحـاكم فـي المسـتدرك وصححه الذهبي.(٩٣)

وطاعة «أحمد» فرض واجب على كل مسلم ومسلمة بنص القرآن المجيد، بـل إن هنـاك آيات تقرن طاعته بِ طاعة الله جل جلاله وهو شرف لم ينله من قبله أحد مـن الـذين سـبقوه، وحفصة تعلمه حق العلم وتعيه جيداً فضلاً عن أنها زوجته ومن المنظور الإسلامي طاعة الزوجة لزوجها أمر مفروغ منه، ويوجد حديث محمدي شريف يخبرنا أنه لو الأمر بيده لأمر الزوجـة أن تسجد لِ زوجها.

إذن ما الذي وزّ العدوية على مخالفة ذياك النهى الصارم؟ فَ ما إن غادرها حتى أرقـت إلى ابنة عتيق: عائشة تخبرها بِ الواقعة «فَ لما خرج نزعت الجدار الذي بينها وبين عائشـة فَ قالت: ألا أخبرك؟ إن رسول الله ــ ص ــ قد حرّم أمته» أي أنها لم تنتظر حتى تدخل على بنـت التيميّ من الباب بل نزعت الجدار الفاصل بينهما. هناك أكثر من سبب ودافع لِ هذا السلوك مـن قبل ابنة عمر:

يأتي في مقدمها حدة أخلاقها وهذه تمنع صاحبها أو صاحبتها من السـيطرة علـى نفسـه ويندفع فيما يندّ عنه من أقوال أو أفعال ــ هذا من ناحية ومن رجا آخر فإنهـا اعتبـرت غشـيان «سيد ولد إسماعيل» لِ أمته على فرشها وفي حجرتها صدعاً لِ كرامتها وما درت أنه زوج غيـر عادي وأن هذا يعتبر من خصوصياته التي انفرد بها عن سائر المسـلمين مثـل اسـتبقائه تسـع زوجات على ذمته في حين أن سائر تبعه لا يحق لهم أكثر من أربع بل لقد دخل الديانة التي بشّـر بها نفر من العُربان لكل واحد منهم أكثر من أربع «بعضهم له عشـر» فاضـطر إلـى مفاصـلة الزوائد واقتصر على الأربع، ثم نؤوب إلى السياق.

أرادت العدوية من إخبار التيمية بالحادثة تحقيق غرضين:

أولهما: أن تتحبب إليها فهي تعرف منزلتها لدى «المزمّل» فتحمل إليهـا بشـرى تحـريم مارية عليه هذه التي ذكرت ابنة أبي بكر أنها ما غارت من واحدة من نسونه مثلما غـارت مـن القبطية الحسينة.

---

(٩٣) (المقبول في أسباب النزول) لِ الأزهري ــ ص ٦٧٨ وما بعدها.

آخرهما: أن التيمية بـِ ما لها من مقام محمود لديه تساعدها على رأب الشرخ الذي أصاب كرامتها، إذ ليس لِ العدوية «حفصة» في نفسه من الحظوة ما يمكنها من ذلك، بل لو أن لها أقل نصيب منها لما حدثت الواقعة من الأساس.

* * *

هنا دخل (قطب الأقطاب) في أزمة جديدة أعقبت الأولى وجاءت مُصلّية لها، فقد تحالفت التيمية مع العدوية إذ تخبرنا كتب السيرة المعطار والأحاديث المحمدية الشريفة أنه «كانت عائشة ابنة أبي بكر وحفصة تتظاهران على سائر نسونه» وترسّخت الأزمة على ركيزتيْن:

أ ــ أنهما ابنتا وزيريه ومستشاريه والمساس بهما كـَ طلاق أو ظهار.. الخ لن يمر بـِ سهولة بل سوف يخلّف وراءه ندوباً بل جروحاً غوائر في شتى المناحى = السياسية والأمنية والعصبية خاصة أنه يمر بـِ مرحلة دقيقة وسبق أن ذكرنا أن العدويّ أفلتت من فيه عبارة من جراء حِدة مزاجه وشت بـِ حقيقة مكانتها وهي قوله لها ــ لولاي لـَ طلقك.

ب ــ أن عائشة أحب زوجاته إليه وأصغرهن سناً وهي في حدود الخامسة عشرة إبّان ذاك ومن أجملهن وكيف لا تغدو كذلك فـَ أبوها أبو بكر له لقب يشي بالوسامة والقسامة وهو «عتيق» وقد درجت سيدة نسون قريش خديجة رضى الله عنها في حياتها على منادته به كما أن والدة عائشة (أم رومان) امتازت بـ عينين حوراوين بل بالغتي الحَوَر «= شدة بياض العين مع شدة سوادهما والعرب تفضله في المَرة»، وهناك أثر يقول: من سره أن ينظر إلى حوار عيني حور الجنة فـَ لـْ ينظر إلى عينيّ أم رومان.

إذن مفارقة هذه الزوجة الجارية الصبية ذات الوضاءة البالغة أمر فيه عَنَت لأي زوج فـَ ما بالكم بـِ «الأمين» الذي كثيراً ما ردد أنه ما حبب إليه من دنيا الناس إلا الطيب والنساء و«أنه كان النبي «ــ ص ــ» يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة قلت لِ أنس «وهو راوي الحديث» أوَكان يطيقه؟

قال: كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين».[٩٤]

---

(٩٤) أخرجه البخاري عن طريق أنس ــ وهو خادم «خير البرية» وأعرف الصحاب بـِ أحواله.

كما أخرج ابن سعد، عن عبيد الله بن موسى عن أسامة بن زيد عن صفوان بن سليم: قال رسول الله ــ ص ــ: أتاني جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلاً في الجماع.

كذلك أخرجه ابن سعد عن مجاهد وطاوس واقتصر على عُجز الحديث «أعطى رسول الله قوة أربعين رجلاً في الجِماع».(٩٥)

وهكذا تتوالى الأزمات وتظل تزحف حتى تصل إلى عقر داره كأنما لا يكفيه الأعباء الثقال التي يحملها وهو يبشر بِ ديانة جديدة ويؤسس ويعلي بنيان دولة أجداده وكل واحدة منهما تنوء بها كواهل العصبة من الرجال الأقوياء الأشداء.

* * *

ويتشوف «خليفة الله» إلى ما يفك هذه العقدة وإلى نهاية سعيدة تحفظ عليه سلام بيته ولا تبعد زوجته الحدثة الحبيبة «= التيمية» عنه ويظل وزيراه المخلصان على سابق العهد بهما.

ولا يبطئ الهدى المجيد كما عوده وكَ البدر في منتصف الشهر تظهر الآيات الكريمات «وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير، إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير».(٩٦)

وقبل أن نمضي في التحليل الموضوعي أو التنقير والتنقيب نضع في بؤبؤ عين القارئ أن النص الحكيم خاطب اثنتيْن «جاء بِ المثنى».. تتوبا.. قلوبكما وتظاهرا. حقيقة أن كلمة قلوب جاءت بِ الجمع إنما ضمير الخطاب أو المخاطب ورد بِ التثنية.

وهما حصراً وتحديداً التيمية والعدوية «أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: قلت لِ عمر بن الخطاب: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال: عائشة وحفصة».(٩٧)

---

(٩٥) هذه الأحاديث أوردها في «الخصائص الكبرى» السيوطي ــ في المجلد الأول ــ في «باب الآية في جماعه» ص ١٦٧ ــ مصدر سابق لنا ذكره.

(٩٦) سورة التحريم ــ الآيتان الثالثة والرابعة.

(٩٧) (المقبول) لِ الأزهري ص ٦٨٤ ــ سابق.

وهكذا قطعت جهيزة قول كل خطيب أي لم تعد هناك ذرة من ريب أن المتظاهرتين هما ابنة عتيق وبنت ابن الخطاب الذي نقل عنه حبر الأمة ابن عباس الخبر.

* * *

الآيتان السابقتان طلبتا منهما الكف عن التظاهر ضد «الخاتم» بفتح التاء وكسرها سيان[٩٨]. بأن خيرتهما بين أمرين:

الأول: التوبة عنها «= التظاهرة» مما يمنح دلالة أنها خطأ أو غلطة لا يجوز الإقدام عليها وحتى الاقتراب منها بل مجرد الهَمّ بها، ولقد فسّر الشيخ محمد سيد طنطاوي رأس مؤسسة التقديس بمصر «صغت قلوبكما» أنها مالت عن الحق.[٩٩] وهو تعبير أوعر من الخطأ.

أما ابن صمادح التجيبي في «المختصر» ف يدرج هذه العَمْلة تحت بند البَغيّ بِ السوء لِ «سابق العرب» إذ نص على ما يأتي:

وليه وناصره عليهما وعلى كل من بغاه بِ سوء.[١٠٠]

الآخر: في حالة الإصرار على التظاهر ضده فَ إنّ ربه ناصره ومؤيده وجبريل والملائكة وكل مؤمن صالح.

وهو جمع كريم وفي ذات الوقت قوي مكين لا طاقة لبشر مهما بلغ به الجبروت ووصل به العتوّ وأعماه الطغيان أن يتحداه ويواجهه فَ ما بالك بِ امرأتين أولاهما لم تجاوز الرابعة عشرة إلاّ بِ قليل والأخرى ناهزت العشرين، وحققت الآيتان مراد «المتوكل» وكفّت الزوجتان عن التظاهر بل لم تفكرا في العودة إليه أبداً.

(«إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما» هذا خطاب لعائشة وحفصة وتوبتهما مما جرى منهما.. ومعنى صغت أي مالت عن الصواب وقرأ ابن مسعود: زاغت. والمعنى إن تتوبا إلى الله فقد صدر منكما ما يوجب التوبة.. «وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه» والمعنى إن تعاونتما عليه ــ ص ــ بما يسؤوه من إفراط الغيرة وإفشاء سره ونحو ذلك فإن له من

---

(٩٨) معاجم اللغة تخبرنا عن معنى تظاهروا أي اجتمعوا معاً لإعلان الرضا أو السخط عن أمر يهمهم.
(٩٩) (مصحف الأزهر وبِ هامشه التفسير الميسر) عند تفسير لِ سورة التحريم.
(١٠٠) (المختصر في تفسير القرآن) لِ بن صمادح التجيبي ــ في تفسير سورة التحريم ــ مصدر سابق.

ينصره ومولاه...»).[١٠١]

وأورد الزمخشري الخبر الذي مفاده أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب: من هما؟ فقال: عجباً يا ابن عباس، كأنه كره ما سأله عنه ثم قال: هما حفصة وعائشة، ونضيف أنه هنا قدّم حفصة على عائشة.

ثم استطرد الزمخشري مفسراً: «فقد صغت قلوبكم» فقد وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول الله ــ ص ــ من حب ما يحبه وكراهة ما يكره، وقرأ ابن مسعود: فقد زاغت و«إن تظاهرا» وإن تعاونا «عليه» بِ ما يسؤوه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره فَ لن يعدم هو من يظاهره وكيف يعدم المظاهر من الله مولاه: أيْ وليه وناصره.. فَ ما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه.[١٠٢]

* * *

ومن المتيقن أنه بعد أن تابت التيميّة والعدويّة وكفتا عن التظاهر ضده ثاب إليه هدؤوه وراحته النفسية. وأثبت القرآن المجيد أنه يكلؤه بِ عنايته ويحوطه بِ رعايته ويشمله بِ اهتمامه ويتولى تفريج ما يعرض له من هموم وما ينتابه من غموم وما يمسّه من كروب على كافة المستويات، هذا من رجا ومن آخر تتبدى حكمة نزوله منجماً أيْ مفرقاً بِ دخوله في علاقة جدلية مع الواقع المعاش إنْ من جهته أو من ناحية تبعه أو من جانب الأشخاص الفاعلين في المجتمع كما سوف نرى ونحن نتابع مسيرته المدهشة المُعجبة.

* * *

[١٢]

رقمنا فيما سبق مناوأة بني إسرائيل ل «الزاهد» منذ اللحظة الأولى التي وطئت قدماه الشريفتان قرية الأثاربة ذات الحرتين وما انفكت سوءاتهم الفعلية وبذاءاتهم الكلامية وسفالاتهم اللسانية تترى في الخفاء

---

(١٠١) (كتاب التسهيل لِ علوم التنزيل) ــ لِ الإمام العلامة محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ــ الجزء الرابع ــ ص ١٣١ عند تفسير سورة التحريم ــ الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ لبنان.

(١٠٢) «الكشاف» لِ الزمخشري ــ المجلد الرابع ــ ص ١٣١ عن تفسيره ل سورة التحريم ــ مصدر سابق ذكره.

والظهور وفي السر والعلن وفي النور والظلماء ـ رغم محاولاته العديدة التي قدمها في سبيل الموادة أو حتى الحياد الإيجابي حتى انتهى به الأمر إلى إجلاء بعضهم وقتل البعض الآخر، ويقدر بعض الإخباريين أن عدد من تمت تصفيتهم جسدياً من بني قريظة ما بين الستمائة والتسعمائة من الرجال والصبيان الذين نبت شعر عانتهم.

والجالية اليهودية في أثرب في ذياك العهد قدرها أحد الباحثين بِ أكثر من أربعين ألف نسمة «.. ولذلك فإن اليهود بأسرهم المبنية على زواج الأقارب التي تتكون كل منها من ستة إلى سبعة أعضاء ملاعين كانوا يشكلون عدداً من السكان يتراوح بين ٣٦٠٠٠ و٤٢٠٠٠ نسمة».[١٠٣]

وهو عدد ليس مهزولاً بِ الإضافة إلى أن ذراعهم الاقتصادية بلغت منتهى المُكنة، وينبئنا الإخباريون أنهم تملكوا وقت ذاك أربعمائة دكان صياغة «ذهب وفضة» وهيمنوا على أسواق بِ أكملها وبعضها حمل أساميهم مثل «سوق بني قينقاع».

وكذا لهم باع طويل في تجارة السلاح، ولا يفهم منه أنهم ألافه أو ممتشقوه، فقد أثبتت السيرة المحمدية الطيبة أنهم جبناء رعاديد خلا الشجاعة الخطابية والجرأة القولية والإقدام الشفاهي، أما عند اللقاء فهم أشد اضطراباً وأبلغ ارتعاشاً وأفحش ارتعاداً من النعام.

يقول الباحث د. بركات أحمد «إن من الغريب أن اليهود يظهرون في سيرة الرسول كَ تجار للسلاح والدروع بِ نفس الصور التي كانوا يظهرون بها في إنجلترا في العصور الوسطى التي يصورها الروائي الاسكتلندى والتر سكوت والظاهر أنهم لم يكونوا يستعملون هذا السلاح بِ صفة فعلية.[١٠٤]

* * *

القبائل اليهودية الثلاث: قريظة والنضير وقينقاع ربطتهم وشائج متينة بعدد من بطون وأفخاذ بني قَيْلة، منها ما هو عقد أو حلف أو ولاء بل

---

(١٠٣) (محمد واليهود ـ نظرة جديدة) تأليف د. بركات أحمد ـ ترجمة: محمود علي مراد ـ ص ٨٨ الطبعة الأولى ١٩٩٨ ـ «الأعمال الدينية» مكتبة الأسرة ـ مهرجان القراءة ل الجميع ـ الهيئة المصرية العامة ل الكتاب.

(١٠٤) (محمد واليهود) ص ١١٠ ـ مرجع سابق.

وأنساب وقرابة، وللأسف فإن كتاب السيرة المحمدية المجيدة يعتمون على هذا الرجا ولا يذكرونه، إذ في نظرهم يشين الأنصار وهذا وهم، ذلك أن الأوضاع بِ مختلف أضلاعها هي التي حتّمت انتصاب تلك العلائق ولم يخترها اليثاربة العَرَبَة بمحض إرادتهم.

المهم أن تلك الروابط وردت آيات من البيان المحكم إما بِ مناسباتها وإما تعليقاً عليها:

(أخرج بن جرير من طريق سفيان الثوري عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال:

كان أناس من الأنصار لهم أنساب وقرابة من قريظة والنضير. وكانوا يتّقون أن يتصدقوا عليهم ويريدونهم أن يسلموا فنزلت:

«ليس عليك هداهم».(١٠٥)

ولعل هذا الخبر يشكل محطة عبور من الشك إلى اليقين وجسر انتقال من الريب إلى التحقق وقناة توصيل من التردد إلى الثبات بِ صدد الواقعة التاريخية وهي لبْك بني قيلة بِ أولاد الأفاعي.

(أخرج الواحدي عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال:

نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري، وكان بدرياً نقيباً، وكان له حلفاء من اليهود، فلما خرج النبي ــ ص ــ يوم الأحزاب، قال عبادة: يا نبي الله، إن معي خمسمائة رجل من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو. فأنزل الله تعالى:

«لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء».(١٠٦)

فَ هذا العُبادة الذي يحلّى صدره لقبان منيفان، نقيب «ممن حضر أو شهد العقبة»، وبدري «أي قاتل في غزوة بدر الكبرى» لا يتحرج من إخطار «الناطق بالحق» ب قيام حلف بينه وبين أولاد يعقوب بل وإنه على استعداد أن يجيّش منهم خمسمائة يقاتلون تحت لوائه ــ في حين نرى الكتبة المحدثين يغمضون أعنيهم ويولون ظهورهم وينأون بِ جوانبهم عن هذه الحقيقة التاريخية الموثقة التي تمتلئ بها دواوين السيرة الطيبة ومؤلفات التاريخ وكتب علوم القرآن بِ شتى ضروبها.

---

(١٠٥) (المقبول) لِ الأزهري ــ ص ١٤٨ ــ مرجع سابق لنا ذكره.
(١٠٦) (الدخيل) لِ الأزهري ــ ص ٦٧ ــ سابق.

لقد ارتفعت الوشيجة المتينة بين الطرفين إلى قُلّة قامتها:

أخرج أبو داود وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما قال:

(كانت المرأة تكون مِقْلاتاً ــ أي لا يعيش لها ولد ــ فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل:

لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى».(١٠٧)

إن أبجديات سنن الاجتماع البشري تبصّرنا أن فصم حبال التواصل بين الأثاربة الإسرائيليين واليثاربة الأعاريب من المستحيل أن يقع فجأة ومن المتعذر أن يتم فوراً ومن الصعب أن يحدث بغتة، وهي ظاهرة خطيرة من الحتم اللازم أن تقلق «المُلبّى» وتثير في نفسه نوازع الاضطراب وفي وجدانه بواعث التململ، لأن استمرار هذه العلاقات الحميمة والروابط العميقة والصلات المتينة يرسّخ خطراً داهماً على المنازيح، باعتبار أن اليهود وبني قيلة من أقرب الاحتمالات يشيآن على أرض الواقع قطّبي الرحا التي هي في أي وقت على استعداد لِ طحنهم.. هذا من شق ومن آخر لعله مترتب عليه أو مرتبط به ارتباط النتيجة بِ السبب ــ يقف حجرة عثرة أو عقبة كأداء أو حاجزاً عضالاً أو شوكة صلبة حادة في حلق الدولة القرشية التي عقد «البدر البديع» عزمه على تأسيسها في قرية الحرتين ليثبت لِ القاصي والداني أنه «ابن عبد المطلب» ونذكّر القارئ بِ العرض الساذج الذي قدمه عبادة بن الصامت له، بأن في مقدوره تجنيد خمسمائة يهودي للقتال معه وبقدر ما أثبت هذا اليثربي طيبة قلبه شأن بني قيلة على بكرة أبيهم أو أمهم وهذا هو السر في أن بني سخينة «قريش» في سقيفة بني ساعدة التهموا الكعكة وحدهم ولم يتركوا لهم فتاتة.(١٠٨) مع أن البلد بلدهم والديار ديارهم ولا تعليل لِ هذا اللغز التاريخي إلا بِ العبط وخُموم القلب لديهم، ثم نعود فَ نرقم أنه بقدر ما أثبت ذلك ابن الصامت سلامة الطوية بقدر ما أثبت «المدثر» بعد نظر وحنكة وحصافة لا نديد لها في رفضه لِ العرض، لأنه من المؤكد ــ لا من

---

(١٠٧) (المقبول) ل الأزهري ــ ص ١٤٠ مرجع سابق.

(١٠٨) العامة في مصر المحروسة تقول «فتفوتة» وهي صيغة مبالغة ا.ه.

المحتمل فـَ حسب أن يغدو الخمسمائة يهودي وحلفاؤهم من رهط ذلــك العبــادة نــواة لِ فيْلــق معارضة مسلحة وهذه داهية دهياء وباقعة صماء وفاقرة قاصمة للظهر لا يعلم إلا الله تعالى وحده مدى خطورتها على المنازيح ودولتهم الوليد.

* * *

وكما تعودنا أنه في اللحظات الحرجة والأوقات العسرة والأزمــان العصــيبة وســاعات المزنق لا يتخلى عنه الذكر الحكيم بل يظاهره بقوة ويناصــره بـِ إحكــام ويعاضــده بـِ أزر فـَ سرعان ما تسطع كالنجم في كبد السماء في الليل البالغ الحُلكة آيات كريمات منه تتوعد بنى قيلــة بالجزاء الرادع إذا استمروا في ولاء بني يعقوب وجعلته نقيضاً للإيمان ومبايناً للإســلام ومفارقــاً للانقياد ومضاداً للإذعان ومخالفاً لليقين.

(أخرج ابن جرير من طريق ابن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمه عن ابن عباس قال:

كان الحجاج بن عمرو حبيب كعب بن الأشرف، وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم. فقال رفاعة بن أبي عمر وعبد الله بن جبيــر، وســعد بــن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء النفر من اليهود واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم، فأبوا، فأنزل الله فيهم:

«لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء» إلى قوله: «والله على كل شيء قدير».[١٠٩]

ونسب د. عبد الله شحاته الحديث إلى ابن عباس وذهب إلى (أن الموالاة تطلق لغة علــى الحب والصداقة والمباطنة بـِ الأسرار وتطلق على النصرة وكلا المعنيين تصح إرادته ولِ هذا لا يحِلّ لِ المؤمنين أن يوالوا الكافرين بأي معنى من معاني الموالاة ومن يفعل ذلك فـَ ليس من دين الله

---

(١٠٩) (المقبول) لِ الأزهري ص ١٥٣ وص ١٥٤ ـــ سابق ووصفه المصنف بـِ أنه حديث حسن وأضــاف أن الطبري أخرجه في تفسيره وابن حاتم في تفسيره ونعته محقق هذا التفسير ب الحسن وأورده السيوطي فــي الــدر المنثور وهكذا غدا عريّاً عن المطاعن، بعيداً عن المعاريب نائياً عن القوادح ا.هـ.
و(لباب النقول في أسباب النزول) لِ السيوطي ص ٣٧ و٣٨ ـــ مصدر سابق.
و(أسباب النزول) ل الواحدي ص ٦٥ ـــ سابق.

في شيء وقد ذكر ذلك صريحاً في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهــود والنصــارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم) المائدة: ٥١[١١٠] والذي لا مشاحة فيــه أن اليثاربة العرب بعد أن تلا عليهم «السابق بـِ الخيرات» هذه الآيات الحاسمة التي قرعت أسماعهم وصكت آذانهم وجاءت بعقاب أليم وهو التسوية بين اليثربي العربي واليثربي اليهودي إذا ما والاه وناصره وظاهره... نقول إن بني قيلة قد انزجروا وكفوا عن ذلك كله، ولا أدل عليه من أن أولاد الأفاعي عندما اصطدموا بـِ «صاحب البيان» وبلغت المواجهة ذروتها وحكم علــى بعضــهم بـِ التغريب وعلى الآخر بقطع الرقاب لم يجرؤ واحد من العرب الآثربيين أن يؤيدهم أو يقــف فــي صفهم، حقيقة أن نفراً منهم تشفّع لهم عنده إنما مناصرة أو معاضدة فـ لا.

وبذلك أثمرت الآيات التي حملها القرآن العظيم مفعولها الوثيق وأثبت أنه دائما مع «الأعز الأعظم» لا يغيب عنه طرفة عين ومن ثم انفرجت عن نفسه الأبية كربة عظيمــة وانــزاح عــن صدره الشريف هم رَجَاح وغادر قلبه الكريم غم ثقيل من الجائز أن يعيق المسيرة ويخربق الخطة ويفسد الرسم الذي ما انفك يُحكم تصويره لـِ تنهض الدولة القرشية وتقف على قدميها.

* * *

[١٣]

قبيلة بني النضير إحدى القبائل اليهودية الثلاث في أثرب وهي تسامى بنــي قريظــة فــي القوة والمنعة ولم تتوقف عن مناوأة «صاحب التاج» والكيد له بـِ سائر أنواع الكيد. منهم كعب بن الأشرف أبوه من طيىء ثم أحد بنى النبهان وأمه منهم.. وطِبقاً للشريعة الموسوية فـ هــو يعتبــر يهودياً و«انتخب كبيراً لليهود بدلاً من مالك بن الصيف».[١١١]

وهزم صناديد بكة في غزاة بدر الكبرى (فـ لما تيقن عدو الله الخبر، خرج حتى قدم مكة فـَ نزل على عبد المطلب أبي وداعة ضبيرة السهمى وعنده عاتكة بنت بن أبي العيص بن أميــة بن عبد شمس فـَ أنزلته

---

(١١٠) (تفسير القرآن الكريم) لـِ عبد الله شحاته ــ عند تفسيره لـِ سورة آل عمران ــ الجزء الثالث ــ ص ٥٥ ــ مرجع سبق لنا أن ذكرناه.

(١١١) (السيرة الحلبية) لـِ علي بن برهان الدين الحلبي الجزء الثاني ص ١١٦ نقلاً عن كتاب «محمد واليهود» لـِ د. بركات أحمد ــ ص ١١٤، ١١٥ ــ مرجع سابق.

وأكرمته وجعل يحرّض على رسول الله ــ ص ــ وينشد الأشعار ويبكي على أصــحاب القليــب الذين أصيبوا بـِ بدر من قريش).[١١٢]

ومن نافلة القول أن ننسخ أن الشعر في ذياك الوقت هو أخطر وسائل الإعلام، يحفظونــه ويتناقلونه ويؤثر تأثيراً بالغاً.

ولم يكتف النضيري ابن الأشرف بل أخذ يشبب بـِ نسون المسلمين في أبيــات فاضــحة وممن مدّ لسانه القذر إليهن أم الفضل بنت الحارث قال في حقها قصيدة منها:

يرتج ما بين كعبيها ومرفقها.. إذا تأتت قياماً ثم لم تقم[١١٣]

وقد علق المؤلف على هذا البيت ب الآتي (ويتضح المجون في هذا البيت حتــى يــدرك المرء أنه يشير إلى حركة ردفي أم الفضل حين تتحني).[١١٤]

وأم الفضل هذه هي زوجة العباسّ بن عبد المطلب عم «البرهان» وشقيقة ميمونــة بنــت الحارث إحدى زوجاته[١١٥] التي طلبت الاقتران به وعمرها آنذاك ستة وعشــرون عامــاً أبلغــت رغبتها إلى أختها ثم نقلها عمه إليه فـَ قبل وأصدقها أربعمائة درهم فـَ أشرقت بـِ شــأنها الآيــة الكريمة (وامرأة مؤمنة وهبت نفسها للنبي).[١١٦]

حدث ذلك في عمرة القضاء بـِ مكة ولكن القرشيين رفضوا أن يتم النكاح في بلــدهم لأن الثلاثة أيام التي نَصّ عليها عهد الحديبية انقضت فـَ قال لهم «ما عليكم لو تركتموني فـَ أعـُـرّس بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فـَ حضرتموه»، «بيد أنهم لجّوا في عنادهم وإبائهم فرحل عــنهم وبنى بها «دخل بها» في سَرَف قرب التنعيم ــ بعد قرية القداسة بـِ مسافة

---

(١١٢) (تاريخ الطبري ــ تاريخ الرسل والملوك) الجزء الثاني ــ ص ٤٨٨ ــ مصدر سابق.
(١١٣) المصدر نفسه وذات الصفحة وكذلك «محمد واليهود» مرجع سابق ص ١٠٦.
(١١٤) ص ١١٢ عند ذكر مرجعه.
(١١٥) «المحبّر» لِ أبي جعفر محمد بن حبيب الهاشمي ــ ص ١١٢ ــ مصدر سابق.
(١١٦) الآية الخمسون من سورة الأحزاب.

قصيرة ثم انصرف راجعاً إلى أثرب».[١١٧]

وقد أورد المحب الطبري «عن ابن عباس أن النبي ــ ص ــ تزوجها وهو مُحْــرِم وقــد أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب النكاح والبخاري في صحيحه في باب النكاح.[١١٨]

وذكر السيوطي في «باب اختصاصه بـِ جواز النكاح وهو مُحْرِم»:

(أخرج الشيخان «أي البخاري ومسلم» عن ابن عباس أن النبي ــ ص ــ نكــح ميمونــة وهو مُحْرِم).[١١٩] وذلك في سنة سبع.

ولا مانع من نكاحه ــ ص ــ وهو مُحرم، فإن من خصائصه ــ ص ــ حَلّ عقد النكــاح في الإحرام).[١٢٠]

* * *

ثم نؤوب إلى سياقة التنقير:

خطيئتان مُهلكتان تردى فيهما كعب عليه اللعنة:

أولادهما: سياسة عسكرية وهي تحريشه سخينة على قتال «الأبرّ الأبلج» وتحريضهم على الهجوم عليه وتهييجهم على حربه.

وأخراهما: شخصية ذاتية تمس وتراً حساساً لدى أي عربي بل عند كل رجل يغير علــى عرضه وهي التشبيب بـِ نساء تبعه عامة وبـِ زوجة عمه.[١٢١]

تشبيباً خليعاً وتغزل فيهن غزلاً فاضحاً ووصفهن وصفا داعراً ونعتهن نعتاً فاجراً فأصبح السكوت عن هذا النضيري الخبيث العربيد أمراً مُحالاً وقد بلغ الضيق بـِ «الفــارق بــين الحــق والباطل مداه» ف قال لـِ تبعه: «من لي من أبي الأشرف».[١٢٢]

---

(١١٧) ب اختصار من كتاب «نساء النبي» لـِ بنت الشاطئ ــ ص ص ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦ وكذلك كتاب «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» لـِ محب الدين الطبري ــ الباب التاسع ص ١٩٢ وما بعدها ــ مصدر سابق.

(١١٨) (السمط الثمين) المحب الطبري ــ ص ١٩٤ ــ مصدر سابق.

(١١٩) (الخصائص الكبرى) لـِ السيوطي ــ المجلد الثاني ص ٥٢٤ تحقيق أ.د حمزة النشرتي وآخرين ــ الطبعة الأولى ١٩٩٦ ــ والمحقق الأول هو الناشر.

(١٢٠) «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» الشهير بـِ «السيرة الحلبيــة» الجــزء الثــاني ــ ص ٧٨٢ ــ الطبعة الأولى ــ ١٣٨٤هـ/ ١٩٨٤م ــ شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ــ ب مصر.

(١٢١) في ذياك الوقت لم ينكح ميمونة بعد ا.هـ

(١٢٢) (تاريخ الطبري) ص ٤٨٨ ــ سابق. ومن مطالعة سيرته التي هي المثل الأعلى ل كل مسلم يثبت أنــه إذا قال عبارة «من لي من فلان أو ب فلان» فاعتبره منذ تلك اللحظة في عداد الموتى ا.هـ.

فَ شمرت عن ساعديها المفتولين إحدى فرق المهمات الخاصة وهم غالبا من الشبَبَة أميرها محمد بن مسلمة الأشهلي.[١٢٣]

واغتالته في عُقر داره فَ استراح «أول المسلمين» من آثامه الفواحش.

فَ لما عادوا «وجدوا رسول الله ــ ص ــ واقفاً على باب المسجد فَ قال: أفلحت الوجوه فَ قالوا: ووجهك يا رسول الله ورموا بَ رأسه بين يديه ف حمد الله على قتله».[١٢٤]

تلك الخبطة الصمّاء أرعبت أولاد الأفاعي وأخبرتنا كتب السيرة المحمديـة ذات الرتبة المنيفة أنهم ما إن تيقنوا منها حتى سيطر عليهم الفزع وهيمن عليهم الخوف وركبهم الهلع وعمهم الذعر (فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بِ عدو الله فَ ليس بها يهودي إلاّ وهـو يخـاف علـى نفسه).[١٢٥]

وذكر الواقدي في مغازيه «فَ خافت اليهود فَ لم يطلع عظيم من عظمائهم ولم ينطقـوا وخافوا أن يُبيتوا كما بُيّت ابن الأشرف».[١٢٦]

وأثلج هذا الفلج صدر «الأخشى لله» فَ أعطى تبعه الضوء الأخضـر لِ الـتخلص مـن رجال اليهود.[١٢٧]

واستئصال شأفتهم وإفنائهم على بكرة أبيهم يعقوب.[١٢٨]

(.. فَ قال رسول الله ــ ص ــ من ظفرتم به من رجال يهود فَ اقتلوه).[١٢٩]

ولم يقصر الصحب في تنفيذ الأمر الحاسم الباتر كما السيف الحديد السنين وقد حمل إلينـا الطبري في تاريخه مثالاً وهو أن أحد الصحابة اليثاربة وهو مَحِيصة بن مسعود إثر سماعه الإذن الصريح وثب على تاجر يهودي اسمه ابن سنينة ربطته بأخيه الأكبر علاقة تجارية وثيقة فَ قتلـه فَ استفظع أخوه غير المسلم فعلته النكراء، بيد أنه سرعان ما أعلن إسلامه على الفور لا التراخي تحاشياً أن يلقى مصير شريكه الإسرائيلي.[١٣٠]

---

(١٢٣) الفرقة بِ أسرها من بني الأشهل أي جميعهم من اليثاربة ليس من بينهم نازح فرد ا.هـ.
(١٢٤) (المغازي) لِ الواقدي ــ الجزء الأول ــ ص ١٩٠ ــ مصدر سابق.
(١٢٥) (تاريخ الطبري) ص ٤٩١ ــ مصدر سابق.
(١٢٦) (المغازى) لِ الواقدي ــ الأول ــ ص ١٩١ سابق.
(١٢٧) بداهة دون النساء والفتيان والأولاد الصغار والأطفال. ا.هـ
(١٢٨) أحد البطاركة الكُمّل.
(١٢٩) المصدر السابق ذات الصفحة ــ وأيضا (المغازي) لِ الواقدى ــ الأول ــ ص ١٩١ ــ سابق.
(١٣٠) اقرأ تفاصيل هذه الأقصوصة في (تاريخ الطبرى) الجزء الثاني ص ٤٩١.ا.هـ. وكذلك المغازى لِ الواقدي ــ الأول ــ ص ١٩١ ــ ١٩٢.

ويضيف أن مَحيصة قال شعراً أوعد فيه أخاه حُويصة بِ القتل ــ ونحن نذهب إلى أنه من دوافع الأخير لاعتناق الإسلام. ا.هـ

وخلاصة الأمر أن اليهود (حذرت وخافت وذلّت من يوم قتل ابن الأشرف).(١٢١)

* * *

بيد أن بني النضير رغم فرقهم الشديد واستكانتهم الظاهرية وخضوعهم الشكلي فَ إنهم لم يعدلوا عن مسلكهم الدنيء ومنهجهم الخبيث وديدنهم الطفس (ذلك أن النبي ــ ص ــ حين قدم المدينة صالح بنو النضير رسول الله ــ ص ــ على ألا يكونوا عليه ولا له فَ لما ظهر يوم بدر قالوا هو النبي الذي نعته في التوراة فَ لما هُزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا).(١٣٢)

أما الواقعة التي تؤكد غدر بني النضير فهي شروعهم في قتل «أجود الناس» غيلة ومبتدؤها أنه أفلت من نازلة بئر معونة عمرو بن أمية وفي طريقه إلى أثرب لقي رجلين من بني عامر فنسبهما فانتسبا.. حتى إذا ما ناما قتلهما وأخذ سَلَبهما (كالعادة المتبعة) ولما ورد على «الكامل» نقل إليه خبرهما فقال له: بئس ما صنعت لوجود عهد بينه وبين رهطهما فَ ردّ عليه عمرو بِ عدم علمه وأمر «الأبرّ»، بِ عزل السلب وبعث به مع الدية التي طلبها عامر بن الطفيل ثم سار «المؤيد المنصور» إلى بني النضير يستعين في ديتهما لأنهم حلفاء لِ بني عامر فوجد النضيرين في ناديهم فَ كلمهم فقالوا نفعل ما أحببت.. اجلس حتى نطعمك فَ جلس إلى جنب جدار من بيوتهم ومعه نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعليّ فَ خلا أولاد الأفاعي بعضهم إلى بعض وقالوا إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحالة فَ من رجل يعلو هذا البيت فَ يلقي عليه صخرة فَ يريحنا منه؟ فقال أحد سادتهم وهو عمرو بن جحاش: أنا لذلك ونهاهم سلام بن مشكم لأن هذا نقض لِ العهد الذي بينه وبينهم ولكنهم أصروا لأنه إن قتل تفرق أصحابه ولحقوا ببلدهم «= بكة» وبقى بنو قيلة حلفاؤهم، وأضاف

---

(١٣١) (المغازي) لِ الواقدى ــ ص ١٩٢ ــ مصدر سابق.

(١٣٢) (تفسير النسفي) لِ الإمام أبي البركات عبد الله النسفي ــ الجزء الرابع ص ٢٣٨ ــ عند تفسيره ل سورة الحشر ــ د.ت دار إحياء الكتب العربية ــ عيسى البابي الحلبي ــ ب مصر.

سلام «والله ل ان فعلتم لَ يُخبرون بأنا غدرنا به.. يا قوم أطيعوني هذه المرة وخالفوني الدهر» بيد أن ابن جحاش هيأ الصخرة لِ يرسلها على «الإكليل» ويحدرها.. (فَ لما أشرف بها جاء رسول الله ــ ص ــ الخبر من السماء بِ ما هموا به فَ نهض رسول الله ــ ص ــ سريعا كأنه يريد حاجة وتوجه إلى المدينة وجلس أصحابه يتحدثون وهم يظنون أنه قام يقضى حاجة).[١٣٣]

وبقية خبر هذه المكيدة الخسيسة أن تبعه لما استبطأوه عادوا أدراجهم إلى يثرب فَ أنبأهم بها وأمرهم بِ التهيؤ لِ حربهم والمسير إليهم.

* * *

أدرك «الوسيم/ الوجيه» أن ذهابه في نفر معدود من صحبه إلى معقل بني النضير ثم جلوسه وإياهم إلى جنب أحد جدران بيوتهم فيه مخاطرة مؤكدة خاصة أنه منذ عام قتل أحد زعمائهم المبرزين الملعون كعب بن الأشرف، وربما لمحهم يتشاورون ويتهامسون، وهذا فرض احتمالي لا نعوّل عليه كثيراً إنما نستند إلى الحقائق الثوابت، وهي أن أولاد الأفاعي مركوز في طباعهم الغدر ولن تواتيهم فرصة ذهبية مثلها ليثأروا لاغتيال سيدهم الذي وقع منذ سنة[١٣٤] وبذكائه اللماح وفطنته البالغة وبصيرته النفاذة توصل إلى أن أمثل الحلول لِ الخروج من هذه الورطة هو أن ينسل بِ هدوء كأنه يريد قضاء حاجة ثم يؤُوب إلى قرية الحرتين، لأنه لو أشعر أصحابه بِ جلية الأمر لَ طوقهم النضيريون وهم عدد محدود واليهود داخل حصونهم ومعهم الحلقة والسلاح فَ لن يستطيعوا مقاومتهم وبِ منتهى اليسر يقضون عليهم إذ كما يقول المثل: «الكثرة تغلب الشجاعة» خاصة وأنه ليس من المعقول أن يسير إليهم «العابد» وصحبه وهم مدجّجُون بِ السلاح لأنه لم يذهبوا لِ قتال بل لِ طلب سلمي وهو حَثّ بني النضير على دفع دية القتيلين نفاذاً للعقد الذي يربط الطرفين.

* * *

(١٣٣) (المغازى) لِ الواقدي ــ الأول ــ ص ص ٣٦٤/ ٣٦٥ و(السيرة الحلبية) ــ الثاني ــ ص ٥٦٠ و(تاريخ الطبري) ص ص ٥٥٠ ــ ٥٥١.

(١٣٤) كعب بن الأشرف الرقيع الماجن قُتل في ربيع الأول من سنة ٣هـ ووقعة بني النضير في ربيع الأول من سنة ٤هـ ا.هـ

ثم تستأنف السياقة:

أرسل إليهم محمد بن مسلمة وهو اختيار بارع لأنه أوسيّ وبنو النضير حلفاء الخزرج وطالما قاتلوا بجانبهم ضد الأوس وأقربها يوم بعاث إذن فهو (= محمد بن مسلمة) يعتبر في حكم عدوهم ولذا «قالوا يا محمد ما كنا نرى أن تأتي بهذا الرجل من الأوس»(١٣٥). هذا من رجا ومن آخر فـَ هو رأس العصبة التي اغتالت سيدهم ابن الأشرف ــ كيما يبلغهم أن يخرجوا خاصة وأن رأس النفاق وزعيم المعارضة السياسية أرسل إليهم يُمينهم ويعدهم وعوداً خُلبا... فـَ سار المسلمون إليهم وحاصروهم واستمروا خمسة عشر يوماً وهم يقاومون فـَ لجأ (سيد الكونين) إلى سلاح يغيظ أولاد يعقوب ويوجعهم وهو سلاح الحرب الاقتصادية (فأمر رسول الله ــ ص ــ بـِ قطع النخيل والتحريق فيها).(١٣٦)

(فـَ قطعت وحرقت «واستعمل على قطعها رجلين من أصحابه: أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام فـَ كان أبو ليلى يقطع العجوة وكان عبد الله بن سلام يقطع الُلون (وهو النخيل ما خلا العجوة والبرْنى واحدته لينة اءهـ)... وكانت العجوة خير أموالهم).(١٣٧)

وجاء هذا الأمر بـِ مثابة قاصمة الظهر لـِ بنى إسرائيل بيد أنه أحدث دوياً صاخباً لدى كافة الفرقاء:

(وجاء رسول الله ــ ص ــ وأحاط بـِ حصنهم وغدر بهم عبد الله بن أُبيّ فكان رسول الله ــ ص ــ إذا ظهر بـِ مقدم بيوتهم حَصّنوا ما يليهم وخرّبوا ما يليه.. وقد كان رسول الله ــ ص ــ أمر بـِ قطع نخلهم فـَ جزعوا من ذلك وقالوا يا محمد إن الله لم يأمرك بـِ الفساد إن كان لك هذا فـ خذه وإن كان لنا فلا تقطعه).(١٣٨)

ويورد لنا الواحدي النيسابوري أنهم جزعوا من قطع النخل وتحريقه (وقالوا زعمت يا محمد أنك تريد الإصلاح أفمن الصلاح عَقْر الشجر

---

(١٣٥) (المغازي) لـِ الواقدي ــ الأول ــ ص ٣٦٧.
(١٣٦) (السيرة النبوية) لـِ ابن إسحق ــ المجلد الثاني ــ ص ٤٧ ــ سابق.
(١٣٧) (المغازي) لـِ الواقدي ــ الأول ــ ص ٣٧٢.
(١٣٨) (تفسير سورة الحشر) لـِ الشيخ حسن الفريد الكلبايكانى ــ ص ٢٦ ــ الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ/ ق ــ طهران.

المثمر وقطع النخيل؟ وهل وجدت في ما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض؟[١٣٩]

أما نسونهم فـَ (لما قُطعت العجوة شقّ النساء الجيوب وضربن الخدود ودعون بـِ الويل)[١٤٠] وصاح اليهود في وجوه المسلمين (وقالوا لـِ المؤمنين إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون).[١٤١]

* * *

(فـَ شقّ ذلك على النبي ــ ص ــ)[١٤٢] وربما ضاعف هذا الشعور في نفسه موقف بعض تبعه إذ حاك في صدورهم قطع اللون وتحريق العجوة (وحينئذ وقع في نفوس بعض المسلمين من ذلك شيء).[١٤٣]

بل بدأ نفر منهم يتردد في تنفيذ الأمر وهذا شأن خطير لأنه بـِ مثابة عصيان لـِ القائد (فـ وجد المسلمون في أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فسادا في ذلك «هكذا وربما صحتها فساداً في الأرض ا.هـ) قال بعضهم لا تقطعوا مما أفاء الله علينا وقال بعضهم بل اقطعوا).[١٤٤]

ونحن نرجّح أن أولئك النفر من اليثاربة عموماً ومن الخزارجة تحديداً إذ طالما طَعِموا من هذه العجوة والألوان «بـِ لهجتهم وهو جمع لينة ا.هـ»)

ومسألة ما دخل في قلوب تبع «أحمد» من إحساس إزاء الإذن ب القطع والتحريق أوردها اثنان من كتب الصحاح الستة (النسائي) و(الترمذي) بخلاف الطبراني وأبي يَعْلي وابن كثير في تفسيره.

(أخرج الترمذي والنسائي وأبو يعلي والطبراني عن ابن عباس في قول الله عز وجل (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها).

---

(١٣٩) (أسباب النزول) لـِ الواحدي النيسابوري ــ ص ٢٧٩ ــ سابق و(السيرة الحلبية) ص ٥٦٤ ــ سابق.
(تفسير البيضاوي) ص ٧٢٥ سابق.
(السيرة النبوية) لـِ ابن إسحق المجلد الثاني ص ٤٧ ــ مصدر سابق.
و(تاريخ الطبري) والثاني ص ٥٥٢.
(١٤٠) (السيرة الحلبية) ــ الثاني ــ ص ٥٦٤ ــ سابق.
(١٤١) (السيرة الحلبية) ــ الثاني ص ٥٦٤ ــ سابق.
(١٤٢) (أسباب النزول) لـِ الواحدي ــ ص ٢٧٩ ــ سابق.
(١٤٣) (السيرة الحلبية) ــ الثاني ص ٥٦٤ ــ سابق.
(١٤٤) (أسباب النزول) لـِ الواحدي ص ٢٧٩.

قال اللينة النخلة: و(ليخزي المنافقين) قال: استنزلوهم من حصونهم قال وأمـروا بقطـع النخل فـَ حكّ في صدورهم فـَ قال المسلمون قد قطعنا بعضا وتركنا بعضا ولَ نسألن رسـول الله ــ ص ــ هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فـَ أنزل الله تعالى:

(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) «الآية الخامسة من سـورة الحشر».[١٤٥]

وبذلك أصبحت هذه المسألة ثابتة والمحاجة فيها ضرباً من المماحكة.

* * *

من جراء الدعوة لِ قطع وتحريق النخيل التي تنتج المحصول العماد الـرئيس لاقتصـاد قرية الأثاربة الذين يعرفون قيمته ونفاسته وأهميته لديهم جميعاً يهوداً وعَرَبَـة قبّـت أزمـة ذات شقيْن.

الأول: عقائدي أثاره أولاد الأفاعي وهو أنه يُشكّل إفساداً والله لا يأمر به ولا يرضـاه ولا توجد ديانة ذات إسطير أو مليطة من كتاب تُقرّه أو تأذن به أو تدعو إليه.

الآخر: عسكري هو أن التبع وهم الجنود أثر في نفوسهم كلام يهـود وأحـزنهم منظـر نسوانهم وهن يصحن ويولولن ويلطمن خدودهن أسفاً على العجوة التي تُجذ والنخيل التي تلتهمهـا النيران، كما أن أولئك العسكر وفيهم نسبة واضحة من بني قيلة يدركون أكثر من المكاكوة بِ مـا لا يقاس مكانة النخيل وثمانة ما تنتجه كَ مصدر غذائي ومورد مالي بِ الإضافة إلى قيـام أُلفـة حميمة بين اليثربي والنخلة، بحيث إن إقدامه على جعلها وقودا للحريق بما عليها من بلح أو تمـر واجب عسير على نفسه وصعيب على وجدانه، وحتى نقرب المسألة إلـى ذهـن القـارئ نـرقم: تصوّر كيف يغدو حال الفلاح المصري في جنوب الصعيد إذ أمرته بِ تحريـق حقـول قصـب السكر وتدميرها أو الفلاح المصري في الدلتا إذا دعوته إلى إضرام النـار فـي مـزارع القطـن وإتلافها.

ومن ثم أطلعتنا المصادر العوالي من التراث أن صدور الجند الصحاب

---

(١٤٥) (المقبول من أسباب النزول) لِ الشيخ أبو عمر نادي الأزهري ــ ص ٦٥٤ مرجع سابق ــ وفي هـامش الصفحة رقم المصنف أنه حديث حسن وأن ابن كثير في تفسيره عزاه لِ أبي يعلي.

بدأ يحيك فيها ما يمكن أن نسميه الشعور بِ الذنب، وهذا يتمثل في قولهم لِ «أشجع الناس» (هل علينا من وزر) وطفق بعضهم يتردد في التنفيذ «وقال بعضهم لا تقطعوا..» من جماع ذياك شَقّ عليه الأمر.

بيد أن القرآن العظيم كما هو شأنه معه لا يتركه يعاني تلك الأزمة العقائدية العسكرية فتهادت كأنوار الفجر الصادق الآية الخامسة من سورة الحشر التي نسخنا نصها الكريم قبل سطور ومفادها أن تحريق النخل وقطع العجوة تمّ بإذن من الله كما أن ما لم تمتد إليه النار ولم تلحقه الأيادي بالإتلاف بقى أيضا بِ إذن الله.

واستراحت ضمائر الأجناد ما دامت مشيئة ربهم هي التي أمرتهم بِ ما قاموا به وارتفع ما حاك في صدورهم وغادرها إلى الأبد وتنفس «المحجّة» الصعداء وتبخرت المعضلة وصارت بدداً وتحولت إلى هباء منثور بل غدت كأنها كابوس ثقيل يراه النائم فيزعجه فما أن يستيقظ حتى يصبح ذكرى عابرة.

ويوثق (الأمر/ المثانى/ القرآن) أنه مع «البارع» دائماً سواء في حجرات نسائه أو في ميادين القتال، وهذه هي العلاقة الجدلية التي تلحمه ب رباط وثيق مع الواقع وهذا هو سر ظهوره منجماً.

* * *

[١٤]

نهى (المرتضى) أصحابه عن كثرة الأسئلة وبصرهم بِ مآل أتباع «الكُمّل» الذين سبقوه عندما مشوا في ذات الدرب، شدّدوا في المسألة فَ شدّد الله عليهم.

وضرب لهم مثلاً بِ مسلك بني إسرائيل في قصة البقرة المُعجبة.

لكن أسئلة الصحيحة توالت واستفساراتهم تواترت واستفهاماتهم تتابعت ولهم عذرهم فَ «الأزج/ الأزكى» دعا إلى ديانة جديدة مغايرة لِ ديانتهم شملت أرجاء عديدة: العقيدة/ العبادة/ الأحوال الشخصية/ الجزاءات/ المعاملات.. إلخ، وهم مليطون من أي ثقافة دينية بِ استثناء نفر محدود وحتى هؤلاء فَ إنّ ما علموه مغاير لِ ما جاء به، لأن الدين الذي بشّر به هو الخاتم والمهيمن على ما سبقه (زماناً لا رتبة).

والصحبة بهم تشوّف لِ المعرفة ولديهم شوق نحو التعلم وعندهم تطلع صوب التفهم وفي باطنهم نهم للإدراك.

هذا من شق.

ومن آخر: اعترضتهم في حياتهم صعاب عبادية ومشكلات خاصة شخصية ونوازل تجارية أو مالية (= اقتصادية) وقفوا عندها وقد أحاطهم الربْك وعلتهم «اللخمة = كلمة عربية فصيحة معناها: ثقل النفس ا.هـ» وشملهم الاضطراب وعمتهم الحيرة وسيطر عليهم الإشكال.. لا يدرون كيف يتصرفون ولا أين يتوجهون وفي أي جادة «طريق» يسيرون.

ومن ثمة فَ ليس أمامهم إلا «القيّم الكامل» فأمّوه «= قصدوه» فهو الذي حمل إليهم الديانة الجديدة وهم موقنون أنهم سيَلْقون عنده الجواب لكل سؤال والرد على أي استفهام والإيضاح لِ أي استفسار...

وكَ نتيجة حتمية تعددت وتنوعت وتباينت ولزام عليه أن يشفى غليلهم وينقع غُلّتهم ويروي عطشهم وهو موقف يتسم بِ العُسر ويمتلئ بِ المشقة ويتضلع من الرَهق خاصة إذا تموضع السؤال في شأن حساس أو تعلق الاستفسار بأمر مريج أو اتصل الاستفهام بِ موضوع دقيق.

هنا لا يذر القرآن المجيد «الأبطحي» يواجه هذه القضايا منفرداً بل كَ المتبع يعاضده ويعاونه ويؤازره ويتشكل جِماعه في تقديم حل لِ كل معضلة ونفح فَكّ لكل أزمة وإهداء وتدبير لكل نازلة تختلف صورها وتتباين هيئاتها وتتنوع أشكالها وتتغاير رسومها إنما الذي لا مشاحة فيه ولا ينتطح على صحته عنزان أن المخاطبين بها تلقفوها مسرورين: صدورهم منشرحة وقلوبهم مطمئنة ونفوسهم راضية.

وإليك حفنة مما حباه الذكر الحكيم لِ «ال هَجُودَ» من نفحات شافية وإشراقات كافية وهبات وافية، فاز بها تبعه وألسنتهم تلهج بِ الشكر الجزيل والحمد الوفير والامتنان البالغ والثراء العاطر.

* * *

١ ــ في بديّ الشأن عند الصيام في رمضان يظل الطعام والشراب ومعافسة الزوجة مباحاً بِ الليل ما لم ينم الزوج أو زوجته فَ إذا نعس ثم استيقظ حرم عليه وبالمثل إذا نامت هي فَ لا يحل له إيقاظها لِ يباشرها.

وإذ إن ملامسة الحليلة لدى أولئك العُربان طقس يومي فشقّ عليهم وخالفوه.

(أخرج الإمام أحمد والطبري عن كعب بن مالك ــ رض ــ قال:

كان الناس في رمضان إذا صام الرجل ف أمسى ف نام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد، ف رجع عمر بن الخطاب ذات ليلة من عند النبي ــ ص ــ وقد سمر عنده ف وجد امرأته قد نامت ف أرادها ف قالت: إني قد نمت ف قال: ما نمت ثم وقع عليها).

وصنع كعب بن مالك مثل ذلك.

فَ غدا عمر بن الخطاب إلى النبي ــ ص ــ فأخبره الخبر.

فَ أنزل الله تعالى «علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم» (سورة البقرة الآية السابعة والثمانون بعد المائة).[١٤٦]

و(لباب النقول في أسباب النزول) لِ السيوطي ــ ٢٣ مصدر سابق أورده من رواية عبد الله بن كعب بن مالك وقال: أخرجه أحمد وابن جرير (= الطبري) وابن أبي حاتم.

و(أسباب النزول) لِ الواحدي ــ ص ٢٠ ــ مصدر سابق.

وقد ذكر الواحدي النيسابوري أن الصحابة «شكوا ذلك لِ رسول الله ــ ص ــ فَ أنزل الله هذه الآية».[١٤٧]

وينفحنا الواحدي بِ مُعطى هام هو أن الصحاب عمهم السرور عندما تلا عليهم «الهادي» هذه الآية، كيف لا ومقاربة الزوجات مَعْلم يومي بارز في حياتهم المبرورة، وذكر أن مسألة الانبساط هذه أوردها البخاري في صحيحه وهو أصح كتاب لدى أهل السنة والجماعة بعد (الصحف = القرآن) فَ فرحوا فرحاً شديداً ــ رواه البخاري».[١٤٨]

وهكذا أمرّ القرآن الحكيم «الحجة البالغة» بِ آية كريمة رفعت كربة شديدة عاناها أصحابه ولا شك أنه يفرح لِ فرحهم فَ هم أجناده الأوفياء.

---

(١٤٦) (المقبول من أسباب النزول) ل أبي عمر الأزهري ص ٩٥ مرجع سابق، وأضاف المصنف أن إسناده صحيح وأن أبا داود «من أصحاب الصحاح» أخرجه ب نحوه من رواية ابن عباس.
و(لباب النقول في أسباب النزول) لِ السيوطي ــ ص ٢٣ مصدر سابق أورده من رواية عبد الله بن كعب بن مالك وقال: أخرجه أحمد وابن جرير (= الطبري) وابن أبي حاتم.
(١٤٧) المصدر نفسه وذات الصفحة.
(١٤٨) ذات المصدر ص ٢١.

* * *

هند بنت أبي أمية.. من بني مخزوم اشتهرت ب «أم سلمة» وعرف أبوها أميـــة بـِ «زاد الركب» لِ أن من يسافر معه لا يحمل زاداً.

تزوجت أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال من بني مخزوم أيضاً وهو في ذات الوقت ابـــن عمة «الفاتح» بَرّة بنت عبد المطلب بن هاشم وأخوه من الرضاعة أرضعتها مولاة لأبي لهب تبت يداه ــ تسمى ثويبة.

وأسلم كلاهما ونزحا إلى الحبشة مع من نزح ثم عادا ونزحا مرة أخرى لِ قرية الحـــرتين واشترك أبو سلمة في الغزوات والسرايا ثم مات في السنة الرابعة وغدت هند أرملة.

وتميزت بـِ جمال نادر ووضاءة باهرة وحسن فائق ونضارة ريّانة. قبل زواجها «كانـــت جموع شباب تتسارع لِ تخطب ودها ولِ تطلب يدها».(١٤٩)

إذن جمعت بنت زاد الركب المخزومى بين عراقة المحتد ونبالة الأب وارستقراطية البيت والوسامة والقسامة والملاحة.

فـَ لما تأيّمت وانقضت عدتها وأمست صالحة للتزويج أرقل إليها عتيـــق عارضـــاً نفســـه عليها ونسى أنه من فرع هزيل في قريش «تَيّم» لا يصل إلى مستوى ركبة رهطهـــا، ولِ أدبهـــا الجم وأخلاقها العوالي «ردته في رفق».(١٥٠)

فـَ حَجَل إليها أبو حفص عمر وتلقى ذات الجواب.(١٥١)

وهو أمر بديهي لا ندري كيف لم يفطن إليه ابن الخطاب فـَ هو من بطن خَمِيْص ضامر، فأين عديّ من مخزوم(١٥٢).

ثم تقدم لِ خطبتها «سيِّد الخلائق» بيد أنها اعتذرت بـِ لطف ورقة بالغيْن وتعللـــت بأنهـــا مُصبْيّة ولعدم وجود وليّ من أهلها يزوجها.(١٥٣)

ونرجّح أن مرجعه لِ سببين:

أ ــ حزنها الشديد على زوجها أبي سلمة إذ كثيراً ما رددت (من خير من أبي سلمة)؟

---

(١٤٩) (أم سلمة أم المؤمنين) إعداد.أ. أمينة أمزيان الحســـنى ــ الجـــزء الأول ــ ص ٥٠ ــ الطبعـــة الأولـــى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨ ــ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية/ المملكة المغربية.

(١٥٠) (المصدر نفسه ص ١٠٧)

(١٥١) (المصدر والصفحة).

(١٥٢) نحن نرجع أن أهم دوافع التيميّ والعدويّ لخطبة أم سلمة هو أن يحولا دون نكاح «صاحب البيان» إياهـــا لما تتمتع به من جمال باهر ووضاءة فائقة فـَ تغدو منافسة خطيرة لِ ابنتيهما عائشة وحفصـــة وتزاحمهمـــا فـــي مكانتيهما عنده ولِ ما يسببه لهما ذلك من غيرة وقلق وهو ما تحقق بـِ حذافيره ا.هـ.

(١٥٣) (السمط الثمين) لـ المحب الطبري ص ١٥٠ سابق.

بِ الفارق في العمر فَ «ذو البراهين» عند نزوحه بلغ الثالثة والخمسين ووفاة أبي سلمة في السنة الرابعة أي سنه آنذاك سبع وخمسون سنة.

أما هند فقد حققت الباحثة المغربية وتوصلت إلى أنها توفيت سنة إحدى وستين وأن سنها أربع وثمانون سنة[١٥٤] أي أنها وقت نزوح (نعمة الله) بلغت الثالثة والعشرين من عمرها وعند وفاة زوجها ناهزت السابعة والعشرين (واستنادا إلى ذلك نستطيع أن نستنتج أن أم سلمة ولدت قبل الهجرة بِ ثلاث وعشرين سنة أي قبل بعثة الرسول بِ عشر سنوات.[١٥٥]

وبِ حسبة بسيطة نصل إلى أن الفارق ينيف على ثلاثين عاماً.

وقد غضب العدويّ أشد الغضب حين ردّت «صاحب التاج» ولم توافق على قبول خطبته وكلمها في ذلك ولكنها أظهرت له أعذارها.[١٥٦]

ونحن نذهب إلى أن غضب العدويّ الشديد هو ما يسميه علم النفس «عملية إسقاط» فَ هذا تعبير عن مكنون صدره لأنها أولته ظهرها.

ولكن «صاحب المنبر» لم ييأس فَ غِبّ أن أخفقت سفارة حاطب بن أبي بلتعة[١٥٧] توجه إليها بِ نفسه يخطبها ويحاورها ويفند ما تعللت به.[١٥٨]

كما أن عمّار بن ياسر أدى دوراً طيباً في إقناعها لقبول نكاح «المنجد» إياها، فَ هو «= عمّار» أخوها من الرضاعة.[١٥٩]

وفي ذات الوقت مولى لـ بني مخزوم رهطها.[١٦٠]

ومما فعله عمار في هذا السبيل أنه انتزع من حِجْر أخته أم هند طفلتها المولودة حديثاً ووصفها بِ «المشبُوحة» ـ زينب وذهب بها لمن ترضعها كيما تتفرغ أمها تفرغاً كاملاً.[١٦١]

---

(١٥٤) (أم سلمة) لِ أمينة الحسني ـ ص ٥٧٤ ـ مرجع سابق.
(١٥٥) (أم سلمة) لِ أمينة الحسني ص ٤٩ سابق.
(١٥٦) (السمط الثمين) لِ المحب الطبري ص ١٥٠.
(١٥٧) ذات المصدر ص ١٤٩.
(١٥٨) أورده أحمد في مسنده وعبد الرازق في مصنفه وابن سعد في طبقاته نقلاً عن «أم سلمة» لِ أمينة الحسنى ـ ص ١١٠ ـ مصدر سابق.
(١٥٩) (السمط الثمين) لِ المحب الطبري ـ ص ١٥٢ سابق.
(١٦٠) في إحدى المرات تلاحى خالد بن الوليد المخزومى مع عمّار في حضرة «الأحْشَم» فَ أغلظ (= عمار) لِ ابن الوليد الذي تعجب واندهش وتوجه للمانح متسائلا: أتدع هذا العبد يشتمني؟ باعتبار أن ياسر مولى لـ بني مخزوم أي تابع لهم بيد أن «الشهم» زَجر خالداً زجراً عنيفاً. فإذا ثبت أن هذه الواقعة حدثت قبل مراودات الخطبة فإن ما فعله عمّار بِ شأنها يعد رداً لِ جميل «صاحب العطاء» لِ أنه انتصر له من خالد سيده السابق وابن الوليد بن المغيرة زعيم قريش في الأيام الخوالي. ا.هـ.
(١٦١) (السمط الثمين) ص ١٥٢ سابق و(نساء النبي) ل بنت الشاطئ ص ١٢٣، ـ ورد في الفتح الرباني لترتيب مسند الامام أحمد ـ لِ الساعاتي وأخرجه أيضا عبد الرازق في مصنفه وابن سعد في طبقاته والبيهقي في سننه نقلاً عن «أم سلمة» ل أمينة الحسني ـ الأول ص ٥٨.

تم الزواج وانضمت بنت أبي أمية إلى ركب زوجات «البارع» وصوّت ذلك عندهن دوياً صاخباً لما يعلمنه علم اليقين عن فتنتها وحسنها «عن هشام بن عروة عن أبيه أن النبي ــ ص ــ تزوج أم سلمة وكانت من أجمل النساء».(١٦٢)

وتصف بنت الشاطئ هند بِ أنها عزيزة ذات جمال وإباء وفطنة. وأحدث دخولها ضجة في دور النبي وأشاع قلقاً وأي قلق في الزوجتين الشابتين «عائشة وحفصة»(١٦٣) وفي المحال ألا يقع وأكثر منه ولعل ما صرحت به التيمية بنت عتيق في حقها يثبته (لما تزوج رسول الله ــ ص ــ أم سلمة حزنت حزناً شديداً لما ذُكر من جمالها، قالت: فتلطفت لها حتى رأيتها فرأيتها والله أضعاف ما وُصف لي في الحسن).(١٦٤)

فـَ هي «= أم سلمة» ذات أصل عريق وحسب ونسب كمَا كانت على جانب كبير من النضارة وتتمتع بِ قسط وافر من الحُسن والجمال معاً أحدث ضجّة في بيت النبي ــ ص ــ عند زواجه منها وأشاع قلقا وغيرة واضحة في نفس ضرتيها عائشة وحفصة».(١٦٥)

من نافلة القول أن نرقم أن أم سلمة حظيت عند «الذاكر» ومكث عندها ثلاثة أيام بعد أن اختلج عمار منها رضيعتها زينب وعرض عليها أن يمُدّ فترة اللُبْث إلى أسبوع بيد أنها ردت ثلّث(١٦٦)

ويبدو أنها قنعت بِ الثلاثة أيام لأنها افتقدت طفلتها الرضيعة زينب.

وتعددت مظاهر حظوتها لديه منها = تقبيله إياها وهو صائم.(١٦٧)

---

(١٦٢) (السمط الثمين) ذات الصفحة السابق.
(١٦٣) (نساء النبي) لـ بنت الشاطئ ص ١١٨ سابق.
(١٦٤) (الإصابة) ج/ ٨ ص ٢٤١ نقلاً عن (نساء النبي) لـ بنت الشاطئ ص ١١٧ و«أم سلمة» لـ أمينة الحسيني ص ١٢٠ وأضافت آخر بخلاف الإصابة وهو «الطبقات الكبرى» لِ ابن سعد الجزء/ ٨ ص ٩٤.
(١٦٥) (أم سلمة) لـ أمينة الحسيني ص ص ٤٩/ ٥٠ ــ مرجع سابق.
(١٦٦) (السمط الثمين) لِ المحب الطبري ــ ص ١٥٣ سابق.
(١٦٧) (أخرجه الشيخان في صحيحهما وهما البخاري ومسلم نقلاً عن (السمط الثمين) لـ المحب الطبري ص ١٥٥.

ابتداؤه بها عندما يدور على نسائه.[١٦٨] نومها معه في لحاف واحد وهــي حــائض.[١٦٩] اغتسالها معه من الجنابة في إناء واحد.[١٧٠]

في هدية النجاشي المردودة عندما قسّمها على نسونه فضلها عليهن.[١٧١]

ونكتفي بِ هذه الأمثلة إذ فيها غُنية وهي حجّة وبرهان على علو قدرها عنده وتمكنها من قلبه الشريف.

تلك الزوجة الغضة النضرة الحسينة الأثيرة عند زوجها (البحر) عندما تؤمه بِ استفســار من حقها عليه أن يبين لها.

فـَ هي فضلاً عما أكسبتها حياة البادية من صفات الشجاعة والجرأة والمــروءة والإبــاء والاعتزاز بِ النفس، وغير ذلك من الصفات التي ورثتها عن أبيها ف نشأت فصيحة اللسان قوية البيان ذات ذكاء وفطنة.[١٧٢]

ولقد أهمها موقف القرآن الكريم من النساء:

(أخرج الترمذي والحاكم وأبو يعلي وغيرهم أن أم سلمة ــ رض ــ أنها قالت يا رســول الله، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة ب شيء.. فـَ أنزل الله عز وجل (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) الآية الخامسة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة.[١٧٣]

وهكذا تضافرت هذه المصادر والمراجع على علو قدر هذا الحديث ونأيه عــن المطــاعن وبعده عن القوادح وخلصوه من المثالب.

والذي يشحن قلب ابنة أميّة بِ الهم ويملأ صدرها ب الشَجَن ويعبئ فؤادها بِ القلق لا بد وبطريق الحتمَ واللزوم أن يصيب «الحَفيّ/ اللطيف»

---

(١٦٨) المصدر السابق ص ١٥٦.
(١٦٩) (صحيح البخاري) و(المسند) لِ أحمد حنبل ــ المصدر ذاته والصفحة كذلك.
(١٧٠) (صحيح مسلم) كتاب الطهارة ــ المصدر السابق ص ١٥٧.
(١٧١) (المسند) لِ أحمد بن حنبل ــ ص ١٥٨.
(١٧٢) (أم سلمة) في أمينة الحسني ص ٥٠ ــ مرجع سابق.
(١٧٣) (المقبول لِ أبو عمر نادي الأزهري ــ ص ١٩٠ وأضاف بخلاف مصادره التي أوردها في فاتحة الخبــر أن الواحدي رواه في أسباب النزول والحميدي في مسنده والبخاري في التاريخ الكبير والطبري فــي تفســيره وأن الذهبي أقره وصححه والمصنف قال عنه: إسناده صحيح.
و(لباب النقول في أسباب النزول) لِ السيوطي وذكر أن عبد الرازاق أخرجه في مصنفه وسعيد بن منصور وابــن أبي حاتم ــ بخلاف الترمذي والحاكم ــ مصدر سابق.
و(أسباب النزول) ل الواحدي ص ٩٢ ــ مصدر سابق.
(أم سلمة) ل أمينة الحسني ــ ص ٢٣٩ وأضافت أن راوي الحديث هو سلمة بن عبد الله بن عمر.. أحــد حفــدة هند/ أم سلمة وسبق أن وصفت مثل هذا الحديث أنه عائلي مما يوثق صحته.

بقدر وسيع منه لأنها بعلته الحبيبة وزوجته المفضلة وحليلته المقربة.

وقد رأينا أنه في أمثال هذه المقامات يتكرم «المبين المُحكم» ويفتح طاقة تمرق منها مكونات الهم وعناصر الغم وأجزاء الإزعاج فـ على الفور انبثقت منه آية بـِ المساواة بين الذكران والإناث في الأجر وخاصة أجر النزوح لـِ أنها من بين من نزح مرتين الأولى إلى بلد أصْحَمَة (الحبشة) والأخرى إلى القرية ذات الحرتين «أثرب».

فـَ لما تلا «خِيرة الله» الآية على زوجته ذات المنزلة الحميمة تهلل وجهها وانفرجت أساريرها وظهرت بشاشتها ومن البديهي أن جميعه انعكس على «آية الله» طلاقة وبشراً وأنساً.

وتقدم لنا الباحثة المغربية أمينة الحسني هدية بالغة الثمانة عالية القيمة شديدة النفاسة وهي أن استجابة «مأدبة الله» جاءت على الفور لا على التراخي، لم تتأخر أو تتمهل أو تتباطأ ومردّه إلى المنزلة السامية لابنة زاد الركب (قال الشيخ منصور علي ناصف صاحب التاج الجامع لـِ الأصول مُعلّقاً:

فـَ فيه إشعار بعلو مكانة أم سلمة حيث أجابها الله بـ سرعة).[١٧٤]

ونأمل أن يتفرس القارئ في عبارة وردت في الفقرة التي نسخناها عن الشيخ منصور وهي (أجابها الله بـِ سرعة) إذ تشف عن أن البعض فَطِن إلى العلاقة الجدلية بين الذِكْر الحكيم والقائد وكذا إلى العلة في انبثاق سوره وآياته نجوماً متفرقة ولماذا لم يشرق جميعه فجأة وكرّة يتيمة. ولو أن فطانة الشيخ منصور وأنداده إلى هذا الملمح المُعْمِن عُمق شأنه تتبع من منظور الدروشة وإقالة العقل وتغييب الوعي وتغريب الفكر وتهجيره.

وهو بالطبع بخلاف منهجنا الذي التزمناه وما زلنا وبداهة نحن لا نُكره غيرنا على اتباعه فـَ كما يقول المثل (لِكل شيخ طريقة) بيد أنا على اقتناع أن جادتنا هي الأصح والأسد والأصوب إلى أن يأتي من يثبت لنا العكس لأننا لا ندعي لمنهجنا العصمة ولا لأفكارنا المطلقية.

* * *

---

(١٧٤) (التاج الجامع لـِ الأصول في أحاديث الرسول) لـِ الشيخ منصور علي ناصف الجزء الرابع ــ ص ٩٠ كتاب التفسير نقلاً عن (أم سلمة) لـ أمينة الحسني ص ٢٣٩ مرجع سابق.

بنو سخينة جرى المال في أيديهم لأسباب يند ذكرها عن سياق بحثنا ومن سمة المتـرفين في كل زمان أن يتلذذوا بكل ما تصل أيديهم إليه.

ورجالهم في نطاق الاتصال بِ نسْونهم لا يكتفون بِ قضـاء الـوطر وإشـباع الغريـزة والحصول على الخِلفة بل يتغنون في أوضاع المعافسة، فَ مرّة مُقبلة وأخرى مُدبرة وثالثة بارِكـة ورابعة مُجبيّة، وخامسة شَرْحا، ويفضل أن يجيء مُنكراً إمعاناً في الحصول على أعلى قدر مـن المتعة.. وأمسى هذا المسلك من قبل القرشيين عرفاً مستقراً وأمراً ثابتاً وتقليداً راسـخاً يقـوم بـه رجالهم وترحب به نساؤهم أيما ترحيب.

في حين أن الأثاربة الأعاريب على العكس لا يبغون من مجامعة النساء سوى أن يقَضـوا وَطَرهم وعلى الحرف مع أكبر قدر من الستر، ولعل مآبه علتان:

الأولى: أن بني قيلة أوضاعهم المالية أخفض من مثيلاتها لدى بني سخينة.

الأخرى: أنهم تأثروا بِ اليهود الذين ربطتهم بهم علاقات متعددة كما رقمنا، وهـؤلاء ـ خاصة طائفة الفرّيسيين ـ ينظرون إلى العلاقة الجنسية نظرة ضيقة أي يتعين أن تـؤدي تحـت ضغط الغريزة وبِ أبسط صورة.

فلما نزح بنو سخينة إلى يثرب نقلوا معهم تلك العادة الرائعة وعند نكاح بعضهم لِ نِسْـوَن بني قيلة أراد ممارستها معهن فَ استهولتها الأثربيات واستنكرنها واستقبحنها ورفضنها بِ الكليـة لأنه حسب علمهن أنها تُرتكب مع الجواري والإماء والسراري والمحظيات وملك اليمين أما مـع الزوجة الحرة فَ لا.

عندئذ طقت تساؤلات من قبل الأثربيات توجهن بها إما مباشرة وإمـا بِ الواسـطة إلـى (صاحب السلطان) الذي وجد نفسه في منتصف المسافة فإذا وافق (الأثاربة) ضاق المنازيح بنـو سخينة ذرعاً وهم أجناده الأوفياء وإذا أرضاهم تململ بنو قيلة وهم الذين آووا ونصروا.

إذن ما المخرج؟

أن تشرق آية أو أكثر من القرآن المجيد تضع الأمر في نصابه الصحيح ولا يستطيع واحد من الفريقين أن ينبس بعدها بِ بنت شفة.

* * *

(قال ابن عباس إن هذا الحي من قريش كانوا يتزوجون النساء ويتلذذون بهن مُقبلات ومُدبرات فَ لما قدموا المدينة تزوجوا من الأنصار، فذهبوا ليفعلوا بهن كما كانوا يفعلون بِ مكة فَ أنكرن ذلك وقلن هذا شيء لم نكن نُؤتى عليه. فَ انتشر الحديثَ حتى انتهى إلى رسول الله ــ ص ــ ف أنزل الله تعالى في ذلك (نساؤكم حرث لكم فَ أتوا حرثكم أنى شئتم) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة قال: إن شئت مُقبلة وإن شئت بَاركة وإنما يعني بذلك موضع الولد).[١٧٥]

وهناك خبر عن رجل من حِمْيَرَ أتى (أبا القاسم) فَ قال له:

(إني أحب النساء وأحب أن آتي امرأتي مُجْبية أي مُنْكَبّة على وجهها فَ كيف ترى ــ فَ أنزل الله تعالى (الآية).[١٧٦]

ولنلتفت في هذا إلى ملحظيْن:

١ ــ قول الحمْيَري إني أحب النساء مما يقطع أنه مكون أساسي في نفوس أولئك العَرَبَة وهذا مآبه كما رقمنا في كتابات لنا سوابق أن حيواتهم تَصْفُر من أي نشاط اجتماعي أو ثقافي أو فني أو رياضي ومن ثم فليس ثمة أمامهم إلاّ هذا النزوع.

٢ ــ أنه استْبْيَان مباشر توجّه به صاحبه إلى (الفخر) ولا يتصور أن يذر الاعرابي دون إجابة شافية خاصة أنه لا بد أن لمح من لهجته وانفعاله وكيفية نطقه أنه يعتبرها بِ النسبة إليه مسألة حياة أو موت.

تدخلت هند أم سلمة في خبر ثالث وأدت دور الوسيطة بين أثربية وبين (الظَفُور) واستوضحته نيابة عنها لأن المرأة هابته واستحْيت أن تتقدم إليه مباشرة خاصة أن في السؤال حساسية: (أخرج الترمذي وأحمد عن أم سلمة قالت: لما قدم المهاجرون المدينة على الأنصار تزوجوا من نسائهم وكان المهاجرون يُجَبُّون وكانت الأنصار لا تُجَبِّى، فَ أراد رجل من المهاجرين امرأته على ذلك فَ أبت عليه حتى تسأل رسول الله ــ ص ــ قالت فَ استحْيت أن تسأله، فَ سألته أم سلمة فَ نزلت الآية).[١٧٧]

---

(١٧٥) (أسباب النزول) لِ الواحدي ــ ص ٤٧ مصدر سابق. وقال: رواه الحاكم.
و(لباب النقول في أسباب النزول) لِ السيوطي ص ٣١ مصدر سابق ــ وأضاف أبى الحاكم أبا داود (وهو واحد من الصحاح الستة).
و(المقبول) لِ أبي عمر نادى الأزهري ــ ص ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨ ــ مرجع سابق.
وأورد حديثاً مشابهاً قال عنه: أخرجه النسائي عن نافع مولى ابن عمر.
(١٧٦) المرجع السابق ص ١٢٩.
(١٧٧) (المقبول) ص ١٣٠ سابق ونلفت النظر إلى أن من أخرجه الترمذي (أحد الصحاح الستة) وأحمد في (المسند) ووصف المصنف أن إسناده حسن.
و(أم سلمة) ل أمينة الحسنى ص ص ٢٢١/ ٢٢٢.

٣ ــ قدّر (أحسن القصص) موقف (المصطفى) في هذه المسألة التي امتازت بقدر من الدقة لأن بنى سخينة يحتل موضوع (معافسة الإناث) مساحة طويلة عريضة من نفوسهم ووجدانهم وغرائزهم.

في حين أن بنات قيلة علقنها على الكرامة والمكانة والاعتبار الشخصي لأنها ببساطة شديدة تحولهن من حرائر إلى إماء، وإجابة أي طرف لِ مبتغاه سوف تثير لدى الآخر قدراً من الغضب المكتوم والحنق المدسوس والغيظ الخبيء، من هذا المنطلق أسعفه بِ آية لا بد أن يتقبلها الجميع بِ الرضا ويتلقفها بِ التسليم ويتناولها بِ الإذعان، ومما لا مشاحة فيه أن (ذا المقام المحمود) شكر الذكر الحكيم على وقوفه دائماً معه يحل له الأزمات.

* * *

٤ ــ النزوع إلى مفاخذة النِسْون ــ وإذ إنه مكون رئيسي في بنية أولئك العُربان ــ فإنه لم يفاصلهم حتى في ميادين القتال التي لا يشغل فيها المحارب سوى العراك والفَرّ والكَرّ ومنازلة العدو وعلى الأخص لو أنه خرج لِ إعلاء كلمة ربه ونشر الديانة التي آمن بها ولرفع رايتها إلى أعلى.

ومن هنا ما انفكت استفهاماتهم واستيضاحاتهم تدور في هذا المضمار.

وشكّلت أسئلتهم لِ (الأمين) في هذا المجال نسبة متميزة، ونحن لا تخالجنا ذرة من ريب في أنها سبّبت له حُروجة عميقة وتأففاً كثيراً وضجراً شديداً ولكنه وهو ذو الخلق العظيم بِ شهادة (الحبل/ القرآن) لا بد أن يكتم جميعه في نفسه ولا يبديه لهم لأنهم عسكره الذين بِ سيوفهم الباترة ورماحهم النافذة وخناجرهم القاصمة يحقق طِلبتين عزيزتين عليه، أثيرتين لِ نفسه، حبيبتين إلى فؤاده:

(أ) نشر الديانة التي بشر بها (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولون: لا إله إلا الله. محمد رسول الله).[(١٧٨)]

(ب) إقامة الدولة التي مهد لها أجداده: قصيّ، هاشم، عبد المطلب.

لقي المسلمون في حنين في أول المعركة هزيمة نكراء كما حدث في أُحد لولا شجاعة (الشديد) ونفر قليل معه وثباتهم البطولي وعدم فرارهم

---

(١٧٨) رواه مسلم في صحيحه.

كما فعل كثير من الصحاب فـَ (لما انهزمت هوازن عسكروا بـِ أوطاس عسكراً عظيماً).(١٧٩)

وغنموا مغانم جزيلة حتى إن عدداً من المؤرخين والإخباريين ومصنفي كتب السيرة المحمدية المعطاءة لـِ كل خير يذهب إلى أنهم لم يحظوا بـِ مثلها في أي غزوة أو سرية ومن بينها سبايا كثيرات من نسوان وفتيان وصبايا قبيلة هوازن وإذ إن (المكيّ المكيْن) أدرى بـِ نفسيات تبعه فقد وزّع عليهم أنصبتهم على الفور وفي ذات الموقع وكأنما يحدّث نفسه (لم خرجوا معي إذن؟) وعلى الرغم من أنهم في بديّ المعركة انكشفوا انكشافاً مريعاً وولوا الأدبار ومنحوا عدوهم أكتافهم وظهورهم وأمعنوا في الهروب حتى إن أبا سفيان بن حرب قال متهكماً عليهم (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر).(١٨٠)

وفاز عدد وفير من الصحبة كل منهم بـِ واحدة أو اثنتين من السبايا الوضيئات فـ تلمّظت شفاهم ولم ينتظروا حتى يصلوا بهن إلى يثرب مع أن المسافة قصيرة وعزموا النية وعقدوا الخناصر وأجمعوا الأمر على مفاخذتهن غِبّ تسلمهن بيد أن أولئك السبايا أبديْن قدراً من المكر وشطراً من المخادعة ونصيباً من المخاتلة، فـَ كلما اقترب صاحب من واحدة منهن أخبرته أنها ذات بعل فـَ عكّرن عليهم مزاجهم وأذهبن بهجتهم وأطفأن شعلة فرحهم لأن معناه الانتظار حتى تحيض ولو حَيْضة واحدة وهي (حيْضة الاستبراء) أي خلو الرحم من أي شيء علق به حتى يغدو الولد ابن الصاحب حقيقة لا فرضاً.

إزاء ذلك وقع الأتباع في حَاص بَاص فـَ إما أن يعتلوهن وفي هذا مخاطرة لـِ نسبة الولد إليهم وإما أن يتريثوا حتى تحيض المملوكة وهم لا طاقة بهم على الانتظار ولا استعداد لديهم لـِ اللبْث ولا صبر عندهم على المُكْث.

فـَ ماذا يفعلون إزاء هذه المشكلة التي أهمتهم وأرقتهم وأقضت مضاجعهم؟

* * *

---

(١٧٩) (المغازى) لـ الواقدي ــ الثالث ــ ص ٩١٥ ــ.
(١٨٠) ذات المصدر ص ٩١٠.

ليس أمامهم إلا باب (العالِم) كيما يلوذوا بـِ جنابه ويقفوا على أعتابه ويطرقوا أبوابه:

(روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا سبايا من سَبيْ أوطاس لهن أزواج فـَ كرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج فـَ سألنا النبي ــ ص ــ).[١٨٣]

الحديث ورد في أربعة من كتب الصحاح الستة وفي مقدمتها صحيح مسلم المُصلى (التالي) لـِ صحيح البخاري.

كما أن راوي الحديث أبو سعيد الخدري ذكر أن السبايا ذوات بعول حقيقة لا مجرد ادعاء منهن.

وجاء به الواحدي في (الأسباب) بـِ رواية الخُدري أيضاً.[١٨٢]

وذكره الأزهري في (المقبول) بذات رواية السيوطي التي نسخناها قبل سطور وأضاف الآتي:

(إسناده صحيح ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه وأحمد في المسند وأبو يعلي في مسنده والبيهقي في السنن والطبري في التفسير والسيوطي في الدر المنثور ونسبه أيضا (= السيوطي لا الأزهري) لـِ الفريابي وعبد الرازق والطيالسي وعبد بن حميد).[١٨٣]

لكن المصنف الأزهري رقم معلومة على درجة عميقة من الأهمية وهي أن مُسلماً في الصحيح أورده في كتاب الرضاع باب = جواز وطء السَبيّة بعد الاستبراء.[١٨٤] أي أن استبراء رحم الجارية أو المملوكة أو الأمة شرط لامتطائها.

ومن المفسرين القدامى أو السلف القاضي البيضاوي

لـِ قول أبي سعيد أصبنا يوم أوطاس سبياً ولهن أزواج فـَ كرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبي ــ ص.[١٨٥]

ومن المحدثين = عبد الحميد كشك إذ أورد الخبر ذاته بحروفه.[١٨٦]

---

(١٨١) (لباب النقول) لـِ السيوطي ــ ص ٥٠ مصدر سابق.
(١٨٢) (أسباب النزول) ص ٩٨ مصدر سابق.
(١٨٣) (المقبول) للأزهري ص ٢٠٦.
(١٨٤) ذات المرجع والصفحة.
(١٨٥) (تفسير البيضاوي) ص ١٠٨ مصدر سابق.
(١٨٦) (في رحاب التفسير) لـِ عبد الحميد كشك ــ الخامس ص ٨٧٨ مرجع سابق.

ونذكّر القارئ بما سبق أن أسلفناه في المقدام أن المحدثين يتعكزون على السلف ويأخذون بِ مقولاتهم دون إضافة أو تعليق أو تفنيد.

ثم نختم بِ عمدة مؤرخي الغزوات:

وأصاب المسلمون يومئذ سبايا فَ كانوا يكرهون أن يقعوا عليهن ولهن أزواج فَ سألوا النبي ــ ص ــ.[١٨٧]

* * *

بعد أن أمّ التبع مُلاّك السبي (أكرم خلق الله) يسألونه حلاً لِ هذه المعضلة التي أهمتهم وأكربتهم وأزمّتهم وهو ينقه موقعها في نفوسهم أمسى الموقف دقيقاً، فَ من ناحية هناك (حيضة الاستبراء) التي يتعين عليهم أن ينتظروها ومن رجا آخر هو يعلم مدى لهفتهم على مسّ السبايا أو الصبايا الوضيئات، فَ إذا أباح لهم الوطء جاء ذلك مخالفاً لِ قاعدة مستقرة هم يعرفونها والواجب عليهم أن يُذعنوا لها وألا يطلبوا مخرجاً من هذه الزنقة. وإذا أمرهم بِ التربص أصابهم أمره بِ النكد إذ حال بينهم وبين المتعة التي يلهثون وراءها وهو من عُمق الحصافة وسعة الأفق ونفاذ البصيرة بحيث يدرك أن إدخال الغم على صدورهم لا يعد من حسن السياسة.

وهنا يقتحم (البصائر/ القرآن) دائرة الأزمة ويحاصرها ويطوّقها ويقضي عليها:

فَ أنزل الله (والمحصنات من النساء إلاّ ما ملكت أيمانكم) الآية الرابعة والعشرون من سورة النساء.[١٨٨]

وفي تفسير البيضاوي (فاستحللناهن وإياه عَنَى الفرزدق بقوله: وذات حليل أنكحتها رماحنا: حلال لمن يبني لم تطلّق).[١٨٩]

وفي (المقبول): (يعني السبية من المشركين: تصاب لا بأس بذلك).[١٩٠]

وأيضاً (فَ استحللناهن).[١٩١]

---

(١٨٧) (المغازى) لِ الواقدي/ الثالث/ ص ٩١٩ مصدر سبق لنا إثباته.
(١٨٨) (المغازى) لِ الواقدى/ الثالث/ ص ٩١٩.
(١٨٩) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمّى تفسير البيضاوي) ص ١٨٠، مصدر سابق ــ وكذلك في أسباب النزول) للواحدي ــ ص ٩٨ ــ مصدر سابق.
(١٩٠) المقبول في أسباب النزول) ل أبي عمر نادي الأزهري ص ٢٠٧.
(١٩١) (في رحاب التفسير) لِ عبد الحميد كشك ــ ص ٨٧٨.

ويبدو أن البعض منهم تحرّج وربما دفعه لذلك خشيته أن السبيّة قد علقت من زوجهـا فَ أخذ يعزل أي يهريق ماءه خارج الرحم فَ سألوا النبي ـ ص ـ يومئذ عن العزل فَ قال: لـيس من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله أن يخلق شيئاً لم يمنعه شيء.[١٩٢]

وبِ هذه الآية الكريمة حُلّت المشكلة وبداهة أن أصحاب السبايا الجميلات عمهـم الفـرح والسرور.

وبها يزيدنا (العلي/ القرآن) حجة أنه دائماً مع (الصبور) لا يدعه طرفة عين وأنه معه في ترحالِه.

* * *

إن من يطالع بِ إمعان السيرة المحمدية التي هي المثل الأعلى لِ كل مسـلم ويقرؤهـا بِ روية ويدرسها بِ عناية يزداد إعجاباً بِ صاحبها لأن صبره فاق صبر أيوب على رذالات عـدد من تابعيه وسخافاتهم وجهالاتهم، ومرده إلى أن مجتمعهم بدائي وبيئتهم متخلفة ووسطهم أمـيّ فَ الحضارة لديهم منعدمة، والمدنية غائبة والثقافة مفتقدة.

وأظهر ما انتصبت فيه بداوتهم وتمثلت فيه حُوشيتهم وبرزت فيه جفاوتهم أسئلتهم السمجة واستفساراتهم السقيمة واستيضاحاتهم المستهجنة واستبياناتهم المرذولة.. الخ.

(عن ابن عباس كان قوم يسألون رسول الله ـ ص ـ استهزاءً فَ يقول الرجل من أبـى؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟..).[١٩٣]

وهكذا ثبتت ركاكة وتفاهة عصبة من صحبه من واقع حديث رواه البخاري في صـحيحه ونقلته لنا عنه مصادر من ذوات الرتب العوالي.

* * *

---

(١٩٢) (المغازي) لِ الواقدي ص ٩١٩ ـ مصدر سابق.
(١٩٣) (لباب النقول) لِ السيوطي ـ ص ٧٨ مصدر سابق، وقال إنه في صحيح البخاري.
و(أسباب النزول) لِ الواحدي النيسابوري ـ ص ١٤١ ـ مرجع سابق وذكر أيضاً أن محمد بن إسماعيل البخاري قد رواه.
و(المقبول) لِ الأزهري ـ ص ٣١٠ مرجع سابق.
وأكد أنه في صحيح البخاري وأضاف أن إسناده صحيح وأن الطبراني رواه في الكبير والطبـري فـي التفسـير والسيوطي في الدر وأنه (السيوطي لا الأزهري) زاد نسبته لِ ابن مردويه وابن أبي حاتم(١٩٥).
و(التسهيل ل علوم التنزيل) لِ ابن جزيّ الكلبي ـ ص ١٨٩ ـ مصدر سابق.

وعدد هؤلاء ليس ضئيلاً أو قميئاً أو قزماً أو نحيفاً بل هو مُفــرطح ومُفرشــح ومبســوط ووسيع.

مما حَثّ (المُتبتّل) على أن يعتلي المنبر وهو غاضب للغايــة ويخطــب ب شــأن هــذه السخافات لدرجة أن العدويّ ابن الخطاب اعتبرها فتنة واستعاذ من شرها:

(روى أنس أنهم سألوا النبي ــ ص ــ فَ أكثروا المسألة فَ قام على المنبر فَ قــال: لا تسألوني عن شيء ما دمت في مقامي هذا إلاّ حدثتكم به، فقام عبد الله بن حُذافة السهمي ــ وكــان يُطعن في نسبه ــ فَ قال يا نبي الله من أبي؟ فَ قال أبوك حذافة بن قيس. وقال سراقة بن مالك، ويروي عكاشة بن محصن يا رسول الله: الحج علينا في كل عام؟ فَ أعرض عنه رســول الله ــ ص ــ حتى أعاد مرتين أو ثلاثا فَ قال ــ ص ــ ويحك وما يؤمّنك أن أقول نعم، والله لو قلــت نعم لوجبت ولو وجبت لتركتم ولو تركتم لكفرتم، فاتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شــيء فَ اجتنبوه. وقام آخر فقال يا رسول الله أين أبي؟ فقال: في النار، ولما اشتد غضب الرســول ــ ص ــ قام عمر وقال: رضينا بالله رباً وبِ الإسلام ديناً وبِ محمد نبياً..).[١٩٤]

(الذكر المُحكم) هل يترك (الحنيف) يعاني هذا المسلك الجانح والفعل المنفلت والتصــرف الخارج عن كل حدود الذوق واللياقة والأدب من أولئك الصحابة الذين بلغت شدة خشالتهم وكثافــة تنطعهم وغزارة زعارتهم مبلغاً دفعه إلى ذروة الغضب وهو مضرب المثل في الحِلم والقدوة فــي الصبر والأسوة في الاحتمال؟

لا شك أن الإجابة سَ تجيء بِ السلب استقراءً من مواقف القرآن العظيم معه فَ أهداه آية كريمة (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم).[١٩٥]

---

(١٩٤) (مفاتيح الغيب) أو (التفسير الكبير) للإمام فخر الدين الرازي ــ المجلد السادس ــ عند تفســيره ل ســورة المائدة ١٦٤ مصدر سابق.

و(المقبول) لِ الأزهري ــ ص ٣١١ وقال عنه إنه صحيح الإسناد أورده ابن جرير الطبري رواه في تفسيره وكذا ابن كثير في تفسيره والسيوطي في الدرّ وأضاف لما رقمه الرازي على لسان العدوى:.. ونعوذ بِ الله من ســورة الفتن.

(١٩٥) الآية الواحدة بعد المائة من سورة المائدة.

وفيها إعلام لهؤلاء النفر السمجاء ولغيرهم بِ الكفّ عن ولوج هذا الدرب. وإذ إنه نَهى جاء به (الفرقان) فَ لا مجال إذن للنقاش فيه أو مخالفته، وبذا استراح (السابق بِ الخيرات) من هذه المشكلة التي بعثت الغيظ إلى ذاته الشريفة وهكذا يتم تدخل (البصائر/ القرآن) في الوقت المناسب لأنه يعاين عن كثب كافة شئونه وأوضاعه.

* * *

(٦) هاجس الحصول على الغنائم والأنفال والأسلاب هو الذي هيمن على أتباع (الصادق المصدوق) وهم يخرجون بِ معيته الشريفة في الغزوات أو منفردين في السرايا، وهذا ميراث متأصل في نفوسهم من النشأة الباكرة والتربية المتقدمة، ويستحيل عقلاً وواقعاً أن يفارقوه أو يفارقهم في البضع سنوات التي حظوا فيها بِ صحبة (المصطفى) فَ إن سنن الاجتماع ترفضه وتخبرنا عن أن إلف العادة التي ترجع إلى الصبا من أعسر الأمور التخلي عنه (= الإلف).

ومصداقه أن واحداً من أسبق الذين تابعوه على ديانته التي بشّر بها حزن حزناً دفيناً يعادل حزنه على مقتل أخيه لأن (المطاع) رفض أن يعطيه سيف أحد قتلى الأعداء في غزاة بدر الكبرى.

(عن محمد بن عبد الله الثقفي عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير وقُتل سعيد بن العاص وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة فَ أتيت به النبي ـ ص ـ قال: فَ اذهب فَ أطرحه في القبض قال: فَ رجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي...).[١٩٦]

هكذا وَجَدَ هذا الصحابي على فقد سلبه أو حرمانه منه مثل ما وَجِدَ على قتل أخيه، وهذا ينفحنا مؤشراً على أن نفوس هؤلاء أُشربت حَب الغنائم والأسلاب، وتعليله أنها مصدر رئيسي لديهم فَ هم لا يعرفون الصناعة بل ويحتقرون من يزاولها ويسمونه قيْناً أي عبداً، وهناك قبيلة مضاربها قرب أثرب تسمّى بني سليم احترفوا صناعة الأسلحة وبِ الأخص السيوف فتهكم عليهم هؤلاء العَرَبَة وسموهم بِ القيُون أي العُبدان.

---

(١٩٦) (أسباب النزول) لِ الواحدي النيسابوري ـ ص ١٥٥ مصدر سابق.
و(لباب النقول) لِ السيوطي ص ٨٥ وذكر أن أحمد بن حنبل رواه في مسنده.
و(المقبول) الأزهري ص ٥٣٣ ـ مرجع سابق.

وبذات القدر سخروا من الزراعة والزراع وعندما امتهن بنو حنيفة الزراعة تهزّأ هــؤلاء الأعاريب بهم وقالوا عنهم:

سيوفهم مساحيهم.

ولما غزوا العراق والشام ومصر وداسوا بخيــولهم المباركــة أراضــيها واســتعمروها واستوطنوها ونزحوا خيراتها تَعالّوا على أهلها ووســموهم بِ (العْلــوج) لأن عملهــم الأصــيل الزراعة ولم يستحوا أن الأموال الطائلة بِ كافة صنوفها التي كسحوها من هذه البلاد ونقلوها إلى واديهم القفر ال غير ذي زرع هي نتاج جهود وعرق الفلاحين أو (العلوج).

* * *

ثم عود إلى السياق:

لِ خُلو أيدي تبع (الموقر) من أي حرفة أو مهنة ولأن بني سخينة جردوهم مــن أمــوالهم التي درجوا على توظيفها في التجارة. هذا من ناحية المنازيح أما بِ النسبة ل بني قيلة ف شــأنهم ك سائر العرب في اعتبار حب الغنائم وتوابعها بمثابة الغريزة، ل جماعه كله حــدثت خناقــة (= كلمة عربية صحيحة) بين كبار الصحاب وصغارَهم وشِيِبْهم وشَــبَبَتهم عليهــا وفــي أول غــزاة يخرجون فيها.

(روى أن يوم بدر: الشبان قتلوا وأسروا والأشياخ وقفوا مع رسول الله في المصاف ــ فَ قال الشبان:

الغنائم لنا لأننا قتلنا وهزمنا وقال الأشياخ:

كما رِدْءاً لكم ولو انهزمتم لَ انحزتم إلينا فَ لا تذهبوا بِ الغنائم دوننا فوقعت المخاصــمة لِ هذا السبب).[١٩٧]

أما القرطبي فَ يضع بين أيدينا رواية مشابهة أهميتها أن من أدلى بها هــو واحــد مــن المقدمين بين تبع (العُدة/ الذخيرة).

(روى عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ــ ص ــ إلى بدر فَ لقوا العدو فَ لمــا هزمهم الله اتبعتهم طائفة من المسلمين:

وأحدقت طائفة بِ رسول الله ــ ص ــ واستولت طائفة على العسكر والنهب، فَ لما نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم قالوا: لنا النفل، نحن الذين طلبنا العدو وبنــا نفــاهم الله وهــزمهم، وقال الذين أحدقوا بِ رسول

---

(١٩٧) (مفاتيح الغيب) لِ الرازي المجلد السابع ــ ص ٤٣١ ــ مصدر سبق ذكره.

الله ــ ص ــ ما أنتم أحق به منا نحن أحدقنا بِ رسول الله ــ ص ــ لئلا ينال العدو منه، وقال الذين استولوا على العسكر والنهب ما أنتم بِ أحق منا هو لنا نحن حويناه واستولينا عليه[١٩٨].
هكذا حولت الأنفال والغنائم والأسلاب الإخوة المتحابين الرحماء بينهم إلى خصوم ألداء يوشكون أن ينقلبوا إلى أعداء، ونلفت نظر القارئ إلى أن كلمة (نهب) وردت في الخبر مرتين والنهب في معاجم اللغة هو الاستيلاء على الشيء قهراً واغتصاباً وغلبةً).

* * *

وعن السيوطي:

(روى أبو داود والنسائي وابن حبّان والحاكم عن ابن عباس قال: قال النبي ــ ص ــ من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا فأما المشيخة فَ ثبتوا تحت الرايات وأما الشبان فَ سارعوا إلى القتل والغنائم فَ قالت المشيخة لِ الشبان أشركونا معكم فإننا كنا لكم ردْءاً ولو كان منكم شيء لَ لجأتم إلينا فَ اختصموا إلى النبي ــ ص ــ..).[١٩٩]

هكذا الحديث رواه أبو داود والنسائي وهما من أصحاب الصحاح الستة وكذا الحاكم في (المستدرك) وهو من دواوين السنة المحمدية المعتبرة وقد جاء به ذكر الاختصام صراحة.

كما أورده أبو عمر الأزهري في (المقبول) وأضاف في أسانيد الحديث المذكور بِ خلاف ما رقمه السيوطي:

صَحّحه الحاكم وأقره الذهبي وأورده البيهقي في الدلائل وابن أبي شيبة في المصنف والطبري في تفسيره (قال الشيخ شاكر في عمدة التفسير:

---

(١٩٨) (الجامع لأحكام القرآن أو تفسير القرطبي) لِ القرطبي المجلد الرابع ص ٢٧٩٦ ــ مصدر سابق.
و(مرويات غزوة بدر) جمع ودراسة وتحقيق أحمد محمد العليمي باوزير ــ ص ص ٢٧٨ ــ ٢٧٩ ــ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ــ مكتبة طيبة ــ المدينة المنورة ــ المملكة العربية السعودية.
وهو رسالة نال بها المحقق درجة الماجستير من شعبة السُنّة بِ الدراسات العليا بِ الجامعة الإسلامية بِ المدينة المنورة ــ هذا الحديث في مسند الإمام أحمد وفي هامش ص ٢٧٩:
قال البناء في تعليقه على الحديث في الفتح الرباني ١٤/ ٧٣، قال الترمذي هذا حديث صحيح ثم قال وأورده الهيثمي وقال رجال أحمد ثقات ثم قال: أورده الحاكم في المستدرك وصححه وأقره الذهبي ــ وبذلك يغدو هذا الحديث صحيحاً بعيداً عن المطاعن.
(١٩٩) (لباب النقول) لِ السيوطي ــ ص ٨٥ مصدر سابق.

رواه الطبري بِ ثلاثة أسانيد صحاح إلى ابن عباس، وكذا زاد ابن كثير نسبته في تفسيره لِ ابن مردويه).

وذكر الأزهري أن إسناده صحيح.[٢٠٠]

* * *

هكذا أمسى اختصام بل عراك الصحابة على الغنائم حقيقة تاريخية موثقة لا يماري فيها إلاّ لجوج ولا يجادل بِ شأنها إلا خصيم ولا يحاج فيها إلا شكِس.

بعد هذا أصبح (اللبيب) بغير شك ضيق الصدر من تخاصمهم الذي أوضحته لنا هذه الأخبار الصحيحة بيد أن القرآن المجيد لا يذره يعاني هذه الحُروجة فَ تقبل آية كريمة هي الأولى من سورة الأنفال:

(يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين).

وهكذا فُضّ الاشتباك بين تابعيه وارتفع عن صدره الكريم الضيِّق وقسمها عن بَواءٍ أيْ عن مساواة ورضى المتنازعون، وكيف لا يفعلون والتقسيم جاءت به آية صريحة أمرتهم بالتقوى وإصلاح ذات البين وبِ طاعة (المشير) وعلقتها على الإيمان وقرنتها بِ طاعة الله جل جلاله.

(فَ بِ مجرد أنَ نزل الوحي بِ إرجاع ذلك إلى الله ورسوله سلّموا الأمر وانقادوا للحق وأطاعوا الله ورسوله ــ ص ــ).[٢٠١]

وبذا على الدوام يثبت القرآن العظيم أنه مع (المُخبِت) لا يغفل عنه طرفة عين ويؤكد لنا في كل حين الحكمة من إشراقه منجّماً.

* * *

(٧) ترك اليهود أثراً «غائراً» في بني قيلة بِ اعتبار أنهم أصحاب إسطير مقدس هو أقدمها جميعاً (أخرج أبو داود والحاكم عن ابن عباس أنما كان أهل هذا الحي من الأنصار (وهم أهل وثنٍ) مع هذا الحي من يهود (وهم أهل كتاب) كانوا يرون فضلاً عليهم في العلم فَ كانوا يقتدون

---

(٢٠٠) (المقبول) لِ أبي عمر نادي الأزهري هامش ص ٣٣٦ ــ مرجع سابق.
(٢٠١) (مرويات غزوة بدر) أحمد باوزير ص ٢٧٣ ــ مرجع سابق.

بِ كثير من فعلهم).[٢٠٢]

وقد رقمنا من قبل ما نقشه منهم الأثاربة رجالهم ونِسْوَنهم في مسألة طريقة الجِماع.

ولما وصل المنازيح إلى قرية الحرتين صار من الطبيعي أو البديهي أن تَـزْرِب إليهم عدوى التأثر بِ أولاد الأفاعي مباشرة أو عن طريق إخوانهم أعراب قرية ما بين الحرتين.

من بين ما اشتهر عن أولاد يعقوب موقفهم من المَرَة الحائض. فَ هم لا يؤاكلونها بل ولا يجمعها بهم بيت واحد ولا شك أن الأوس والخزرج فعلوه ووصل خبره إلى المنازيح وجلهم من بني سخينة (قريش) فَ حاك في صدورهم لأنهم حتى ذياك الحين نظرتهم إلى بني إسرائيل لم تتغير خاصة من ناحية احتيازهم لِ كتاب مقدس وفيهم علماء دين وعليه نص الذكر الحكيم (أوَلَم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل).[٢٠٣]

ونشد الانتباه إلى ملحظ وفير الأهمية هو أنه لم يصف رجال دين بِ (علماء) إلاّ هم بل لم يذكر هذا اللفظ فيه كرةً أخرى.

والذي خَرَبَش نفسية النَزَحَة ليس هو عدم المؤاكلة فَ هذا مألوف لديهم حتى وهي طاهرة.[٢٠٤] إنما عزْل المَرة في مكان منفصل. لماذا؟

لأنهم خاصة بني سخينة لا بد أن يعافسوا زوجاتهم حتى وهن حُيّض بِ أن تُحْكِم إزارها على منبع الدم ويباشر ما دونه: ما فوقه وما تحته وربما يرى بعضهم أنه لا بأس من المفاخذة التامة.

إذن هذا الخطر أزعجهم وهذا القيد أربكهم وهذا النهي ضيّق عليهم، كيف لا وهو سوف يحرمهم من القيام بِ الطقس الذي يؤدونه ولو جزئياً، ويمارسونه ولو ناقصاً ويقومون به ولو مُخَدّجاً.

* * *

---

(٢٠٢) (لباب النقول) لِ السيوطي ص ٢١ ــ مصدر سابق.

(٢٠٣) (الآية السابعة والتسعون بعد المائة من سورة الشعراء).

(٢٠٤) العربة عندما غزوا مصر واستعمروها واستوطنوها واستنزفوا خيراتها أتوا معهم بِ هذه العادة الحضارية الرائعة حتى إنها ما زالت مهيمنة في المناطق التي احتلوها مثل الصعيد رغم مضى أربعة عشر قرناً مع أن المصري القديم لم يعرفها طوال تاريخه الطويل، ربما لأنه (= المصري القديم) أخفض منهم درجة في سلم المدينة ا.هـ!!

إذن ما المخرج؟

ليس أمامهم إلا أن يهرعوا إلى (المستجيب) يسألونه حلاً.. وبذا قبّت مشكلة: إذا خالف يهودا، ربما تأولوه أنه مناكفة لخطة الموادة والملاينة التي شرع ينفذها كما سبق أن أوضحنا، وإن وافقهم حرم تبعه من عادة شبوا عليها، ويجدون فيها متعة بل هي الوحيدة التي لهم إذ ليس لديهم أنشطة ثقافية أو فنية أو أدبية.

وهنا يأتي (المهيمن/ القرآن) بِ الحل:

(أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم عن أنس ــ رض ــ أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت. فَ سُئل رسول الله عن ذلك..

فأنزل الله الآية (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فَاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن): وهي الثانية والعشرون بعد المائتين من سورة البقرة.

فَ قال رسول الله ــ ص ــ: (جامعوهن في البيوت واصنعوا كل شيء إلا النكاح)[٢٠٥] والحديث أورده أربعة من أصحاب الصحاح الستة، بالإضافة إلى أحمد بن حنبل مما يقطع بِ صحته.

وأتى به عبد الله شحاتة في تفسيره بِ رواية أنس بن مالك أيضاً نقلاً عن مسلم وأحمد أبي داود وأضاف: (وغيرهم).[٢٠٦]

ومما يثبت وجهة نظرنا أن سؤال التبع انصب على مقطع محدد وهو معرفة الاقتراب من المَرَة ولاتهم المؤاكلة والمشاربة أنّ الآية الكريمة خلت مما يخص غيره (= الاقتراب) وما بيّنه (الهادي) من إباحة كل شيء إلا الجماع ولعل مما يوثقها (= وجهة نظرنا) ما حمله (تفسير الألوسي) عند تناوله ل آية (فَ اعتزلوا النساء في المحيض):

وان اختاره الإمام وقال: ان المعنى اعتزلوا مواضع الحيض.[٢٠٧]

* * *

(٢٠٥) (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى) المعروف بِ (تفسير الألوسي) لِ أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، تحقيق محمود الشرقاوي الجزء الثاني ــ ص ١٨١ ــ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ــ كتاب الشعب الديني ــ دار الشعب بِ مصر.
(٢٠٦) (تفسير القرآن الكريم) لِ عبد الله شحاتة الجزء الثاني ص ٣٥٣ ــ ــ مرجع سابق.
(٢٠٧) (المصدر ذاته ــ ص ١٨٣.

في (التفسير الوسيط):

جاء أن سبب النزول هو ما ورد بـِ الحديث الذي نسخه الألوسي وبـِ ذات الإسناد: مسلم وأحمد أبو داود.

بهن (المقصود بـِ اعتزالهن في المحيض هو تجنب الاتصال الجنسي).[٢٠٨]

ونضع تحت باصرة القارئ اللوذعى الفطن عبارة (واللمس ونحو ذلك) وهي حجة تنضم إلى ما سبقها على صحة ما ارتأيناه.

وإن المرء يتولاه العجب من أولئك العربان الذين لا يتوقفون عن إشباع غريزتهم حتى ولو أن الزوجة غريقة في طوفان دماء الحيض لا يعتقونها.[٢٠٩]

* * *

ساعتئذ حَلّت هذه الآية الكريمة التي نفحها (الحق/ المحكم) لـِ (فضل الله) ـ المشكلة التي أصابت الصحبة بـِ السُهد وضربتهم بـِ الأرَق وألزمتهم السهر، ولا شك أنهم بعد سماعهم إياها منه تنفسوا الصعداء وعادوا إلى زوجاتهم البائسات يصنعون معهن كل شيء إلا النكاح وما أكرم (المعصوم) كيف صبر على كل هذه الخُشالات التي لا يكاد يمضي يوم إلا ويصدمونه بها سواء في حِلّهم أو ترحالهم. ولا شك أنه لم يكف عن حمد الله على أن الذكر الحكيم يلازمه كـَ ظله في عَدَنه وظعنه وأنه انبثق نجوماص لـِ يواكب تعاريج واقعه.

٨ ـ أوضحنا فيما سلف الظروف البيئية والاجتماعية التي دفعت أولئك العربان لـِ احتراف التجارة وبـِ المثل الكِراء (= الأجرة سواء للدور أو الدواب) ولم ينقطعوا عن ممارستها حتى في المواسم الدينية التي جعلت أساساً لـِ الذكر والعبادة، فـَ لما جاء الإسلام أسقط في أياديهم المتربحة ولم يدروا ماذا يفعلون وكـَ العادة ليس أمامهم إلا (الموقن) فـَ أرْقلوا إليه مستفسرين:

---

(٢٠٨) (التفسير الوسيط لـِ القرآن الكريم) تأليف لجنة من العلماء/ إشراف مجمع البحوث الإسلامية الحزب الرابع ـ ص ـ ٣٦٣ وما بعدها ـ الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م من إصدارات مجمع البحوث الإسلامية ـ الأزهر/ مصر.

(٢٠٩) الواحدي في (أسباب النزول) ـ ص ـ ٤٦. السيوطي في (لباب النقول) ـ ص ـ ٣٠.
أبي عمر نادي الأزهري (المقبول) ص ـ ص ١٢٥/ ١٢٦.

(روى البخاري عن ابن عباس قال: كانت عكاظ ومجَنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية فتأثموا أن يتجّروا في الموسم فـَ سألوا رسول الله ــ ص ــ عن ذلك فـ نزلت (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) في مواسم الحج، وهي الآية الثامنة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة.[٢١٠]

وعكاظ وذو المجاز ومَجَنّة أسواق دأبوا على إقامتها على هامش موسم الحج وبـِ مناسبته.

ويقول ابن جزيّ الكلبيّ (فضلاً من ربكم) (التجارة في أيام الحج أباحها الله تعالى) ويضيف معلومه في غاية الأهمية (وقرأ ابن عباس: (فضلاً من ربكم في مواسم الحج).[٢١١]

فـَ قراءة حَبْر الأمة عبد الله بن عباس تؤكد إباحة الاتجار في الحج. ويذكر أبو الحسن الواحدي أن الآية الكريمة إنما أشرقت لـِ: دفع الحرج عنهم إذ يتجرون في موسم الحج.

عن ابن عباس قال: كان ذو المجاز وعكاظ متجر ناس في الجاهلية فـَ لما جاء الإسلام كرهوا ذلك حتى نزلت: ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ــ في موسم الحج.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة في الحج يقولون أيام ذكر لله فـَ أنزل الله تعالى الآية فـَ اتجَرُوا).[٢١٢]

أي حَاك في صدورهم قلق بـِ شأن بيوعهم ومتاجرهم في مواسم الحج فإما أن ينقطعوا أي يكفوا عنها وفيه خسارة لهم ومفارقة لـِ إلفهم وإما أن ينصرفوا لـِ ذكر الله في الموسم الديني الكبير كما يحضهم عليه الإسلام فـَ لجأوا إلى (الكريم) علّهم يجدون لديه الحل.

والعدويّ ابن الخطاب يوثق أن البيع والشراء هما العمود الفِقَرى لـِ خَوَلِهم عن أبي صالح مولى عمر، قال: قلت يا أمير المؤمنين كنتم تتجرون في الحج قال: وهل كانت معايشهم إلا في الحج.[٢١٣]

ونلفى توثيق حديث ابن عباس عند صاحب (المقبول) فيذكر:

---

(٢١٠) (لباب النقول) لـِ السيوطي ــ ٢٧.
(٢١١) (كتاب التسهيل لـِ علوم التنزيل) لـ ابن جزيّ الكلبيّ ص ٧٥ ــ من الجزء الأول ــ مصدر سابق.
(٢١٢) (أسباب النزول) لـِ الواحدي/ ص ٢٨.
(٢١٣) (التيسير خلاصة تفسير ابن كثير) بقلم محمود محمد سالم ص ٩٠، سابق.

(أخرجه البخاري (في صحيحه) في كتابيّ الحج والتفسير وأخرجه الحاكم بِ نحوه وصححه وأقره الذهبي وأورده ابن جرير في تفسيره، أما المصنف ذاته فَ وصفه بِ أنه صحيح).[٢١٤]

ويذكر عبد الله شحاته في تفسيره أن الحديث رواه البخاري عن ابن عباس وعبد الرازق (= في مصنفه) وسعيد بن منصور وأن هناك حديثاً مماثلاً في ذات الموضوع رواه أبو داود وغيره عن ابن عباس.[٢١٥]

وهكذا بلغ هذا الحديث درجة من الصحة بحيث يمتنع على المُقسط العادل الذي يبتغي وجه الحق أن يماري فيه.

* * *

أولئك العَرَبَة يجري في دمائهم التعيش من الدخول الريعية التي تأتي دون بذل أي مجهود وقد رأينا فيما سلف كيف أنهم ارتكزوا في معايشهم على عرق العُبْدان بل وعلى ما تدره أفخاذ جواريهم دون أن يشعروا فيه بِ أي معرّة أو مَنْقصة أو إخلال بِ الرجولة أو خدش لِ الفحالة أو مساس بِ الكرامة.

ومن بين الموارد الريعية كِراء (= تأجير) دورهم ودوابهم للحجاج.

أخرج أبو داوود والإمام أحمد والحاكم وغيرهم عن أبي أمامة التيمي قال:

كنت رجلاً أكرى من هذا الوجه وكان أناس يقولون لي إنه ليس لك حج فَ لقيت ابن عمر، فَ قلت: يا أبا عبد الرحمن أكري في هذا الوجه وإن ناساً يقولون لي ليس لك حج.

فَ قال: ألست تُحرم وتُلَبّي وتطوف وتُفيض من عرفات وترمي الجِمار؟

قال: قلت: بلى، قال فَ إن لك حجاً.

رجل أتى رسول الله ــ ص ــ فسأله عن مثل ما سألتني عنه، فَ سكت عنه رسول الله ــ ص ــ فَ لم يجبه حتى نزلت هذه الآية..

فأرسل إليه رسول الله ــ ص ــ وقرأ هذه الآية وقال: لك حج.[٢١٦]

---

(٢١٤) (المقبول) لِ أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ١٠٨/ مرجع سابق.
ونضيف أن ابن كثير أورده في تفسيره. (التيسير) ص ٩٠ سابق.
(٢١٥) (تفسير القرآن الكريم) تأليف عبد الله شحاتة ــ ص ــ ٢٠٣ الجزء الثالث ــ مرجع سابق.
(٢١٦) (المقبول) لِ الشيخ أبي عمر نادى الأزهري ص ــ ص ١١٠/ ١١١. سابق.

ويهمنا أن يتيقظ القارئ لِ العبارة التي ضمّها الحديث (فَ سكت عنه رسول الله ــ ص ــ فَ لم يجبه حتى نزلت الآية).

وممن ذكر الكِراء في الحج ابن عطية الغرناطي في تفسيره (قال ابن عمر فيمن أكــرى لِ يحج: حج تام ولا حرج عليه في ابتغاء الكِراء).(٢١٧)

وينفحنا الغرناطي بِ مُعطى شديد الخطر وقرأ ابن عباس وابن مسعود وابن الزبير (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج).(٢١٨)

وأورد الزمخشري في كشافه (وقرأ ابن عباس ــ رض ــ فضلاً من ربكم فــي مواســم الحج).(٢١٩)

وقد نسخنا فيما تقدم ما رقمه مفسرون آخرون خلاف الزمخشري وابــن عطيــة ــ عــن قراءة ابن عباس للآية بِ إضافة (في مواسم الحج) ومع ذلك جاء المصحف العثماني خُلْوا منها.

عسى حَبْر الأمة ابن عباس اعتمد في تلاوتها أو قراءتها على القرآن العظيم الذي كَنّه في صدره.

ربما طرحناه في هذه الفاصلة يثبت أن الكِراء أيضاً يتضام مع البيع والشــراء كَ نشــاط اقتصادي لم يتوقف غالبيتهم عن مزاولته ومن بينهم عدد من كبار الصحبة ومتقدميهم ومتنفــذيهم كما اعترف بذلك العدويّ دون مواربة أو لف أو دوران: (عن عمر ــ رض ــ أنه قيل له: هــل كنتم تكرهون التجارة في الحج فَ قال: وهل كانت معايشنا إلاّ من التجارة في الحج).(٢٢٠)

ولنلاحظ أن ابن الخطاب جاءت إجاباته بِ الجمع (معايشنا) مما يشــى بِ هيمنــة ذيــاك المنزع على جُلّهم، يضاف إليه ما عرف عن بني سخينة حبهم لِ التجارة.

* * *

---

(٢١٧) (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لِ أبي محمد عبد الحق بن عطية الغرنــاطي ــ ٤٨١هـ/ ٥٤١هـ تحقيق وتعليق أحمد صادق الملاح ــ الجزء الأول ص ٥٥ ــ الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م ــ لجنة القــرآن والسنة/ ب المجلس الأعلى لِ الشئون الإسلامية/ مصر.

(٢١٨) (المصدر ذاته والصفحة نفسها).

(٢١٩) (الكشاف) لِ الزمخشري ــ المجلد الأول ص ــ مصدر سابق لنا أن ذكرناه.

(٢٢٠) المصدر ذاته والصفحة نفسها.

من جماع ما سبق نقول تحدد الموقف في هذه المشكلة كَ الآتي:

الصحاب ومن بينهم مرازبة جحاجح صناديد يتكسبون مكاسب جزيلة من التجار والكِراء في مواسم الحج وهذا ما ألفوه قبل أن يدخلوا الإسلام. والحج شرع للعبادة وذكر الله والتبتل والقيام بِ المناسك وهذا ما نص عليه (التذكرة/ المُحكم) صراحة.

ومن ثم فَ عندما سألوا (اللبيب) أطبقت الأحاديث على أنه توقف ولم يجبهم على الفور، لأنه لو نهاهم لَ أحزنهم ذلك لِ حرمانهم مما يدخل جيوشهم الوسيعة من مال شبّوا منذ نعومة أظافرهم على احتيازه. وبوده ألا يدخل على قلوبهم غماً ولا يملأ صدورهم هماً ولا يشحن نفوسهم بِ الأسى فهم جنوده الأوفياء وأعوانه الخلص وتبعه المناصرون له وعدته في نشر الديانة التي يشيعها والدولة التي يُعلي بنياتها.

ومن رجا آخر فَ إن الحج وتوابعه مواسم دينية سُداها الذكر والدعاء والتضرع.. الخ ولُحمتها التجرد من مشاغل الدنيا.

بيد أن الذكر الحكيم لم يترك (أذن خير) يتوقف طويلاً فَ سرعان ما بزغت الآية التي نسخناها قبل وهي الثامنة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة أخبرت الصحابة التجار أو التجار الصحابة وسائر المسلمين من بعدهم ألا إثم عليكم في البيع والشراء والكِراء في مواسم الحج فانفرجت أساريرهم وطابت نفوسهم وقرّت عيونهم فَ باعوا واشتروا وربحوا وزاطوا.

وفي كل مرة يقدّم لنا البرهان تلو الآخر على أنه (= الذكر الحكيم) يأخذ بِ حجْزته ولا يدعه نهباً للحيرة وأن قدومه (القرآن المجيد) نجوماً مثل غاية الحكمة التي خفيت على اليهود الذين اعتبروها منقصة لأن توراتهم أقبلت دفعة واحدة كاملة تامة، وكذلك خفيت على كفار مكة الذين اعتقدوا ـ لِ جهلهم ـ أن البطاركة الكوامل لا بد أن يأتوا بِ كتبهم لِ أقوامهم وهي مستوفاة وجاهزة وعلى سنجة عشرة[٢٢١] وإنه (= البلاغ/ المطهر) أقام علاقة جدلية مع الواقع المعاش.

---

(٢٢١) سنجة عشرة: سبق لنا شرحها.

* * *

وبِ هذه الواقعة نكتفي بِ ضرب أو تقديم الأمثلة التي توثّق بِ أن هناك شطراً وسيعاً من الآيات الكريمة من القرآن الحكيم طلعت مشرقة لكَ أجمل ما يهلّ الإشراق، متلألئة لكَ أحسن ما يبرق التلألؤ وأقبلت وضيئة لكَ أبهى ما تتحقق الوضاءة تلبية لِ رغبة (المصطفى) إما عن تشوّف وإما عن توقع وإما عن تربص.. وسرعان ما تناصره وتؤازره أو تنافح عنه وفي ذات الوقت تضع في حجر الفطِن النقِه اللوذعى الحُجّة الساطعة والبرهان القاطع والدليل الدامغ على أنها (= الآيات) وشيجة الصلة بِ الواقع المعاش لا تفاصله وبِ الحياة اليومية لا تفارقها وبِ أنشطة الدائبيْن (الليل والنهار) لا تباينها وهو سر انبثاقها نجوماً متفرقة.

الفصل الثاني

آيات ظهرت تلبية لرجاوات تبعه

[١]

اتسمت نظرة أولئك العربان لِ المرة بِ الدونية تمثلت في أمور عديدة منها حرمانها من الميراث لأنها لا تشارك في غزوات النهب والسلب ولا طاقة لها بِ الدفاع عن حِمى القبيلة (ولو أن هذه المسألة تحتاج إلى دراسة أعمق ا.هـ) وكذلك في سهولة فصم عروة الزوجية التي من المفروض أن لها قدراً من القدسية.

ومن بين صور مفارقة الزوجة عندهم (الظهار) وهو أن يقول الواحد منهم لِ حليلته أنت عَلَيّ كَ ظهر أمي فَ تُعدّ طالقاً لأنه كما لا يحل له أن يعتلي أمه كذلك بِ تلك الجملة الفلوت غدت زوجته محرمة عليه ولا يحق له أن يمتطيها.

أوس بن الصامت وهو أثربي وأخو عبادة بن الصامت من مشاهيرهم بعد أن استمرت الزوجية بينه وبين مبعولته خولة بنت ثعلة وتفانت في خدمته وخلفت له أولادا وبدأت التجاعيد تظهر في وجهها والشَمَط (اختلاط البياض والسواد ا.هـ) يعلو شعرها والوهن يدب في مفاصلها قرر أن يتخلص منها كيما ينكح جارية (صبية) نضرة يمتع بها مذاكيره فَ بِ منتهى الاستهتار نادى على خولة التي أسرعت تلبي فقال لها: أنت عليّ كَ ظهر أمي. صُدمت الزوجة البائسة فَ لم تتوقع أن يجازيها هذا الصامت جزاء سنمّار ويطلقها دون جريرة إلاّ الإخلاص له والتفاني في خدمته وولده.. وفكرت في هذه النازلة التي حطت على يافوخها دون توقع فَ لم تجد إلا أن تفزع إلى (المرحمة) وقصّت عليه عبث زوجها واستهانته بِ أقدس علاقة تقوم بين اثنين ومن عمق أساها وغزارة بثها وشدة حزنها

نطقت بكلام بليغ أوضح دفين ألمها وشفّ عن مكنون نفسها ورفع الستر عن خبئ إحساسها: (يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع له ولدي ظاهر منى).[1]

ويتحفنا الفخر الرازي ب رواية أخرى:

فَ ظاهر منها ف أتت رسول الله ــ ص ــ وقال إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ، لما خلت سني وكثر ولدي جعلني كَ ظهر أمه وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا..[2]

في هذا الحديث أوضحت الزوجة المغلوبة على أمرها العلة في الظهار وهي أنها وقت شبابها والرغبة فيها استبقاها حتى شاب رأسها وكبرت سنها وغدت ذات أولاد ومن ثم لم تعد لديها الإمكانات التي بها تعطيه المتعة ففارقها بِ عبارة من أربع كلمات لكي ينكح فتاة بَرْهَرَة تمنحه ما يرغب.

* * *

وهكذا يُثبت هؤلاء العَرَبَة أن هاجس المعافسة أو الملامسة هو الذي يملأ أدمغتهم العريّة من العلم، المليطة من الفكر، الخالية من الثقافة.

بعض المفسرين القدامى من جوقة المداحين والطبالين الذين يريدون أن يرفعوا الصحب فوق مستوى البشرية وأعلى من مقام الإنسانية وأنهم في درجة أقرب إلى الملائكة وأن الغرائز والعواطف والنوازع.. الخ يستحيل عليها أن تقترب منهم، نقول البعض من أولئك نفى عن هذا الأوس الباعث الحثيث الذي دفعه للظهار من بعلته ووصفه بأن عنده لَمَمَاً أي مسّاً خفيفاً من الجنون أو عدم اتزان وتقدير للأمور على وجهها الصحيح، بيد

---

(١)(أسباب النزول) لِ الواحدي ــ ص ــ مصدر سابق.
و(لباب النقول) لِ السيوطي ص ١٦٤ ــ مصدر سابق.
و(المقبول) لِ أبي عمر نادى الأزهري ص ــ ٦٣٩.
ووصفه المصنف بِ أن إسناده صحيح وذكر أنه ورد في مسند أحمد وفي المستدرك لِ الحاكم النيسابوري وصححه وأقره الذهبي، والبيهقي في سننه.
وقال الحافظ (ابن حجر العسقلاني) في الفتح (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).
هذا أصح ما ورد في قصة المجادلة وتسميتها ا.هـ)
وهكذا حاز الحديث رتبة منيفة في الصحة.
(٢) (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير) لِ الإمام فخر الدين الرازي ــ الجزء الثلاثون ــ المجلد الخامس عشر ــ ص ٤١٩.

أن الإمام فخر الدين الرازي أوضح أن اللَمَم الذي هيمن عليه ودفعه لأن يظاهر من زوجته العجوز بأنه (الإلمام بِ النساء وشدة الحرص والتوقان إليهن).[٣]

ونأمل أن يتفرّس القارئ في العبارات التي أوردها الفخر في وصف ذاك الصامت في ناحية ولعه بالنِسْوَن لأنه يُعتبر نموذجاً لِ أولئك الأعاريب في هذا المجال، وتكمله القصة أن خولة اشتكت زوجها و(أنه ــ ص ــ قال لها ما عندي في أمرك شيء).[٤]

لكن (مأدبة الله) يستجيب لِ شكاية خولة على الفور لا على التراخي:

(قالت عائشة فَ ما برحت «خولة» حتى نزل جبريل ــ س ــ بِ الآيات).[٥]

وهكذا جاءت الآيات الكريمة بِ الحل فَ بعد عَدّ الظهار لديهم من أشد صور الطلاق (قبل الإسلام) لأنه في التحريم أوكد ما يمكن، أصبح بعد انبلاج هذه الآيات من اليسير رفعه أو دفعه بِ الكفارات.

هذا هو المثل الأول الذي نسوقه في هذا الفصل:

فَ فضلاً عن أن الآيات الأربع أقبلت بناءً على شكوى خولة وإنقاذاً لها من الورطة التي أوقعها فيه طيش ونزقه فإنه (= العروة الوثقى) أثبت أن عينه الساهرة تلحظ المجتمع وتتفاعل معه وترتبط به بِ علاقة جدلية حميمة.

[٢]

ــ انصياعاً لِ إكراهات المجتمع الذي شبّوا فيه وانسياقاً لِ موجبات البيئة التي تربوا فيها ونزولاً على أنساق الوسط الذي نشأوا فيه تمكن شرب العقار (= الخمر) من نفوس الصحاب وعدد من مقدميهم.

(روى أن الآية (= آية تحريم الخمر) نزلت في ملاحاة جرت بين سعد بن أبي وقاص ورجل من الأنصار وهما على شراب لهما وقد انتشيا فَ تفاخرت الأنصار وقريش فَ أخذ الأنصاري لِحْيَى جمل فضرب به أنف سعد فَ فزره يعني شقّه.. ورُوي أن ذلك الأنصاري كان عتبان بن مالك ــ روى ذلك الطبري والترمذي وغيرهما).[٦]

---

(٣) المصدر والصفحة نفسها.
(٤) المصدر نفسه وذات الصفحة.
(٥) (المقبول) ذات الصفحة السابقة و(أسباب النزول) ذات الصفحة السابقة. و(لباب النقول) ذات الصفحة السابقة.
(٦) (أحكام القرآن) لِ أبي بكر محمد عبد الله المعروف بِ ابن العربي ــ ٤٦٨/ ٥٤٣هـ ــ تحقيق على محمد البجاوي ــ المجلد الثاني/ ص ٦٥٦ ــ الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ــ دار المعرفة ودار الجيل ــ بيروت/ لبنان.

ومثال آخر:

(روى حميد الطويل عن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة وأُبيّ بن كعب وسهيل بن بيضاء في نفر في بيت أبي طلحة فـَ مَرّ بنا رجل فـَ قال: إن الخمر قد حُرّمت).[٧]

ومثال ثالث:

دعا أثربي جماعة من كبار الصحب المنازيح والمقيمين على طعام وشراب فلما حضرت صلاة المغرب فـَ تقدم عبد الرحمن بن عوف ليؤمهم فقرأ (قل يا أيها الكافرون) ولكنه خلط فيها ـ رواه الحاكم في المستدرك عن طريق الثوري عن عطاء، وقال عنه حديث صحيح ولم يخرجاه (= الشيخان البخاري ومسلم).[٨]

وفي رواية أخرى أن الذي أمهم وهم نشاوى آخر غير ابن عوف إنما يُعد من متقدميهم.

المثال الرابع والأخير:

آية تحريم الخمر: (نزلت في قبيلتين من الأنصار شربوا الخمر وانتشوا فعبث بعضهم ببعض فـَ لما صَحَوا رأى بعضهم في وجه بعض آثار ما فعلوا وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن فـَ جعل الرجل يقول (لو كان أخي بي رحيماً ما فعل هذا بي).

فـَ حدثت بينهم الضغائن فـَ أنزل الله تعالى: «إنما يريد الشيطان..» إلى آخر الآية).[٩]

نكتفي بهذا لندلل على أن الأسفنط (= الخمر) تغلغل حبها في أعماق قلوبهم وأنهم لم يكفوا عن تعاطيها إلاّ بعد شروق آية التحريم (أمر رسول الله ـ ص ـ مناديه أن ينادي في سكك المدينة: ألا إن الخمر قد حُرّمت ف كُسرت الدنان وأريقت الخمر حتى جرت في سكك المدينة).[١٠]

وهذا نص بالغ الثمانة لأنه حمل بين دفتيه معطى عميق الدلالة وهو أن شرب الصريفية (= الخمر).[١١] منتشر بينهم بـِ كثافة.

---

(٧) (أحكام القرآن) لِ الكيا المراسي ـ المجلد الثالث ـ ص ٩٩ ـ مصدر سابق.
(٨) (المقبول) لِ أبي عمر نادي الأزهري ـ هامش ص ٢١١ ـ مرجع سابق. و(أحكام القرآن) لِ ابن العربي ـ الثاني ـ ص ٦٥٧ كصدر سابق.
(٩) (أحكام القرآن) لِ ابن العربي ـ المجلد الثاني ص ٦٥٧ مصدر سابق. (لباب النقول) لِ السيوطي ص ٧٧ ـ مصدر سابق.
(المقبول) لِ أبي عمر نادي الأزهري ص ٣٠٦ ـ مرجع سابق.
(١٠) (أحكام القرآن) لِ ابن العربي ـ الثاني ص ٦٥٧.
(١١) رجعت في أسماء الخمر إلى كتاب (نظام الغريب في اللغة) تأليف عيسى الربعي الوحاظي الحميري تحقيق محمد بن علي الأكوع ـ ص ـ ص ٩٤ ـ ٩٥ ـ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ـ دار المأمون للتراث/ دمشق/ بيروت.

كما منع السكارى منهم من حضور الصلاة خلف (المرشد/ الهادي) في مسجده.

* * *

تفشي معاقرة القرقف (= الخمر) من قبل جمهور الصحاب بل وصناديدهم أقلق (البشير/ الحازم) ومجلس شوراه لأن هؤلاء (= الصحبة) هم أجناده في نشر الدين وعسكره في إقامة الدولة (الحلم) وقد نسخنا فيما تقدم في المفتتح كيف تدرّج (البيان/ الصدق) في معالجة هذا الأمر بيد أن آية التحريم لم تجيء إلا مُصلّية وعلى ريث، وفي هذا الإبان أخذ العَدَويّ عمر بن الخطاب يتململ ويستعجل الأمر بِ الكف والنهي عن التعاطي:

(عن أبي ميسرة قال: قال عمر اللهم بيّن لنا في الخمر فَ نزلت (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فَ قال اللهم بيّن لنا في الخمر فَ نزلت (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر فَ نزلت (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) إلى قوله (فَ هل أنتم منتهون) فقال عمر:

انتهينا إنها تذهب المال وتذهب العقل).[١٢]

مع ملاحظة أن العبارة التي وردت على لسان العَدويّ عمر تدل على أنه من بين من دأبوا على احتساء الكَلْفاء (= الخمر) ويؤكده ابن العربي بِ قوله (فقال عمر: انتهينا حين علم أن هذا وعيد شديد)[١٣] ومما له دلالة بالغة هذا الخبر:

(فَدُعي عمر فقرئت عليه آية (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) ٢/ ٤٣ فكان منادي رسول الله ــ ص ــ إذا أقام الصلاة: أن لا يقربن الصلاة سكران، فَدُعي عمر فَ قرئت عليه فقال اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فَ نزلت الآية التي في المائدة فدعي عمر فَ قرئت عليه فَ لما بلغ (فهل أنتم منتهون) قال عمر: انتهينا).[١٤]

---

(١٢) (أحكام القرآن) لِ الجصاص ــ المجلد الأول ــ ص ٣٢٣ سابق.
(١٣) (أحكام القرآن) لِ ابن العربي ــ الثاني ص ٦٥٧ ــ مصدر سابق.
و(أسباب النزول) لِ الواحدي ص ١٣٩ ــ مصدر سابق.
(١٤) (المقبول) لِ أبي عمر نادى الأزهري ــ ص ــ ٣٠٧ ــ سابق.

إن قارئ هذا الخبر لا بد أن يتساءل: لماذا العدويّ بِ الذات طُلب وقرئت عليه الآية:

ربما لِ اهتمامه الشديد بِ هذا الأمر وهو عضو بارز في مجلس الشورى وربما لِ سبب آخر لا يخفى على فطانة القارئ الذكي وإن ذكرناه آنفا.

وعلى كل فَ إن الزرْجون (= الخمر) حتى ذياك الوقت لم تُحرّم أي أنه لا غضاضة على متعاطيها.

وعموماً فَ هذه نقطة هامشية.

أما الجوهري في الأمر فَ هو أن القرآن العظيم تفضّل بِ آية كريمة حرّمت الصَرْخَدِيّة (الخمر) على معتنقي الديانة الإسلامية منذ بزوغها حتى الآن وإلى ما شاء الله، ولا شك أن قلق عمر ومطالبته بِ ورود بيان في شأنها وإلحاحه في الرجاء جِماعه يُحسب لـه ويضيف زَبْرة (قطعة ضخمة) لِ رصيد مناقبه، فضلاً عن أن (الذكر الحكيم) كما يتضح لنا يلاحق أحوال ذلك المجتمع ويتصل به بِ حبل متين.

* * *

[٣]

قلنا منذ عشرين عاماً إن الدين ثورة على الأوضاع الفاسدة لِ المجتمع الذي ينبثق في حناياه ويتولد بين جنباته وينمو بين أضلعه وإن الذين يبشرون به هم ثوار بِ معنى الكلمة هدفهم تقويض قواعده المنهارة وتهديم قوائمه المتهالكة وتحطيم أسسه المتهاوية كيما يبني المبشّر ب الديانة الجديدة مجتمعاً جديداً في كل المناحي.

العقيدة ـ العبادة ـ العلاقات الاجتماعية ـ الروابط الأسرية ـ الأسس الاقتصادية ـ التوجهات السياسية.. تجمعها أيديولوجية ذات خصائص معينة وتنتظمها كما يضم السلك حبات العقد سواء جاءت من جوهر نفيس أو معدن ثمين.

ما إن يعلن الثائر المبارك صوته المبرور مُعْلِماً (بِ الميم) بِ ثورته حتى يَغُدّ إليه المطحونون ويَجْذِم إليه المظلومون ويُوضِع إليه المُعوزُونَ ويَخَبّ إليه المحتاجون ويرْقَل إليه المعدمون ويهرول إليه المنكسرة قلوبَهم حسبما درج على مناداة تبعه ثائر مبرور وأحد البطاركة المرموقين هو عبد الله وابن

أمته عيسى ابن أمته الصديقة مريم.

وجِماع هؤلاء أطلق عليهم (العلَم العظيم) (الأراذل) يؤمنون بـِ ثورته ويقفون تحت رايته ويصطفون خلف لوائه ويدافعون عنها (= الثورة) بـِ كل ما لديهم وإذ إنهم مَلِيْطُون من كل شـيء فإن (ما لديهم) يعني أبشارهم وجسومهم وأرواحهم يقدمونها فَداءً لها وشهادة في سـبيلها وثمنـاً لـِ فَلَجِها.

ولكن ما هو التَحضيْض الذي يُوزّهم إليها؟

الإجابة يسيرة، هم يرون فيها: سفينة النجاة مما هم فيه من ظلم وبرّ الأمان ممـا يعانونـه من حرمان والدواء الشافي لكافة الأمراض التي تضربهم والأسقام التـي تـركبهم والأدْواء التـي تنخر فيهم واليد التي سوف تنتشلهم من الوَهْدة التي يتردون فيها.. الخ.

وفي مقابلهم يقف الأغنياء والمرابون وتجار الرقيق والطواغيت والمرازبـة والجحـاجح والبغاة والظلمة والمستكبرون وهم (الملأ).

كما أطلق عليهم القرآن المجيد ــ ويفسره الراغب بـِ: الذين يملأون العيون رواءً ومنظراً والنفوس بهاءً وجلالاً[١٥] يناوئون الثائر ويعارضونه بـل ويحاربونـه ويسـخرون مـن تابعيـه ويستهزئون من مناصريه ويعبثون بـِ مؤيديه دفاعاً عن أوضاعهم الطبقيـة وحمايـة لمصـالحهم المادية وتمسكاً بـ مكاسبهم المالية لأنهم يفْقهَون أن دعوته سوف تفقدهم جمعية ذلك.

* * *

ومن بين الفئات المغلوبة على أمرها النساء[١٦] في الجزيرة العربية عندما دعا (المصـلح) بـِ الديانة الجديدة.

وأوضحنا فيما سلف نتفاً من مظاهر القهر الذي وقع عليهن ومن أبرزها حرمـانهن مـن الميراث وهو الأمر الذي دفع أم سلمة (سبق نسخنا قطاعاً من حياتها ا.ه). إلى أن ترفـع صـوتها محتجة باعتبارها من زعيمات النِسْوَن حتى بعد أن زَبَدهنْ القرآن الحكيم نصف الميراث.[١٧]

(أخرج الترمذي والإمام أحمد والطبراني: قال: قالت أم سلمة: يا

---

(١٥) (المفردات في غريب القرآن) لـِ الراغب الأصفهاني ت ٥٠٢هـ/ تحقيق محمـد سـيد كيلانـي ــ طبعـة ١٣٨١هـ/ ١٩٨١م ــ مكتبة البابي الحلبي ــ بـ مصر.

(١٦) يقول العامة في مصر عنهم: صنف الحريم.

(١٧) زبده يزبده = أعطاه ومنه الحديث المروي:

(إنا لا نقبل زبد المشركين) ــ (تصحيح الفصيح وشرحه) لـِ ابن درستويه ــ تحقيق د/ محمد بدوي المختـوت ــ مراجعة د. رمضان عبد التواب ص ٢٣٠ ــ الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م ــ المجلـس الأعلـى لـِ الشـئون الإسلامية/ مصر.

رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو فـَ أنزل الله تعالى: «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض». ثم نزلت «أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى» الآية.[١٨]

أما الباحثة المغربية أمينة أمزيان الحسني فقد أوردت رواية أخرى:

(أخرج الترمذي من حديث ابن أبي عمر عن مجاهد عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا تغزو النساء زاد الحاكم: ولا تقاتل فتستشهد وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تبارك وتعالى: ولا تتمنوا ما فضل الله». الآية).[١٩]

يبين أن الحديث بلغ درجة عالية من الصحة فقد أخرجه الترمذي وأحمد الطبراني والحاكم النيسابوري ووصفه بأنه حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين.

كما ذكر السيوطي أن الحاكم خَرّجه في المستدرك.[٢٠]

ولولا أن اختصاص النساء بنصف الميراث حاك في صدر أم سلمة لما فَلَقَطَت (= أسرعت) بِ تلك المقولة الاحتجاجية، كما أنها (= بنت زاد الركب) في ما نرجح ظلت على موقفها فـَ أشرقت آية أخرى (أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى) فـَ رضيت أو سلمت أمرها لله تعالى.

* * *

بعد هذا الاستطراد الذي دفعنا إلى زَبْره[٢١] موقف هند = أم سلمة من ميراث المرَة، نعود إلى سياقة البحث.

قبل الإسلام أطبق أولئك العربان على نفي النسوان من الإرث بِ الكلية وهذا موقف لم يُرض (نعمة الله) لِ أمرين:

الأول: فيه إجحاف بالغ بهن ومعلوم عُمق كراهيته له بعد أن ذاق منه الكثير في طفولته وصباه وشبابه.

الآخر «أنهن من أوائل من تَبِعَه وآمن بدعوته، بل إن أول من استشهد في سبيلها امرأة هي سُمَيّة أم عمَار بن ياسر، واشترك في بيعة العقبة الأخيرة مرَتان من بنات قيلة هما أم عمارة نسيبة بنت كعب وأسماء بنت

---

(١٨) (المقبول) لِ الشيخ أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ١٩١ ــ مرجع سابق ــ ووصف إسناده بأنه حسن.
(١٩) (أم سلمة ــ أم المؤمنين) الأول ــ ص ١٣٢ ــ سابق.
(٢٠) (لباب النقول) ص ٥١ ــ مصدر سابق.
(٢١) زَبَرَ الكتاب زَبْراً: نسخه ــ المعجم الوسيط.

عمر، وهذه البيعة على الأحمر والأسود وشكلت نقطة الانطلاق بـِ النسبة لـِ الإسلام، كما أن مواقف النسوة البطولية في المعارك خاصة في غزاة أحد تقطع بعمق إيمانهن بـِ الديانة التي بشّر بها وبإخلاصهن وتفانيهن.

فـَ أخذ يتربص النُهزة لعلّ «العروة الوثقى/ القرآن» يُهديه نصاً يرفع هذا الظلم عن المرَة ولو جزئياً، إذ إن إزالة العنت جميعه عنهن أمر عسير بل مستحيل لأن مجتمع العَرَبَة ذكوري بطريركي والمساواة بين الرجل والمرأة في التراث سوف تثير حفيظتهم وتشعل غضبهم.

وهنا جاءت الفرصة:

(أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم وغيرهم عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع فـَ قالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد ابن الربيع قُتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً وإن عمهما أخذ مالهما فلم يَدَعْ لهما مالاً. فـَ قال: يقضي الله في ذلك فـَ نزلت آية المواريث، أرسل رسول الله ــ ص ــ إلى عمهما فـَ قال: أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقي فـَ هو لك).[٢٢]

وأورد السيوطي الحديث ذاته وأضاف: ولا تنكحان إلاّ ولهما مال. ثم ذكر عبارة: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث.[٢٣]

وجاء بـِ رواية أخرى:

(وقد ورد في قصة سعد بن الربيع وجه آخر: أخرج القاضي إسماعيل في أحكام القرآن من طريق عبد الملك بن حزم أن عَمْرة بن حزام كانت تحت سعد بن الربيع فـَ قُتل عنها في أحد وكان له منها ابنة فـ أتت النبي ــ ص ــ تطلب ميراث ابنتها فـَ فيها نزلت (يستفتونك في النساء/ الآية).[٢٤]

بيد أن الرواية الأولى أصح وأشد توثيقاً وأَلْيق بـِ المناسبة.

* * *

---

(٢٢) (المقبول) لـِ الأزهري ــ ص ــ ص ٢٠٠، ٢٠١ ــ سابق، ووصفه بأن إسناده صحيح.
(٢٣) (لباب النقول) لـِ السيوطي ــ ص ٤٩ ــ مصدر سابق.
(٢٤) (ذات المصدر ونفس الصفحة).

أما الواحدي النيسابوري فـَ يزيدنا بـ رواية شبيهة بواقعة بنتيْ سعد ابـن لربيع (قوله تعالى «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون» الآية قال المفسرون: إن أوس بـن ثابت الأنصاري توفى وترك امرأة يقال لها أم كَجّة وثلاث بنات له منها فقام رجلان هما ابنا عم الميت وَوَصِيّاه يقال لهما سويد وعَرْفَجَة فـَ أخذا ماله ولم يعطيا امرأته شيئاً ولا بناته وكانوا في الجاهلية لا يُورّثون النساء والرجال الكبار وكانوا يقولون لا نعطي إلاّ من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة، فـَ جاءت أم كَجّة إلى رسول الله ـ ص ـ فـَ قالت يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك عليّ بنات وأنا امرأة ليس عندي ما أنفق عليهم، وقد ترك أبوهن مالاً حسناً وهو عند سويد وعرفجة لم يعطياني ولا بناته من المال شيئاً وهن في حِجْري ولا يطعماني ولا يسقياني ولا يرفعن لهن رأساً).

فـَ دعاهما رسول الله ـ ص ـ فـَ قالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كَلاّ ولا يُنْكِئ عدواً، فـَ قال رسول الله ـ ص ـ: انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن فـَ أنزل الله تعالى هذه الآية).[٢٥]

وقد حمل كتاب (المقبول) لِ الأزهري ذات الواقعة وأضاف أن امرأة ثابت طلبت من ابن العم خالد بدلاً من سويد وبنات أوس اثنتان لا ثلاث.[٢٦] ولكنهما رفضا نكاحهما لدمامتهما، وأنه نزلت بـِ شأنها آيتان: الحادية عشرة والسابعة والعشرون بعد المائة وكلتاهما من النساء.[٢٧]

أما السيوطي فقد رقم أنه (ورد سبب ثالث: أخرج ابن جرير عن السدي قال: كان أهل الجاهلية لا يورّثون الجواري (أي البنات أو الفتيات الصبايا) ولا الضعفاء من الغلمان، لا يرث الرجل من ولده إلاّ من أطاق القتال ـ فـَ مات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة يقال لها كَجّة وخمس بنات فـَ جاء الورثة يأخذون ماله فـَ شكت أم كَجّة ذلك إلى النبي ـ ص ـ فـَ أنزل هذه الآية (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك) ثم قال في أم كَجّة (ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم).[٢٨] ورواية السيوطي في الـ (الباب) توثق

---

(٢٥) (أسباب النزول) لِ الواحدي النيسابوري ص ص ٩٥ ـ ٩٦ ـ سابق.
(٢٦) وهذا يوثق ما سبق أن رقمناه: أن الفترة المبكرة اكتظت بـ الاختلاف في جُلّ المناحي: الأسماء (أسامي الأشخاص والأماكن) والأعداد والوقائع.. الخ ا.هـ)
(٢٧) (المقبول) الأزهري ص ـ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ـ ووصف الحديث بأنه صحيح.
(٢٨) (لباب النقول) لِ السيوطي ـ ص ٤٩ ـ مصدر سابق.

ما قلناه بشأن الاختلاف في الأخبار سواء في الوقائع أم الأسامي أم الأعداد وأنه لا يقدح في جوهر النازلة أو الواقعة. وهذه ملاحظة هامشية اقتضاها التحليل والتقييم إنما الثابت من الحديث:

١ ــ أن أولئك العُربان وضعوا مقياساً لمن يستحق التراث وهو الذكر الذي يمتطي ظهر الفرس ويحوز الغنيمة وهو معيار يدل على البداوة ويؤكد أن الغنائم هي هَمّهم المقيم وشغلهم الشاغل.

٢ ــ أن ابني عم قيس بن ثابت (أو غيره) لا يعنيهما أن تعيش زوجته وابنتاه (أو بناته) في مسغبة أو لا تتزوجان إذ ليس لديهما مال تنكحان من أجله ــ وابنا العم يعلمان ذلك بداهة ــ إنما الذي يهمها هو الحصول على المال وهو أمر يشفّ عن جلافة في الطبع وبداوة في الذوق وانعدام في الإحساس وخَوَاء في الأخلاق وصُفُور في الضمير ومَآبُه الافتقار إلى الحضارة والبعد عن المدنية والنأي عن الرقي وجِماعه يؤكد النعوت التي رددناها عن ذياك المجتمع.

٢ ــ أن العبارة التي وردت على لسان (العظيم/ العفو): (انصرفوا حتى انظر ما يحدث الله لي فيهن) وبعدها نزلت الآية، حافلة بِ الدلالات ثرّة بِ المعاني جيّاشة بِ الإيحاءات ولا تحتاج إلى تعليق وهي في غُنية عن الشرح ولا تفتقر إلى تَبْيِيْن، يَفهمها الذكي ويَتْقهها الفطِن ويدركها اللوذعيّ ويستوعبها اللبيب.

* * *

في فاتحة هذا الكتاب أخذنا على المفسرين المحدثين استقاءهم الكثير من كتب التفسير التراثية وقد يعترض قارئ: ها أنت ترجع إليهم؟

وردنا ينحصر في أمريْن:

الأول: أننا ــ بعكس المفسرين المحدثين ــ لا نتوكأ أو نتعكز على القدامى وفرق بين الاستشهاد ببضع فقرات لِ تحليلها وتقييمها وبين النَهْل والعَبّ.

الآخر: ما نأخذه منهم يدور في نطاق (أسباب النزول) لتوثيق ما جاء في المؤلفات التي خصصها مصنفوها لها (= الأسباب) فحسب.

بعد هذه الملحوظة نرجع إلى السياق:

(روى عطاء قال: استشهد سعد بن الربيع وترك ابنتيْن وامرأة وأخا فأخذ الأخ المال كلـــه، فأتت المرأة فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد وإن سعداً قتل وإن عمهما أخذ مالهمـــا، فقـــال ــ ص ــ ارجعي فلعل الله سيقضي فيه ثم إنها عادت بعد مدة وبكت فنزلت هذه الآية (الحادية عشرة من سورة النساء)، فدعا رسول الله ــ ص ــ عمهما وقال: أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهـــا الـــثمن وما بقى فـَ هو لك، فـَ هذا أول ميراث قسم في الإسلام).[٢٩]

وما أورده الفخر الرازي (ثم إنها عادت بعد مدة) يدل على أن (مأدبة الله/ القرآن) تمهّـــل حتى أشرقت آية المواريث لأنها تمس عُرفاً راسخاً رسوخ الأجْبُل الرواســـي، كمـــا أن الـــذُكْران نازحين وأثاربة سوف يتململون بعد انبثاقهم لأنها تنال من وضْعَيْهم الماديّ والمعنويّ وقـــد شـــبوا وشابوا على إلفه (= عدم فراقه) واعتياده وبناء حساباتهم المعاشية على مقتضاه.

أما قوله (= الفخر الرازي) إنه أول ميراث قُسّم في الإسلام فمعنـــاه أن نظـــام التوريـــث السابق على الإسلام بِ ما فيه حرمان النِسْوَن والجواري (الصبايا) وصغار الغلمان ظل معمـــولاً به حتى بعد غزاة أُحد التي وقعت في السنة الثالثة من النزوح.[٣٠] أي أنه استمر ساري المفعـــول ستة عشر عاماً منها ثلاثة عشر في قرية التقديس وثلاثة في قرية الحَرْتَيْن أي ما يقرب من ثلـــث عمر الدعوة المحمدية (المباركة) وهذا يقطع بِ استقرار عرف التوريث البدوي الذكوري وإلا لما احتاج تغييره هذا المدى الطويل.

* * *

ويقول الْكِيَا الهَرَاسِي (وقضى رسول الله ــ ص ــ في تركة سعد بن الربيع للبنتين الثلثين وللزوجة الثمن والباقي لِ أخته).[٣١]

ولا يفوتنا أن نلحظ عبارة (والباقي لِ أخته) لا لِ ابني عمه ولا لِ أخيه كمـــا جـــاء فـــي روايات سوابق، لأن التباين والاختلاف أهم علامة تَسِم مَرْويّات فترة التدشين لعـــدم معـــرفتهم بِ (التدوين) الذي درج عليه وأتقنه منذ ألوف الأعوام قبل هذه الأحداث المُعجبة المبروكـــة أجـــدادنا قدامى

---

(٢٩) (مفاتيح الغيب ــ التفسير الكبير) لِ الفخر الرازي ــ الجزء التاسع ــ ص ٤٧ ــ مصدر سابق.
(٣٠) (تاريخ الطبري)/ الثاني ص ٤٩٩ ــ مصدر سابق.
(٣١) (أحكام القرآن) لِ عماد الدين محمد الطبري ــ الجزء الثاني ــ ص ٣٤٣، وذكر في الهامش: رواه أحمـــد والترمذي وأبو داود وابن ماجة، مصدر سابق.

المصريين. أما أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بـِ ابن العبي فقد أورد خير مجـيء زوجة سعد بن الربيع لـِ (الشاهد/ الشديد) وشكواها إليه بـِ ذات التفصيلات التي عبقت بها الرواية الأصلية التي سقناها فيما سلف وقوله لها (يقضي الله في ذلك) فـَ نزلت (يوصيكم الله في أولادكم)[٣٢] وهكذا عاضدت كتب التفسير، مصنفات أسباب النزول في توثيق خبر شكوى زوجة سعد بن الربيع لحرمانها وابنتيها من ميراثه لأن عمهما اسْتَفَاه لـِ نفسه وبعدها هلّت بطلعتها المشرقة آية المواريث على مهل وريث.

وهكذا غدا هذا الحديث صحيحاً لا تعتريه أدنى شائبة.

ولا نضيف جديداً حين نرقم أن الآية حققت مطلب أرملة سعد وكافة النِسْوَن غِبّ أن منحهن (الإيمان/ الموعظة) نصف التراث بعد حرمان امتد مئات الأعوام.

ومن رجا آخر أقبلت الآية كـَ مكافأة للنساء على مواقفهن من الدعوة التي بشّر بها (سيد الخلق) والتي نسخنا فيما مضى نُتفاً منها خاصة في عركة أُحد بـِ خلاف عدد من كبار الصحابة أدبر وأعطى ظهره للعدو وهو يعلم أن ذلك من أكبر الكبائر ومن غرائب التاريخ أن من بين من فعله من تولى الإمامة العظمى أي الخلافة، يضاف إلى ذلك أن (أول من يفيق من الصعقة) بثاقب بصره ونافذ بصيرته ووسيع أفقه أدرك بعد ما حدث في أُحد أن النِسْوَن فيهن أو لديهن نفع كبير في ميادين القتال. ولـِ الديانة التي يذيعها ويفشيها وللدولة التي يضع في صرحها لَبِنَة بعد أخرى واللتين تَعْبُران مَزْنَقا ضِيْقه ملحوظ وحُروجته واضحة وعقباته عديدة وعثراته خطرة ومن ثم فـَ هما (= الديانة والدولة) في أمسّ الحوجة لـِ يد العون من كل فرد في المجتمع.

وفي حديث له معروف (النساء شقائق الرجال) ولـِ رفع روحهن المعنوية ولـِ تشجيعهن على مزيد من البذل ولحضّهن على تقديم ضعف العطاء فـَ لا أقل من زَبْدِهن شطر الإرث، وهكذا يثبت القرآن الحميد أنه يواكب جماعة المسلمين وان عينه عليها وأنه يتفضل بـِ إجابة طلب أفرادها ويتكرم بـِ تحقيق رغبة أعضائها ويتعطف برفع سبب شِكاية من يئن

---

(٣٢) (أحكام القرآن) لـِ ابن العربي، المجلد الأول ــ ص ٣٣٣ ــ مصدر سابق.

ويتوجع من ذُكْرانها ونِسْوَنها وأن إطلال آياته كَ الشموس المضيئة بين الحين والآخر بلــغ غايــة الحكمة التي خفيت عن العقول القاصرة لِ أولاد الأفاعي.

[٤]

الرجل لعبته المرأة

هذه مقولة تنطبق على مجتمع أولئك العُربان، وقد صرح بها أحد كبارهم عندما ناقشته بِ منتهى الأدب والخضوع زوجته في أمر يهمها أو يخصها فصاح في وجهها: مالك وذاك ما أنــت إلا لعبة ألعب بها وقت حاجتي إليها ثم أركنها أسفل الجدار. ومــن الجــائز أن تغــدو الأحاديــث والأقوال موضع تهزيل (من الهُزال) ومجال توهِيْن ومحل تشكيك وهناك شــعار شــهير لِ أحــد المبرزين في علم الحديث: أيّ حديث ضعيف قويناه وأي حديث صحيح أو حسن ضعفناه.

وهي دعوى لا تنضوي على أدنى قدر من المبالغة، لأن دفع الحديث قد يأتي من صــوب المَتْن بِ زعم أنه لا يتفق وما جاء في القرآن الكريم (بداهة من وجهة نظر الطاعن) أو يأتي مــن ناحية السند، فإن لم يلحق ب تاريخية الرواية شائبة أي أن فلانا روى عن فلان في حين أنــه لــم يحدث بينهما لقاء أو يغمز أحد رواته بأنه صاحب بدعة أي ممن تكلموا في الذات أو في الصــفات (صفات الله) أو في القضاء والقدر أو غيرها أو عُرف بالتشيّع وهكذا.

فإذا صح المتن وسلم رواته من المطاعن قالوا عنه (= الحديث) إنه منسوخ إمــا بِ آيــة وإما بِ حديث آخر.. الخ مع وضع ملاحظة هامة في الحُسبان وهي أن الحديث الذي يطعن فيه لا يوافق مذهبه أو رأيه أو حتى هواه.

إذن التعكّز على مقولة لأحدهم ولو من مرازبتهم لإثبات نظرة أولئك العربان المتدنيــة لِ المرَة لا ينتصب دليلاً قاطعاً.

إنما الأفعال هي التي تقطع المناوئ وتُخرس المشاغب وتُسكت المخاصم:

(كان الرجل يطلق امرأته ما شاء الله أن يطلقها وإن طلقها مائة مرة أو

أكثروا إذا ارتجعها قبل أن تنقضى عدتها، حتى قال رجل لـِ امرأته والله لا أطلقك فـَ تبيني منـــي ولا آويك إلي، فقالت وكيف ذاك؟ قال: أطلقك وكلما قاربت عدتك أن تنقضي ارتجعتك ثم أطلقــك وأفعل ذلك.

فـَ شكت المرأة ذلك إلى عائشة فذكرت ذلك عائشة لـِ رسول الله ــ ص ــ فـَ ســكت فـَ لم يقل شيئا حتى نزل القرآن (الطلاق مرتان..).[٣٣]

وذكره السيوطي في ال (لباب) بـِ ذلك السند ولو أنه اكتفى بـِ الترمذي مــن (أصــحاب الصحاح) والحاكم النيسابوري ولكنه رَقَم أن المَرَة تشكّت إلى (صاحب المغنم) مباشرة دون توسط التيمية بنت عتيق بن أبي قحافة.

وفي أحكام القرآن لـِ ابن العربي أن الزوج من الأثاربة بني قيلــة وأن شــكوى مبعولتــه أفضت بها بنفسها إلى (القارئ الكريم).[٣٣][أ]

* * *

أكد الباحث عبد الله شحاتة ــ بعد تمحيص منه ــ مسألة لعب أولئك العُربان بـِ الطــلاق ونحن من جانبنا نرجعها إلى استهانتهم بـِ أقدس علاقة ولنظرتهم للمرأة التي تتسم بـِ التعالي مــن جهتهم والدونية إلى ناحيتها وجِماعه منبعه التبدي.

يوثق شحاتة ذلك في يزبر (أي يكتب) (ثبت أن أهل الجاهلية لم يكن عنــدهم لـِ الطــلاق عدد وكانت عندهم العدة معلومة مقدرة).[٣٤]

ثم ساق الحديث كما طلع علينا الشيخ أبو عمر نادي الأزهري.

* * *

إذن نحن بصدد شكاية صحابية من بنات قيلة بثّتها بـِ الذات أو بـِ الوســاطة لـِ (البهــاء) ضد زوجها الذي عزم على تعليقها نزولاً على العرف المستقر في المجتمع البدوي الــذكوري بـِ أن يطلقها حتى إذا قاربت عدتها على النهاية راجعها وهكذا حتى أقرب الأجلين: أجلها أو أجله.

---

(٣٣) (المقبول) لـِ الشيخ أبي عمر نادي الأزهري ص ١٣٢ ــ ص ١٣٣ مرجع سابق.
وقال المصنف: رواه الحاكم والترمذي والطبري عن عائشة ــ رض ــ ووصف إسناده بـِ أنه صحيح وأن الحاكم صححه في المستدرك. ورواه عبد بن حميد في تفسيره ورواه ابن مردويه في السنن ومالك في الموطأ.
(٣٣) (أ) (أحكام القرآن) ل ابن العربي ــ الأول ــ ص ١٨٩ ــ مصدر سابق.
(٣٤) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله شحاته ــ الجزء الثاني ــ ص ٣٧٠ ــ مرجع سابق.

و(الخالص) يعلم هذا التقليد المستقر الراسخ في المجتمع وأنه سلاح في يد الذُكران يشكمون به النسوة: يهددون به الناشز ويخيفون بموجبه العاصية ويردعون بمقتضاه النَفُور ولو انتزعه من أيديهم ل عصْلبن[٣٥] عليهم ولما استطاعوا التحكم فيهن (هذا ما يتوهمونه).

* * *

هذا من رجال (ناحية)، ومن آخر فـَ إن النِسْوَن يعانين بشدة الظلم الذي يقع عليهن من جرّاء استمرار هذا العرف الوَبِيء والعادة الدنيئة والتقليد الطِفس، ولقد أثبتن منذ فجر الدعوة المباركة أنهن من أشد الأعوان إخلاصاً كما أن الأيام المستقبلة تعمّق الحَوُجة إليهن إنْ في جناح الديانة أو في قطاع الدولة الوليد.

تلك هي دَوَالّ العبارة التي وردت في الحديث الشريف (ف سكت ولم يقل شيئاً) بيد أن (الأمر/ القيم = القرآن) لم يسكت وأنّى له أن يفعل وقد تقدمت بطلبتها صحابية أثربية لتصحيح وضع جائر يُضيرها هي وبنات جنسها حتى يرث الله الأرض ومن عليها فبعث آية كريمة (الطلاق مرتان).. استجابت للشكاية وقضت على التقليد الظالم وأنصفت شقائق الرجال وكأني به (الكتاب/ النور) يقول لهم ولهن إني معكم لا أغادركم طَرْفَة عين وأدخل معكم في علاقات جدلية حميمة ومن هنا لم أنبثق دفعة واحدة كَ توراة موسى وإنما تهلّ نجومي على مراحل تنير لكم الجَادّة (الطريق) أمام مشكلاتكم وتبدد الظلام الدامس الذي عَشّش حول الكثير من تقاليدكم المتفسخة وتفتح المغاليق التي سَكّرتها عاداتكم البالية.

* * *

[٥]

رَقَمنا فيما سلف أن (رضوان الله) عندما شَرّف قرية الحَرتينْ وخبر أحوال (إخوان القردة والخنازير وعبدة الطاغوت) كما أطلق عليهم يوم قريظة:

أخرج بن جرير عن مجاهد قال قام النبي ـ ص ـ يوم قريظة تحت حصونهم فقال: يا إخوان القردة والخنازير وعبدة الطاغوت.[٣٦]

---

(٣٥) العامة في مصر تقول (عصلجت).

(٣٦) (لباب النقول في أسباب النزول) لِ الجلال السيوطي، على هامش (تنوير المقياس من تفسير ابن عباس) ل الفيروزي أبادي صاحب القاموس، المتوفى ٨١٧هـ ـ الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١ ـ مكتبة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر.

وأدرك كثافتهم وفَرْشَحَة ذراعهم الاقتصادية وقوة تأثيرهم الديني والاجتماعي باعتبار أنهم (= القردة لا اليثاربة العرْبان) من ذوي العلم الديني وبأيديهم إسطير مقدس مَتَحَتَ من بيْره سائر الإسطيرات التالية:

فصلى تجاه بيت المقدس أو قرية السلام ــ أورشليم وتابعه صحبه ــ وشكّلت البادرة خطوة في درب الموادعة أو الموادّة التي قرر أن يمشي فيها لما يقرب من عام ونصف عام، بيد أنهم أثبتوا بـِ حق أنهم قردة خنازير، فانبثقت آية عظيمة من (الشفاء/ القرآن) ــ وكل آياته عظيمة ــ أذنت له ول تبعه الاتجاه في الصلاة نحو قرية القداسة العربية أو الكعبة أو إرث إبراهيم.(٣٧)

* * *

تحويل القبلة أقلق عدداً من الصحابة لا بسبب التردد: مكة (الكعبة) ثم إيليا ثم مكة مرة أخرى إنما لعلة أخرى مغايرة ولكنها تقترن أو تتصل بها بـِ حبل ربما لا يتسم بـِ المتانة والشدة إنما في نهاية الشوط من اليسير العثور على وشِيجة لَبَكَتْهما (= خلطهما).

ما هو موقف أو مصير الصلوات التي صلوها هم ومن سبقهم إلى الدار الآخرة خلال الأشهر الثمانية عشر صوب القرية التي يقدسها أولاد الأفاعي كما وسمهم عبد الله ورسوله وابن أمته عيسى ابن الصديقة مريم؟(٣٨)

(كان رجال من أصحاب رسول الله ــ ص ــ قد ماتوا على القبلة الأولى

---

(٣٧) هناك خناقة (وهي كلمة فصيحة) ل رب السماء بين المسلمين واليهود على أمرين.
الأول: أيتهما أقدم وأكثر قداسة بَكّة أم إيلْيَا (أورشليم).
الآخر: كبير البطارقة وأبوهم وأصل أصولهم إبراهيم أو إبراهام.
(في مصر يدلعون من يسمى إبراهيم بـِ برهوم مرة وهِيْمة أخرى ا.ه).
هل هو يهودي أو حنيف..
ورغم بلوغ عمر العركة المبرورة بدايات القرن الخامس عشر فـَ إن الطائفتين لم تصلا حتى كتابة هذه السطور إلى حل وسط مع أن كليهما تكتظ بـِ طوابير مرصوصة من العلماء والمشايخ والأحبار والربيين ا.ه.
(٣٨) علماء النصرانية (المسيحية) يؤكدون أن اسم أَمَة الله أم عبد الله ورسوله عيسى هو ماري أما مريم فهو اسم أخت هارون أخي موسى بيد أن القرآن المجيد سماها مريم وتوّج سورة كاملة بهذا الاسم وهو شرف منيف لم تنله سيدة نساء الدنيا أم هند الطاهرة خديجة بنت خويلد.
وبداهة نحن لا شأن لنا ب ما يدعيه علماء الدين المسيحي ونَتْبَع ما جاء في (الشفاء/ الموعظة = القرآن) ومن ثم رقمنا اسمها الذي ورد فيه وهو مريم ا.ه.

منهم أسعد بن زرارة وأبو أمامة أحد بني النجار والبَرَاء بن مَعْرُور أحد بني سَلَمة وأناس آخرون جاءت عشائرهم فقالوا: يا رسول الله توفي إخواننا وهم يصلّون إلى القبلة الأولى وقد صـرفك الله تعالى إلى قِبلة إبراهيم فكيف بـِ إخواننا؟[٣٩] فـَ أنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) الآية.

* * *

كـَ المنهج الذي اتبعناه نيمم صوب كتب التفسير العوالي لنتعرف سبب انبثاق هـذه الآيـة توثيقا وشدا لـِ أزْر مصنفات (أسباب النزول) (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي ثباتكم على الإيمان وقيل إيمانكم بـِ القِبلة المنسوخة وصلاتكم إليها لما رُوي أنه ـ ص ـ لما وُجّه لـِ الكعبة قـالوا: كيف بـِ من مات يا رسول الله قبل التحويل من إخواننا؟ فـَ نزلت.[٤٠]

ويؤيد أبو محمد بن عطية سبب إشراق الآية سالفة الإلماع فـَ يقول:

(فـَ وجَسَت نفوس بعض المؤمنين وأشفقوا على من مات قبـل التحويـل مـن صـلاتهم السالفة فـَ أنزل (وما كان الله لـِ يضيع إيمانكم).[٤١]

وفي تفسير الجلالين: (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليه لأن سبب نزولها السؤال عمن مات قبل التحويل).[٤٢]

أما المقصود بـِ كلمة إيمانكم التي وردت في الآية هو صلاتكم كما ذكر الجلالان ويقـول الراغب في مفرداته (وما كان ليضيع إيمانكم أي

---

(٢٩) (أسباب النزول) لـ الواحدي ص ٣٦ مصدر سابق.
(لباب النقول) لـِ السيوطي ـ ص ١٩ طبعة دار الشعب ـ مصدر سابق.
وقد أورده الشيخ أبو عمر نادي الأزهري في (المقبول) وذكر أن إسناده صحيح وأضاف أن ابن كثير أورده فـي تفسيره وقال عنه الشيخ شاكر في (العمدة) إسناده صحيح وأخرج بعضه الترمذي في تفسير سورة البقـرة وقـال عنه: حسن صحيح، وأبو داود (من أصحاب الصحاح الستة كـَ الترمذي) وكذا ابن ماجة في سننه (وهـو مـنهم) وأخرجه أحمد بن حنبل في (المسند) كما جاء في صحيح ابن حبان وعزاه السـيوطي فـي ال (لبـاب) للطبـري والأخير أورده في تفسيره.
(المقبول) ص ٨١ مرجع سابق.
وبذا وصل هذا الحديث إلى محطة الصحة وهو مطمئن البال.
(٤٠) (أنوار التنزيل) أو (تفسير البيضاوي) لـِ قاضي القضاة البيضاوي ـ ص ٣٠ ـ مصدر سابق.
(٤١) (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لـ أبي محمد عبد الحق بن عطية ٤٨١/ ٥٤١هـ تحقيق الملاح ـ الأول ـ ص ٤٤١ ـ لجنة القرآن والسنة ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ بـ مصر.
(٤٢) (تفسير الجلالين) وهما جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ـ ص ٢٠ ـ دون تاريخ ـ مكتبة الجمهورية العربية المتحدة.

صلاتكم).[٤٣]

ويعلل ابن عطية تسمية الصلاة ب الإيمان (ف سميت إيماناً إذ هي من شُعَب الإيمان).[٤٤]

* * *

إن تحويل القبلة من إيليا إلى الكعبة بقدر ما غاظ بني إسرائيل نفحهم مجالاً وسيعا للدسّ والوقيعة والادعاءات الخبيثة والمزاعم التي تقطر سماً. ينفثونها في آذان تبع (المكتفى بِ الله) خصوصا اليثاربة وهم عُربان ضيقو الأفق، محدودو النظرة، منعدمو الثقافة، مليطون من الفكر، فما إن سمع أولاد الأفاعي بِ آية التحويل حتى أرْقَلُوا إليهم يبلبلون إيمانهم ويُشَوشُون عليهم إسلامَهم ويخلخلون عقيدتهم ويزلزلون ديانتهم خاصة أنهم حديثو عهد بها إذ لم يمض على اعتناقهم إياها أقل من عام ونصف عام فـَ طفقوا يسألونهم:

أي دين هذا الذي يغيّر قبلة صلاته، ففي بديّ الشأن التوجه إلى الكعبة ثم بعدها التحول صوب إيليا وعقب أقل من عامين: العودة إلى الكعبة مرة أخرى؟

إن ما علمناه من كتبنا أن القِبْلة إذا شُرّعت لا تبدل وكيف تُغيّر والصلاة عماد الدين وأول ركن فيه بعد الشهادتيْن؟

إن الأمر لا يخرج عن فرضين:

إما أن التوجه إلى إيليا (في الصلاة) حق وصدق من عند الله فـَ لا يصح تبديله ويتعين الاستمرار عليه إلى يوم القيامة!

وإما أنه باطل وليس فيه حق ولم يأمر به الرب فكيف إذن يممتم صوب بيت المقدس طوال تلك المدة؟

أما أن يصبح حقاً ثم يمسي باطلاً فـَ ما يقول به عاقل!

وما السبب في انقلابه من باطل إلى حق؟

ألا يدل التحول على أن (أبا القاسم) قد جرفه الحنين إلى مسقط رأسه وإلى دين أبيه وأجداده وأن التحويل بداية في جادة العودة إليه؟

وفيم إذن هذا العناء وكل هذه التضحيات؟

---

(٤٢) (المفردات في غريب القرآن) لِ الراغب الأصفهاني ــ ص ــ ٢٦ سابق.
(٤٤) (المحرر الوجيز) ص ٤٤١/ سابق.

والأهم منه جماعه:

ما هو مصير الصلوات التي صليتموها طوال الأشهر الثمانية عشر؟

وإذا أتيحت لكم الفرصة للتصحيح فكيف بِ آبائكم وإخوانكم وأبنائكم الـــذين قُبُـــروا قبـــل التحويل وبالتالي انعدمت لديهم أي نُهزةَ لِ التصويب؟

هذه التساؤلات الماكرة التي طرحوها على المسلمين أثرت في عـــدد كبيـــر مـــنهم وفـــي المقدمة الأثاربة وفعلت في قلوبهم فعل السحر وأقلقتهم وحركتهم، ونستدل عليه بِ ما جـــاء فـــي الخبر: (جاءت عشائرهم) أي لم يأت أفراد منهم بل عشائر بِ الجمع، ومن بين معاني العشـــيرة = القبيلة، تقول عشيرة الرجل = قبيلته، أي أن قبائل من ماتوا جاءت.. والمقصود هنـــا: أرهـــاطهم وأفخاذهم وبطونهم لأن بني قَيْلَة يشكّلون قبيلة واحدة من فرعين هما الأوس والخزرج.

المهم أن الاضطراب هيمن على أهاليهم ولم يقتصر على نفر محدود، مما يشي بِ نجـــاح أولاد يعقوب في دسائسهم وفلجهم في مكائدهم وظفرهم في ألاعيبهم. بل إن الغاية بلغت مداها فقد أثرت دعاوى يهود الفاسدة المفسدة إذ ارتد عدد من المســـلمين عـــن ديـــنهم (وقـــد ارتـــد لـــذلك جماعة).[٤٥]

وإذ أن الشيء بِ الشيء يذكر فَ لم يرد في كتب الســـيرة المحمديـــة المعطـــار أو فـــي مصنفات أحاديثه الشريفة أنه قتل أو أمر بِ قتل هؤلاء المرتدين مما يؤيد مقولة إن الردّة ليســـت حداً شرعياً إذ حاشاه أن يسكت ولا يطبق الحد.ا.ه.

* * *

عند ذلك بلغ المرَج أقصاه والهَرَج منتهاه والفتنة ذروتها وصـــار حتمـــاً مقضـــياً إجابـــة العشائر على سؤالها عن مصائر أفرادها الذين يَمّموا شطر أورشليم ثم ماتوا قبـــل التحويـــل إلـــى كعبة قرية التقديس العربية.[٤٦]

ولوقف نزيف الردّة التي هي طعنة نجلاء في جسد الديانة ولطمة مزلزلة للدولة الناشئة إذ إنها في أمس الحَوْجَة إلى الأجناد والعسكر والأعوان لا العكس.

---

(٤٥) (تفسير الجلالين) ـــ ص ـــ ٢٠ مصدر سابق.

(٤٦) في ذياك الزمن المدهش انضوت جزيرة أولئك العُربان على أكثر من عشرين كعبة ولكن لم فقط إحداها بِ شهرة كعبة بني سخينة في بكة.ا.ه.

وكَ منهاج (الصحف المكرمة/ القرآن) الذي استنه سارع لِ تقـديم الإجابـة خاصـة أن السؤال لم يطرحه فرد أو نفر محدود بل عِزُوْن (جماعات واحدتها عِزة).[٤٧] أكثـروا الوَعْوَعـة وأداموا اللغَط وأجلبوا بـِ الصخب وهنا طلعت كَ البدر المنير آية (وما كان الله ليضيع إيمـانكم ــ ١٤٣ من سورة البقرة، أي صلاتكم (والإيمان ها هنا الصلاة).[٤٨] فـَ تلاها (ذو الخلـق الكـريم) على تلك الفِئام فـَ هدأت قلوبهم إذ تيقنوا أن ذويهم الموتى قبل التغيير لم يُبخسوا حقهم واسـتوفوا جزاءهم ونالوا مثوبتهم.

وانفرجت أسارير (صاحب المقام المحمود) حين رضوا إذ هم سواعده القوية التـي يقهـر بها مشركي الجزيرة على أن ينطقوا بـِ الشهادتين وأعضاؤه الصلبة في تأسيس دولة قريش التـي طالما تمناها الأجداد المباركون.

وفي كل نازلة يؤكد الذكر الحكيم العلاقة الجدلية التي يلتحم بها مع المجتمع وأفراده وأنـه لا يتخلى عنهم ولو برهة يسيرة.

* * *

[٦]

انتقش الإسلام كثيراً من الفترة السابقة عليه.[٤٩] في كافة القطاعات، فـ في قطاع العقيـدة نادى الحنفاء أو المتحنفون بـِ (التوحيد) ونبذ الشرك.

وفي شِقّ العبادة نقل شعيرة الحج (وتبعاً له الاعتمار أو العمرة) بـِ حذافيرها حـذو القُـذّة بالقُذّة ما عدا التلبية فقد نقّاها (= الإسلام) من الإشراك مثلما سـبقه المتحنفـون الـداعون إلـى (التوحيد) كما أسلفنا ــ وانتقاش[٥٠] الحج له دافعان حثيثان أولهما أنه أكبر موسم تجاري لانتصاب الأسواق التجارية الكبرى مثل عُكاظ ومَجَنّة وذى المجاز علـى هامشـه، فـَ إلغـاؤه سيصـيب المكاكوة بـِ خسارة تُكرّههم في الإسلام والعكس صحيح أيْ

---

(٤٧) (نظام الغريب في اللغة) ص ١٤٧ ــ سابق.
(٤٨) (المختصر في تفسير القرآن) لـ ابن صمادح التُجيبي ــ ١٧ مصدر سابق.
(٤٩) تسمى الجاهلية تنفيراً منها وتبعيضاً فيها وهي تسمية أيديولوجية.
(٥٠) في المعجم الوجيز/ انتقش الشيء = اختاره ــ والعامة في مصر تقول (نقش) فلان مـن فـلان الفكـرة أو نحوها: نسخها أو استعارها منه ا.هـ.

استبقاؤه يحببهم فيه ويدفعهم إلى اعتناقه.

والباعث الآخر أن الأعاريب الذين تابعوه على ديانته شَبّوا وشابوا على أداء مناسك الحج وعلى تعظيم الكعبة وتُشبِع هذه الطقوس وجدانهم وتريح نفوسهم وتُثلج صدورهم وتدخل السرور على قلوبهم، فَ من الرجا الاجتماعي يعتبر متنفساً لهم إذ حياتهم تَصْفُر من مثل هذا المنتدى المُفرشح.

إذن تنتج فوائد جمة يحققها منسك الحج = تجارية/ اجتماعية/ نفسية/ عاطفية/ تاريخية.. إلخ، فَ لو أُلغي بِ الكلية لقوبل حظره بِ ثورة عارمة أو بِ الأقل لَغَط وَوَعْوَعَة وصخب، في حين أن استبقاءه سيضرب عدة عصافير بِ حجر واحد.(٥١)

من المؤكد أن نلفي من سوف يماري في هذه الحقيقة التاريخية رغم تقديمنا لِ الأدلة الموضوعية، إذ إن القراء (أو قطاعاً وسيعاً منهم ا.ه.) درج على سماع آراء مباينة في هذه النقطة بِ عبارات إنشائية وجمل خطابية ومقولات بلاغية سنين عدداً، فمن العسير عليه أن يهضم الأفكار التي نطرحها لأنها تضاد الهالات التي تحيط بِ مثل هذه المواضيع والتي رُبي عليها منذ نعومة أظفاره والتي حقنته بأمصالٍ زَبَدته بِ حصانة تحبسه عن تقبل العقلانية.

من هذا المنطلق يقبّ هذا المثال السادس لكيما يموضع هدفيْن:

أ ــ إقناع القارئ بِ أن تشريع الحج انبثق لِ إرواء ظمأ التبع والأصحاب نفسياً واجتماعياً وعاطفياً بِ إتاحة الفرصة له لأداء منسك طالما ألفوه.

ب ــ تلبية رغبة بني قيلة أعاريب قرية الحرتين خاصة بتضمين الحج شعيرة الطواف سبعة أشواط (لاحظ الرقم سبعة) بين الصفا والمروة لأنها أثيرة لديهم إذ دأبوا على القيام بها تعظيماً لِ معبودتهم مَنَاة.

(أخرج البخاري والترمذي وأحمد عن عائشة في قوله عز وجل: إن الصفا والمروة من شعائر الله ــ قالت: كان رجال من الأنصار من يَهِلّ لِ مناة. ومناة صنم بين مكة والمدينة، قالوا: يا نبي الله إنا كنا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لِ مناة فَ هل علينا من حرج أن نطوف بها فَ أنزل الله عز وجل.. الآية).(٥٢)

---

(٥١) من أراد المزيد في موضوع ما نقله الإسلام من الفترة السابقة عليه في شتى القطاعات فَ نحيله إلى كتابنا (الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية) وقد طبع مرتين وطالبنا البعض بِ ثالثة ــ ا.ه.

وجاء في ال (لباب): (أخرج البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله الآية).(٥٣)

هذه رواية أخرى للبخاري، وأنس الذي ورد اسمه في الحديث هو أنس بن مالك أحد مشاهير الصحابة وهو خادم (ذي الجهاد) وفضلاً عن ذلك فهو أثربي مِمّن كانوا يَهلّون لِ مَنَاة.

* * *

هذا ما ثبت في كتب (أسباب النزول) ثم نثني بِ مؤلفات (أحكام القرآن والتفسير).

أورد ابن كثير في تفسيره الحديث الذي خرّجه البخاري في صحيحه والذي فيه سأل عاصم بن سلمان أنس بن مالك عن الصفا والمروة الذي نسخناه آنفا.(٥٤) وأورد القرطبي (ذكرت عائشة ممن كان يهلّ بِ مَنَاة كانوا يطوفون كلهم بِ الصفا والمروة فَ لما ذكر الله تعالى الطواف بِ البيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا: يا رسول الله: كنا نطوف بِ الصفا والمروة والله أنزل الطواف بِ البيت فَ لم يذكر الصفا فَ هل علينا خرج أن نطوف بِ الصفا والمروة؟ فأنزل الله عز وجل الآية).(٥٥)

هذا خبر بالغ الثمانة، غالي القيمة لأنه صريح النص والدلالة معاً على أن الطواف بِ الصفا والمروة لم يُذكر في القرآن في بديّ الأمر إنما ورد بعد أن سأل اليثاربة بنو قَيْلَة الذين أدمنوا الإهلال لِ مَنَاة ثم الطواف بهما (الموقر) هل ثمة حرج عليهم أن يفعلوا؟ فَ أشرقت آية كريمة به.

إن ما يدل على أن الطواف بين الصفا والمروة في أول الأمر لم يُشكّل ضفيرة في نسيج الحج أن الآيات التي تناولته في القرآن العظيم، وهي من السادسة والتسعين بعد المائة حتى المائتين، لم تشمله مع أنها ذكرت أموراً

---

(٥٢) (المقبول) لِ الأزهري ص ٨٥، ٨٦. ووصفه المصنف بِ أن إسناده صحيح.
خرّج هذا الحديث البخاري في صحيحه والترمذي في سننه وقال عنه إنه حسن صحيح وكذا أحمد في مسنده.
(٥٣) (لباب النقول) لِ السيوطي ص ٢٠ مصدر سابق.
وكذلك الواحدي في (أسباب النزول) ص ٢٨ ـــ مصدر سابق.
(٥٤) (التيسير خلاصة ابن كثير) ص ٧٢ ـــ مصدر سابق.
(٥٥) (الجامع لِ أحكام القرآن/ تفسير القرطبي) لِ القرطبي ـــ المجلد الأول ص ٥٥٩/ ٥٦٠.

أخرى أخفض منه رتبة وأدنى منه درجة وأنحف منه منزلة مثل ما يفعله المريض أو من بــه أذى في رأسه وكذا الرَفَث والجدال فيه (= في الحج) وابتغاء الفضل (التجارة) إبّانــه ثــم ذكــر الله كَ الآباء أو أشد.

أما ما ورد في الآية السابعة والتسعين من سورة آل عمران فهو فرض الحج على النـــاس (= المسلمين) المستطيعين وفي سورة الحج وهي أيضاً مدنية حديث عن الأذان بِ الحج في الناس وكيف أنهم س يأتون من كل فَجّ عميق ورجالاً وراكبين لِ يشهدوا منافع لهم وليقضوا تَفَثَهم (مــا يصيبهم بسبب ترك الأدّهَان والغسل والحلْق) وليوفوا نذورهم وليطوفوا بِ الكعبة.

وليس في إحدى الآيتين الكريمتين أي ذكر للطواف (بين الصفا والمروة) مع أنه نُــصّ بِ كلتيهما على أمور (طبعاً بخلاف الطواف حول البيت العتيق) هي بكل تأكيد أقل أهمية منــه مثــل شهود المنافع وقضاء التَفَث والوفاء بِ النذور. الخ، فَ لو أن الطواف المذكور من الشعائر منــذ البداية لما أغفلته آيتا سورتي آل عمران والحج في حين تكلمتا عما ذكرنا.

والسورة الثانية والعشرون[٥٦] تحمل اسم (سورة الحج) ــ بيد أنها صَفُرت ــ أي خلت ــ من ذكر الطواف بين الصفا والمروة ونحن نقدّم جماعه على أنه قرينة على خَوَاء الحج في المبتدأ من شعيرة ذلك الطواف وقلنا قرينة فحسب لا دليلاً أو حجة لأن آيتي سورتي آل عمران والحــج أغفلتا أيضاً ركنا ركيناً في الحج هو الوقوف بِ عرفة.

ويكفي أن مالكاً والشافعي وأحمد بن حنبل ذهبوا إلى أنه (= الطواف بين الصفا والمــروة) ركن من أركان الحج وساووه بِ الوقوف بِ عرفات، وهناك حديث محمدي شريف (الحج عرفة) أما الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ــ عَطّر الله مرقده ونوّر ضريحه ــ فقد ذهب هو وتلاميــذه إلى أنه واجب يُجْبَر بِ الدم.

ولم يقل أحد من الأئمة أو الفقهاء لا من السلف أو الخلف إن ابتغاء الفضــل (= التجــارة) واجتناب الجدال فيه ركن أو حتى واجب.

---

(٥٦) المستشرق الفرنسي ريجيه بلاشير يذهب إلى أنها التاسعة بعد المائة من رجا ترتيب النزول ــ ا.ه.

فكيف تأتي الآيات الكريمات بِ هذه التفصيلات أو التفريعات أو الهامشيات ولا تنص على ركن (في مذاهب الثلاثة) وواجب عند الأحناف؟

* * *

هذه واحدة أما الأخرى فَ هي أن الآية العظيمة الخاصة بِ الطواف بين الصفا والمروة جاءت بِ معزل عن الآيات الكريمة التي تناولت الحج وجزيئاته، فقد حملت رقم الثامنة والخمسين بعد المائة من سورة البقرة سبقتها آيتان عن الصبر ولحقتها آية عن اللعنة التي تُصيب من يكتم ما أنزل إليه من البينات والهدى.

إذن يترسخ اليقين أن مناسك الحج في فاتحة الشأن ليس من بينها هذا الطواف، والمنطقي أن له علة حزبية وبِ التنقير والتنقيب عنها ألفيناها:

(أخرج الفاكهي وإسماعيل القاضي في الأحكام عن الشعبي قال:

كان صنم بِ الصفَا يدعى (إساف) ووثن بِ المروة يدعى (نائلة) فَ كان أهل الجاهلية يسعون بينهما فَ لما جاء الإسلام رُمِي بهما. وقالوا: إنما كان ذلك يصنعه أهل الجاهلية فَ أمسكوا عن السعي بينهما).[٥٧]

إذن الإعراض عن السعي بين الصفا والمروة في بداية الإسلام عِلّته أن بني سخينة في الفترة السابقة على ظهوره دأبوا على الطواف بينهما لِ وجود صنم على كل منهما، أي أنه شعيرة (جاهلية) فَ تَحرّج المسلمون من القيام به في البداية وهذا ثابت من عبارات الخبر: لما جاء الإسلام رُمي بهما.. فَ أمسكوا عن السعي بينهما.

بيد أن هذا الخبر في حاجة إلى توثيق أكثر كيما يغدو السبب الذي نطرحه أكيداً لا مجرد حَدْس.

(قال عمرو بن الحسين: سألت ابن عمر عن هذه الآية فقال: انطلق إلى ابن عباس فَ اسأله.. فَ سألته فقال: كان على الصفا صنم في صورة رجل يقال له إساف وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى نائلة، زعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فَ مسخهما الله تعالى حجرين

---

(٥٧) (نهاية السول فيما استدرك على الواحدي والسيوطي من أسباب النزول) لِ الشيخ أبي عمر نادي الأزهري ص ٨٣ الطبعة الأولى ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م ـ دار الصحابة بِ طنطا.

ووضعهما على الصفا والمروة ليُعتبر بهما، فـَ لما طال المدى عُبدا من دون الله فـَ كـان أهـل الجاهلية إذا طافوا بينهما مسحوا الوثنين فـَ لما جاء الإسلام وكُسرت الأصـنام كـره المسـلمون الطواف لأجل الصنمين).(٥٨)

إذن بعد ظهور الإسلام كره الحجاج المسلمون خاصة من بنى سخينة الطواف بينهما ومن ثم صَفُرت الآيات التي شَرّعت الحج صُفُوراً تاماً منه.

أما السيوطي في ال (لباب) فقد ذكر أن الحاكم (أخرج عـن ابـن عبـاس قـال: كانـت الشياطين في الجاهلية تطوف الليل أجمع بين الصفا والمروة وكان بينهما أصنام لهم فـَ لما جـاء الإسلام قال المسلمون: يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة فـَ إنه شيء كنا نصـنعه فـي الجاهلية).(٥٩)

صاحب المستدرك الحاكم النيسابوري يمدنا بِ سبب آخر لِ عدول من أسلم عن الطـواف بينهما، هو أن الشياطين ملأت الطريق بين الجبلين (الصفا والمروة) بِ أصـنامها ودأبـت علـى الطواف طول الليل فـَ لما أسلم المكاكوة وبنو سخينة ــ وهم الذين يعلمون ذلـك ــ أنفـوا مـن الطواف ومن ثم غرّب عن منظومة الحج في أول الأمر.

ولم أستطع أن أعرف كيف رأى مشركو مدينة التقديس العربية الشـياطين، وعلمـوا بِ تطوافها وهي كائنات لا مرئية وغير منظورة، وهل أصنامها هي ذات أصنام بني آدم؟ وهل هـي مستترة مثلهم؟

ولو أنها كذلك فكيف تَسنّى لهم مشاهدتها؟

وهل الشياطين من عبدة الأصنام أم أن دورهم اقتصر على إغواء الأناس على التعبد لها؟

فـَ نحن نعلم أن عبادة الشيطان عتيقة وما زالت مستمرة. وأورد صاحب المقبول إضـافة طريفة هي أن الشياطين تعزف طوال الليل بين الصفا والمروة (أخرج الحاكم وابن أبي داود عـن ابن عباس قال (كانت الشياطين في الجاهلية تعزف الليل أجمع بين الصفا والمروة وكانـت فيهمـا آلهة لهم أصنام فـَ لما جاء الإسلام قال المسلمون: يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة فإنه شيء كنا نصنعه في الجاهلية).(٦٠)

---

(٥٨) (أسباب النزول) لِ الواحدي ص ٢٨ مصدر سابق.
(٥٩) (لباب النقول) لِ السيوطي ــ ص ٢٠ ــ مصدر سابق.

إنما الذي لم يوضحه الخبر كيفية استماع المكاكوة للموسيقى التي طفق الفنانون الشياطين أو الشياطين الفنانون[٦١] عزفها بِ الليل ولم يصف لنا أجميلة هي أم قبيحة، وزَبَدنا (= الخبر) بِ معلومة هي أن الأصنام هي آلهة الشياطين بيد أنه لم يشرح لنا طريقة تعرف الأناسى عليها هل بِ الرؤية أم بِ اللمس؟

* * *

بعدها نصل إلى محطة كتب التفسير لِ يزداد الحديث رسوخاً:

(أ) (.. كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة وهما صنمان يروى أنهما كانا رجلاً وامرأة زنيا في الكعبة فَ مُسِخَا حجرين وُضِعَا لِ يُعتبر بهما فَ لم طالت المدة عُبدا من دون الله، فَ كان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما، فَ لما جاء الإسلام وكسرت الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما لِ أجل فعل الجاهلية).[٦٢]

(ب) (... لأن بعض الصحابة امتنعوا عن السعي بينهما لأنه كان في الجاهلية على الصفا صنم يقال له إساف وعلى المروة صنم يقال له نائلة فَ خافوا أن يكون السعي بينهما تعظيماً لِ الصنمين).[٦٣]

(ج) (أجاب الشافعي بِ ما يروى أنه كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة وهما صنمان كانا رجلاً وامرأة زنيا في الكعبة فَ مُسخا حجرين فوُضِعا عليهما لِ يُعتبر بهما فَ لما طالت المدة عُبدا من دون الله فَ كان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما فَ لما جاء الإسلام وكُسرت الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما لأجل فعل الجاهلية أن يكون عليهم جناح في ذلك).[٦٤]

(د) ومن التفاسير المعاصرة اخترنا (تفسير القرآن الكريم) لِ عبد الله

---

(٦٠) (المقبول) للشيخ أبي عمر نادي الأزهري ص ٨٨ ـ سابق.
ووصفه بِ أنه صحيح الإسناد وأن الذهبي صححه وأقره إذ رواه الحاكم وأن ابن أبي داود (وهو غير أبي داود أحد أصحاب الصحاح الستة) أخرجه في المصاحف.
وأن الطبري رواه في التفسير والواحدي في الأسباب.
وبذا غدا عرياً عن المطاعن.
(٦١) (الأصح أن يقال مُقْنَن بدل فنان ولكننا أثرنا الكلمة الشائعة ا.ه.)
(٦٢) (الكشاف) لِ الزمخشري ـ المجلد الأول ـ ٣٢٥ ـ مصدر سابق.
(٦٣) (التسهيل) ل ابن جزيّ الكلبي ـ الجزء الأول ـ ص ٦٥ مصدر سابق.
(٦٤) (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) تأليف نظام الدين الحسين بن محمد القمي النيسابوري ـ المتوفى سنة ٧٢٨ه ـ تحقيق وتعليق حمزة النشرتي وآخرين ـ المجلد الثاني ـ الجزء الثاني ـ ص ١٧٢ ـ الطبعة الأولى ـ د.ت.ن ودون ناشر ـ القاهرة.

شحاته: (في رواية لَ النسائي عن زيد بن حارثة قال: كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس يقال لهما إسلاف ونائلة وكان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما).[٦٥]

وهكذا تضافرت كتب (الأسباب) قديمة وحديثة ومصنفات (التفسير) من السلف والخلف على البرهنة على صحة الحديث الذي أتحفنا بعلة خَنس (= تخلف) الصحابة المكيين وعلى الأخص من بني سخينة عن السعي بين جبلي الصفا والمروة، ومن ثم فإن (الشفاء/ الموعظة) عندما تفضل وله المنة والشكر فـ شرّع فرض الحج حجب تلك الشعيرة وانبثقت آياته الكريمة خالية منها لأنه ــ أي الذكر الحكيم ــ على صلة حميمة بـِ ما يموج في المجتمع من نوازع ورغبات، وهذه المرة هي طِلبة الصحاب المكاكوة أول من آمن بدعوة (الملاحمى/ الملاذ) وضحّى في سبيلها بـِ الغالي والنفيس فـَ جَبَر خاطرهم بـِ صدور شِرْعَة الحج وهي صِفْر من الطواف بين الجبلين ولا ندري كم هي المدة التي استمر تبع (صاحب الزوجات الطاهرات) يؤدون الحج دون السعي أو الطواف بين الصفا والمروة.

ولكن الذي ندريه على وجه التحقيق أن عدم وجود ترتيب تاريخي لِ بزوغ السور والآيات هو السبب في عدم العلم بـِ المدة.

* * *

ولكن طائفة أخرى لم يرُضها حذف السعي أو الطواف المذكور لأنها أدمنت هذا الطقس أو المنسك وآدَهَا أن تخلو آيات (البلاغ/ المبين) منه فـَ فزعت إلى (أول من تنشق عنه الأرض) وسألته: هل من حرج إذا طافت بينهما مثل ما أنها دأبت عليه قبل الإسلام؟ وقد أوردنا الحديث فيما سلف ولا موجب لِ تكراره. أما هذه الطائفة فـَ هم الأعاريب الأثاربة بنو قَيْلَة الذين آووا ونَصرُوا وبـِ سيوفهم الحداد تنتشر الديانة وتتأسس الدولة السخينية أو القرشية ولهم مكان مُفَرْشَح ومقام محمود ودرجة رفيعة. وليس من بعد النظر ولا من الحنكة أو الحصافة تجاهل مرادهم ونبذ مرغوبهم وتغريب مطلوبهم.

---

(٦٥) (تفسير القرآن الكريم) لِ عبد الله شحاته الجزء الثاني ــ ٢٢٨. ثم أردفه بـِ رواية للترمذي: أنهما كانا من شعائر الجاهلية.

ومن هذا المنطلق هلّت الآية الكريمة تبشر العَرَبَة اليثاربة أو اليثاربة العَرَبَة بِ الاستجابة لِ مطلبهم وأنبأتهم أنه لا حرج عليهم في التِطّواف بين جَبَلي الصفا والمروة كما دأبوا على فعله قبل أن يعتنقوا الديانة الإسلامية. فَ انفرجت أساريرهم وأرْقل الحُبور إلى حنايا صدورهم وعَبّت قلوبهم من الفرح وتَضلّعت نفوسهم من السرور ــ أما (الحبيب المصطفى) فَ لا مشاحة أنه رضى بذلك فهم (= أبناء قرية الحرتين) لهم عنده منزلة أثيرة، إذ تخبرنا كتب سيرته ــ التي هي كما المسك الفواح ــ أنه في إحدى المناسبات أكد أنه ود أن يصير واحداً منهم ثم نفحهم دعوات طيبة وقد أثر هذا الموقف الشعوري البالغ النبالة في نفوسهم أعمق تأثير ــ وهم بِ طبعهم عاطفيون ــ فَ انخرطوا في البكاء حتى أخْضلّت لحاهم.

ومن جانب آخر وهو لا يقل أهمية إذ يثبت الذكر الحكيم دائما أن باصرته لا تغفل عن ذياك المجتمع العجاب وأنه على الدوام تَلَبّكه به عروة وثقى.

* * *

[٧]

الأصرة بين العربة الأثاربة واليهود الأثاربة اتسمت بِ المتانة وتَحلّت بِ العمق وامتازت بِ القوة واتصفت بِ الشدة وهي واحدة من أهم المعضلات التي جبهت (المنصور بالرعب مسيرة شهر) وحاول فكّها بِ شتى الحلول وقد تناولناها فيما سبقَ.

من بين الطرق التي سلكها هو أنه نهى بني قيلة عن رفد ذوي الحوْج أو دعم أصحاب المسْغبَة أو رضخ إخوان الفاقة من أولاد الأفاعي الذين تربطهم بهم وشيْجة من أي نوع.

(أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن النبي ــ ص ــ كان يأمر ألا يُتصدق إلا على أهل الإسلام).[٦٦]

وأورده الأزهري في المقبول بنصه ثم وصفه بِ صحة الإسناد وأضاف إلى ابن أبي حاتم أبا شيبة وأنه رواه في المصنف وفي تفسير ابن كثير وقال الشيخ شاكر عنه في العمدة: إسناده صحيح.[٦٧]

* * *

(٦٦) (لباب النقول) لِ السيوطي ــ ص ٣٥ سابق.
(٦٧) (المقبول) لِ ابن عمر نادى الأزهري ص ٢٤٨ والهامش.

ومن كتب التفسير:

أورده الألوسي عن ابن أبي حاتم وابن شيبة.(٦٨)

وذكره أبو محمد عبد الحق بن عطية رواية عن سعيد بن جبير (لا تتصدقوا إلاّ على أهل دينكم).(٦٩)

ومن المحدثين انتقشه بـِ حروفه عبد الله شحاته.(٧٠)

* * *

وهنا يثور سؤال مهم: لماذا فعل (المرحمة) ذلك؟

ونحدّس أن الإجابة لا تحتاج إلى فطانة، فـَ من ناحية قد يدفع مساكين بني إسرائيل ليدخلوا الإسلام كيما يعينهم الذين سبقوهم بـِ الإيمان بما يسد خلّتهم، ومن رجا آخر قد يحدث هؤلاء المحاويج بين أولاد الأفاعي زلزلة ويسببون ربكاً يشغلهم عن مناواة (الحبيب) ولو إلى حين، وفي هذا الإبّان تترسخ أقدام ديانته ويشتد عود الدولة التي يعمل ليلاً ونهاراً على تقوية بنيانها، ومن جانب ثالث يدقّ منع الأعاريب الأثاربة من الصدقة على معوزي إخوة القردة والخنازير إسْفِيْنا مكيناً وشَدِخاً غائراً وصدْعاً عميقاً في العروة الوثقى التي تَلْبِك اليثاربة العربة واليهود وهو شأن يوليه (من جعلت له الأرض طهوراً) عناية فائقة واهتماما بالغاً ورعاية مكثفة لأن دوامها بـِ هذه الأيأة(٧١) ليس فيه خطورة على الدين والدولة فـَ حسب بل هو ضياع محقق لكل الجهود التي بذلها والتضحيات الجسيمة التي قدمها تبعه.

* * *

والذي لا مشاحة فيه أن ذياك الحظر أوجد داخل صفوف العرب من أهل قرية الحرتين بلبلة وسرّب بينهم قلقاً ودفع إلى عيونهم أرقاً مرده الروابط الحميمة التي شَبَكَتهم بـِ بنى يعقوب منها الحلف والولاء بل المصاهرة والقربى وبعض منهم دأب على ترك أولاده لديهم يتربون

---

(٦٨) (روح المعاني في التفسير القرآن العظيم والسبع المثانى) ــ لـ أبي الفضل شهاب الدين الألوسي ــ الجزء الثاني ص ٧٢، ٧٣ سابق.

(٦٩) (المحرر الوجيز) الثاني ص ٢٥٩ ــ مصدر سابق

(٧٠) (تفسير القرآن الكريم) الجزء الثالث ــ ص ٤٧٧.

(٧١) الهيأة وزنا ومعنى.

وينشأون عندهم وسبق أن رقمنا ذلك تفصيلاً.

فَ عندما يَحْجِنُون عن محتاجيهم العطاء ويضنّون عليهم بِ الصدقة ويقطعون عنهم الإحسان فَ سوف يحزّ في نفوسهم ويُضْغِن قلوبهم ويشحن صدورهم بِ البغضاء وبطريق الحتم واللزوم يؤثّر على معاملاتهم خاصة تنشئة عيالهم لأن الآظار[٧٢] عادة من المعدمين أو المقلين.

كما أن أولاد الأفاعي المياسير سيعتبرونه ضرباً من المُلاحَاة أو الشَحْناء فَ يُغيّر أفئدتهم على بني قَيْلَة الذين أقاموا معهم وشائج سميكة أظهرها الأنشطة التجارية المتنوعة.

إزاء ذلك اضطروا لأن يتوجهوا بِ السؤال إلى (المعصوم من الناس) أن يرخّص لهم في العودة إلى التصدق على فقراء اليهود.

(أخرج ابن جرير من طريق سفيان الثوري عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان أناس من الأنصار لهم أنساب وقرابة في قريظة والنضير وكانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ويريدونهم أن يسلموا).[٧٣]

وما جاء في الحديث أنهم اتقوا الصدقة عليهم لا شك أنه من أثر الحديث المحمدي الشريف الذي نسخناه آنفا كذلك (يريدونهم أن يسلموا) هو مجاراة لإرادة (المدثر) وقصده من الحظر.

أما كتب التفسير فقد أوردت الخبر ذاته.

ففي (المحرر الوجيز): (روى ابن عباس أنه كان ناس من الأنصار لهم قرابات في بني قريظة والنضير وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم أن يسلموا).[٧٤] أما القميّ النيسابوري فقد رواه عن الكلبي:

(قال الكلبي:... إن أناسا من المسلمين كانت لهم قرابة وأصهار ورضاع في اليهود، وكانوا ينفعونهم قبل أن يسلموا، فلما أسلموا كرهوا أن ينفعوهم وأرادهم أن يسلموا واستأمروا رسول الله ــ ص ــ فنزلت (الآية)، فأعطوهم بعد نزولها).[٧٥]

---

(٧٢) جمع ظئر وهي من ترضع ولد غيرها.
(٧٣) (المقبول) لِ الشيخ أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ــ ص ١٤٨ ــ ١٤٩ وقال عنه: إسناده صحيح وإنه ورد أيضا في تفسير ابن كثير، وقال شاكر في العمدة: إسناده صحيح.
(٧٤) (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لِ ابن عطية ــ الجزء الثاني ص ٢٦٠ سابق.

هذا الخبر وضح الصلات الحميمة التي ربطت بني قيلة وبني يعقوب وفي مقدمتها الأصهار والقرابة والرضاع ودأب اليثاربة الأعاريب على رِفْدِهم أو بِ الأحرى الفقراء منهم. وأنهم لما أسلموا انصاعوا للحظر (عن سعيد بن جبير قال: قال رسول الله ــ ص ــ: لا تصدقوا إلا على أهل دينكم).[٧٦]

وقصدوا من ورائه إجبارهم على دخول الإسلام، وسبق أن ذكرنا أن هذا واحد من الأهداف التي تغياها (سابق العرب).

بيد أن أولاد الأفاعي أهل عناد إذ هم يعتبرون أنفسهم أسبق من غيرهم في الإيمان بالتوحيد وإسطيرهم جرثومة (= أصل) الكتب المقدسة، فَ لم يؤثر منع الأعطيات فيهم.

عندئذ تيقن أعاريب قرية الحرتين أن هذا الموقف سيأتي بآثار وخيمة في شتى النواحي فَ أسرعوا إلى (المزمّل) يستأمرونه (= يستأذنونه) في أن يعودوا إلى الإحسان إلى فقراء إخوان القردة والخنازير، فقدّر ما هم فيه من حُروجة وضيق، ومن جانب آخر فَ إن نهيهم عنه سلاح فعّال سوف يطرح ثمرته في مدى قريب.

إنما العربة اليثاربة كما كررنا لهم الأيادي التي لا تنكر في نصرة الدين وتدعيم الدولة وبقاؤهم في هذه الزنقة ليس من الكياسة في شيء، وهنا يجيء دور (التذكرة ــ العجب) فَ تطلع كَ البدر في منتصف الشهر إحدى آياته الكريمة (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء).[٧٧]

وهكذا انحلت المشكلة وعاد بنو قيْلة يَرْضَخون (= يَرفِدون أو يمدون) لفقراء بني إسرائيل من صدقاتهم وإحسانهم كسابق عهدهم رعاية لقرابتهم وأصهارهم لهم وإرضاعهم أولادهم ولمنافع أخرى مُشاكلة وانقلب غمهم سروراً، وهمهم حبوراً، وضيقهم فرجاً، ولا شك أن (محموداً) رضى لِ رضاهم لأنهم أجناده المناصرون الأوفياء.

كما أن (الذكر الحكيم) يَزْيدُنا بالبرهان تلو الآخر على أنه في كل مقطع من حياتهم المبرورة لا يتخلى عنهم وأن علاقته بهم متينة وآصرته

---

(٧٥) (غرائب القرآن) لِ القمي النيسابوي ــ المجلد الثاني ــ ص ٦١٣ ــ مصدر سابق.
(٧٦) (ذات المصدر والصفحة)
(٧٧) الآية الثانية والسبعون بعد المائتين من سورة البقرة.

معهم قوية ومداخلته إياهم وثيقة.

* * *

[٨]

استقر التعامل بِ الربا في مجتمع الجزيرة بِ اعتباره من الدخول الريعية التي تضخ دونَ بذل أي مجهود مثل عرق العُبدان وما تدره أفخاذ الإماء اللاتي دأبوا على تشغيلهن في العُهــورة. ومن بين أكبر المرابين: العباس بن عبد المطلب، الجد الأعلى لِ العباسيين وخالد بن الوليــد بــن المغيرة:

(قال السدي: نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية.[٧٨]

فقال النبي ــ ص ــ ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب.[٧٩]

وفي الفترة التي سبقت ظهور الإسلام مثّل الوليد بن المغيرة دور كبيــر المــرابين وهــو شخصية بارزة بين ملأ قريش تمتع بِ ثراء عريض وشهد القرآن الكريم بِ غناه الطاغي (ذرنــي ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً. وبنين شهوداً. ومهــدت لــه تمهيــداً. ثــم يطمــع أن أزيد).[٨٠]

«ذرني ومن خلقت وحيداً» عني به الوليد بن المغيرة «وجعلت له مــالاً ممــدودا» كثــرة عدده أو مساحته.[٨١]

«وبنين شهودا» وهو الوليد بن المغيرة، كان له عشر بنين لا يغيبون عنه في تجــارة ولا عمل.[٨٢]

وعقب محقق الكتاب السيد أحمد صقر عليه بِ الآتي:

«هذا قول مجاهد وقتادة وقيل سبعة أو اثنا عشر أو ثلاثة عشــر»، انظــر القرطبــي ٧٠ والطبري ٩٧ والفخر ٢٦٧.[٨٣]

وإذ إنه من المرازبة الجحاجح ومن صناديد بني سخينة فَ هو واحد من القلائــل الــذين يسنون السنن التي يقتدى بها القبيل مثل عبد المطلب بن

---

(٧٨) (أسباب النزول) لِ الواحدي ــ ص ــ مصدر سابق.
(٧٩) ذات المصدر ونفس الصفحة.
(٨٠) سورة المدثر من الآية الحادية عشرة إلى الخامسة عشرة.
(٨١) (المختصر في تفسير القرآن) لِ ابن صمادح التجيبي ــ ص ٤٦٠ ــ مصدر سابق.
(٨٢) (تفسير غريب القرآن) لِ أبي محمد عبد الله مسلم بن قتيبة ــ ٢١٣ ــ ٢٧٦هـ ــ تحقيق السيد أحمد صقر ــ ص ٤٩٦ ــ ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان.
(٨٣) المصدر نفسه، هامش الصفحة ذاتها.

هاشم ــ مع الفارق الشاسع بين الرجلين.

وإذ إنه لحّام أي جزار فقد استن قطع يد السارق حتى يردع اللصوص من الاقتراب من نشبه (ماله) المُفرْطَح.[٨٤]

* * *

ولِ ابن المغيرة نواح أخرى منها أنه من النخبة المثقفة بين سادة قرية التقديس فَ هو الذي أفتى القرشيين بِ أن يقولوا عن (المتربص) إنه ساحر يفرّق بين المرء وبين أبيه وأخيه وزوجته وعشيرته.[٨٥]

بعد أو وصف الذكر الحكيم وصفاً رائعاً ما زال خطباء المساجد يرددونه حتى الآن (والله إن لِ قوله لَ حلاوة وإن أصله لَ غَدق وإن فرعه لجنا).[٨٦]

ولقد كشف عن عمق ثقافته عندما وصف الكهان وزمزمتهم وسجعهم والجنون وتَخَانقه وتَخَالجه ووسوسته والشعر ورَجْزَه وقريضه ومقْبوضه ومبْسُوطه والسَحَرة ونَفْثَهَم وعَقَدهم.[٨٧]

وقد أدان القرآن المجيد هذا الموقف الذي اختاره الوليد والذي دلّ على الطغيان بِ الأموال الطائلة والاستكبار بِ الأولاد العشرة والخُنْزَوانة[٨٨] بِ الثقافة والصلافة بِ نبل المحتد والتيهان بِ شرف الجرثومة (الأصل).

(إنه فكر وقدر فقَتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر...).[٨٩]

كان الوليد بن المغيرة لما سئل عن النبي ــ ص ــ قدر ما أتى به القرآن فقال: إن قلنا شاعر كذبتنا العرب إذا قدرت ما أتى به الشعر ولم يكن إياه وكان يقصد في التقدير تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام بضرب من الاحتيال يمكن تجويزه على العقلاء فلذلك كل تقدير مستحق لعقوبة من الله تعالى هي كالقتل إهلاكاً له فهذا معنى (فقتل كيف قدر) أي هلك هلاك المقتول كيف قدر).[٩٠]

* * *

---

(٨٤) فيما بعد انتقش الإسلام قطع يد السارق.
(٨٥) (سيرة ابن إسحق المُسمّاة كتاب السير والمغازي) تأليف محمد بن يسار ــ ٨٥ ــ ١٥١هـ ــ تحقيق الدكتور سهيل زكار ص ١٥١ ــ الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨ ــ دار الفكر (غالباً بيروت ــ لبنان).
(٨٦) ذات المصدر ونفس الصفحة.
(٨٧) ذات المصدر والصفحة ذاتها.
(٨٨) فيه خُنزوانة وهي الكِبْر ونزّت في آنفه خنزوانة (أساس البلاغة) لِ الزمخشري.
(٨٩) سورة المدثر.
(٩٠) (درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز) لِ الخطيب الإسكافي ــ ب رواية ابن أبي الفرج الأردستاني ــ ص ٥٠٦ ــ الطبعة الثانية ١٩٧٧م ــ دار الآفاق الجديدة ــ بيروت.

هذه الشخصية المركبة بـِ الإضافة إلى ثقافتها زاولت عدة أنشطة تجارية من بينها اللِحَامة (الجزارة) كما ذكرنا[٩١)(أ] والتسليف بـِ الربا فـَ لما هلك غير مأسوف عليه خلّف أموالاً جزيلة تتمثل في ديون طائلة لدى العديد من المدينين ومن بين ورثته خالد بن الوليد، فطفق يستثمرها على ذات الشاكلة بيد أنه رغم عبقريته العسكرية وفُذوذته الحربية وحِنْكته القتالية لم يبلغ دُربة أبيه في المسائل المالية وأهم من ذلك فـَ إن الغزوات والسرايا التي شنها المسلمون على قوافل مشركي مكة شكّلت ما يمكن أن نسميه حصاراً اقتصادياً فـَ لم تعد التجارة فيها مزدهرة كـَ سابق عهدها ومن ثم فإن الفروع التي تَمولت منها مثل بنى مخزوم وبنى المغيرة (وهما من أرومة واحدة) بدأت تعرف الضيق وتعاني العَسَارة وتكابد الشدة.

خاصة بعد أن تقاعس أبو سفيان القائد المحنك للقوافل والخبير الخرّيت بـِ فِجَاج الصحراء ودروبها عن الخروج من مكة خوفاً على حياته بعد أن اكتشف الخطة التي دبرها (الموقر) لـِ تصفيته جسدياً (في سنة خمس بعث ــ ص ــ عمرو بن أمية الضمري وسلمة بن أسلم لـِ يفتكا بـِ أبي سفيان بن حرب فـَ نذر بها فـَ هربا.[٩١)(ب]

وفي الهامش: أرسلهما (إلى مكة لـ يقتلا أبا سفيان غِرة لـِ فعله ذلك مع النبي ــ ص ــ قبل وفَطِن لـِ عمرو فـَ هرب وقتل في طريقه ثلاثة رجال.[٩٢]

ويرجع رعب أبي سفيان وقُبُوعه في قرية القداسة وعدم ظَعْنه منها إلى سماعه بـِ مصير كل من: كعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق وأسير بن رزام وهم يهود، ونبيح وقيل سفيان الهُذلّى (بـ وادي عرنة).[٩٣]

وكذلك أم قرْفة الفزارية (وفي سنة خمس وجه ــ ص ــ زيد بن حارثة إلى أم قرْفة الفزارية وسَبَى هندا بنتها).[٩٤]

(وقال ابن الجوزى في التلقيح (ص ٦٤) ثم سرية زيد بن حارثة إلى

---

(٩١) (أ) لعل امتهانه لـِ هذه العمالة هو الذي دفعه لـِ سن حد قطع يد السارق.
(٩١) (ب) (المحبر) لـِ ابن حبيب ص ١٣٩ ــ مصدر سابق.
(٩٢) المصدر السابق هامش ذات الصفحة.
(٩٣) أعطى (المنصور) قاتله عبد الله بن أنيس الجَهْنى عصا (وقال تحضر بـِ هذه في الجنة فـَ لما مات أدرج العصا في كفنه) مكافأة له على اغتياله إياه ووضع رأسه (= القتيل) بين يديه الشريفتين.ا.ه.
(٩٤) (المحبر) لـِ ابن حبيب ــ ص ١٤٠ ــ مصدر سابق.

وادي القرى فأخذوا أم قَرْفَة واسمها فاطمة بنت ربيعة وقال محققه (= أي محقق تلقيح ابن الجوزى): إلى أم قَرْفَة فاطمة بنت ربيعة بوادي القُرى على سبع ليال من المدينة من شهر رمضان من سنة ست من الهجرة وربطها بين بعيرين حتى ماتت، في مسلم: كان أمير السرية أبو بكر).[٩٥]

وعند المقريزي (وأم قَرْفَة قتلها قيس بن المجسر اليعمري قتلاً عنيفاً:

وربط بين رجليها حبلاً ثم ربط بين بعيرين ثم زجرهما فقطعاها وهي عجوز كبيرة فأمر رسول الله ــ ص ــ برأسها فدير بها ليعلم قتلها ويصدق قول رسول الله ــ ص ــ لقريش: أرأيتم إن قتلت أم قَرْفَة؟ فـَ يقولون أيكون ذلك؟[٩٦]

وحرْص (الرحمة المهداة) على الطواف برأس أم قَرْفة في دروب وأزقة وسكك أثرب الغرض منه هو إعلام الكافة أن قوة دولة بني سخينة بلغت شأوا بعيداً لأن هذه القتيلة طفق العرب على ضرب المثل بـِ عزتها فـَ يقال: أعز من أم قَرْفَة (قال الأصمعي: من أمثالهم إذا أرادوا العز والمنعة قالوا: إنه لأمنع من أم قَرْفة وهي بنت مالك بن حذيفة (وفي رواية أنها بعلته ا.ه) وكان يحرس بيتها خمسون سيفا بخمسين فارساً كلهم لها مَحْرم (= أي لا تحل لواحد منهم، كأن يكون أخاها أو عمها ممن لا تحل له).[٩٧]

ويؤكد شيخ المؤرخين الطبري الخبر:

(.. فأمر زيد بن حارثة أن يقتل أم قَرْفَة فقتلها قتلاً عنيفاً ربط برجليها حبلين ثم ربطهما إلى بعيرين حتى شقّاها.

وكانت ابنتها لِسَلَمة بن عمرو بن الأكوع كان هو الذي أصابها فسألها رسول الله ــ ص ــ سلَمَة فوهبها له فأهداها لخاله حَزَن بن أبي قحافة).[٩٨]

إن المصير التعس الذي لقيته أم قَرْفَة على يد زيد بن حارثة يذكّرنا بـِ النهاية المأساوية لِ الفيلسوفة الوثنية هيبا شيا الإسكندارية على يد جيش الكنيسة الذي ألّفه الأسقف كيرلس وكل جريرتها في نظرهم أنها رفضت

---

(٩٥) المصدر السابق هامش نفس الصفحة.
(٩٦) (إمتاع الأسماع) لِ المقريزي ــ الأول ــ ص ٢١٠.
(٩٧) (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) لِ أبي منصور عبد الملك الثعالبي ٣٥٠ ــ ٤٢٩هـ ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ ص ٣١٠ ــ بند ٤٦٩ ــ سلسلة ذخائر العرب رقم ٠/ ٥٧ ــ طبعة ١٩٨٥ دار المعارف بـ مصر.
(٩٨) (تاريخ الطبرى) الثاني ص ٦٤٣ ــ مصدر سابق.

اعتناق المسيحية واستمرت على تدريس الأفلاطونية المُحْدَثَة ولم تُرهبها تهديدات الأسقف فَ سلّط عليها زبانيته من الرهبان الجنود في جيش الكنيسة (يتزعمهم قارئ من قراء الكنيسة يدعى بطرس فَ ترصدوا الفيلسوفة وانتزعوها من عربتها وسحبوها إلى كنيسة قَيْصَرُون وراحوا يلهون بتجريدها من ملابسها ثم جرّوها إلى الشارع ورجموها بالحجارة فلما أصبحت جثة هامدة مَثّلوا بها أشنع تمثيل إذ قطعوها إرباً وألقوا ببعض أشلائها طعماً للنيران، ودفنوا ما بقي من أشلاء في مكان خَرِب.[٩٩]

* * *

إن الختام المفجع لكل من أم قَرْفَة وهيبا شيا يقطع بِ أن الحروب الدينية هي أفظع بما لا يقاس من غيرها لأن المتقاتلين فيها يتعاركون بِ أقسى أو أقصى ما لديهم من شراسة على امتلاك الحقيقة المطلقة والقول الفصل والكلمة النهائية وأحدهم على حق لا شائبة فيه ولا سَوْم عليه ولا مهادنة بِ شأنه، والآخر على باطل ليس فيه ذرة من حق، ولا طريق للتفاهم معه سوى نفيه وتغريبه وتصفيته بِ أعنف الوسائل.

ومن هنا تؤكد الإحصائيات أن ضحايا الحروب الدينية من فجر التاريخ حتى الآن (سواء بين أبناء ديانتين أو بين أتباع مذهبين في ديانة واحدة) أضعاف ضحايا الحروب الأخريات.

ثم نعود إلى سياق البحث:

لا شك أن خَنَس أبي حنظلة (كنية أبي سفيان بن حرب) عن تولي رئاسة القوافل التي دأب بنو سخينة على إنفاذها صيفاً وشتاءً (وهما رحلتا الشتاء والصيف) أضعف الحركة التجارية في بَكّة وأصاب تجارها وفي مقدمهم بنو المغيرة بِ قاصمة الظهر.

ومن ثم انقلب الوضع فَ أصبح بنو المغيرة مدينين لِ الثقفيين طواغيت قرية الطائف (منهم مسعود وحبيب وربيعة وعبد يا ليل وبنو عمير).[١٠٠]

ول بنى المغيرة هؤلاء يد لا تنكر في معاضدة (أبي القاسم) سواء في

---

(٩٩) (الفكر المصري في العصر المسيحي) لِ رأفت عبد الحميد ــ الهيئة المصرية العامة لِ الكتاب ــ القاهرة.
(١٠٠) (لباب النقول) لِ السيوطي ص ٣٦.

نشر الديانة التي يبشر بها أو الدولة التي يرسخ قوائمها، ومنهم شخصيات لها مقام محمود ودرجة رفيعة نذكر منها على سبيل المثال ف حسب:

١ ــ أم سلمة: هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم وقد سبق أن رقمنا طرفاً من أخبارها ولا نرى موجباً لِ التكرار.

٢ ــ عبد الله بن الأسد بن هلال المخزومي وهو ليس من بنى المغيرة مباشرة (زوج أم سلمة الأول) وجَدّها كما ذكرنا المغيره وجده هو هلال وهما (ابنا عبد الله بن عمر بن مخزوم) أخوان وحفيد هلال هو عبد الله بن عبد الأسد وحفيده المغيرة هي أم سلمة بنت أمية وعليه فَ زوجها أبو سلمة ابن عم أبيها ــ

انظر نسب قريش ٣٣٧ وجمهرة ابن حزم ١٤١، ١٤٢، ١٤٣.[١٠١]

إذن هو يمت ب قرابة حميمة لِ بني المغيرة.

وحمل صدره أوسمة مُنِيْفة (قال ابن إسحق: أسلم بعد عشرة أنفس فَ كان الحادي عشر من المسلمين هاجر مع زوجته أم سلمة إلى أرض الحبشة. قال المصعب الزبيري أول من هاجر إلى أرض الحبشة أبو سلمة بن عبد الأسد ثم شهد بدراً، وكان أخا رسول الله ــ ص ــ وأخا حمزة من الرضاعة أرضعتهم ثويبة مولاة أبي لهب واستخلفه رسول الله على المدينة حين خرج إلى غزوة العشيرة وكانت في السنة الثانية من الهجرة وتوفي أبو سلمة في جمادى الآخرة سنة ثلاث من الهجرة).[١٠٢]

وأضاف ابن حجر (وكان ابن عمه النبي ــ ص ــ أمه بَرّة بنت عبد المطلب وهو مشهور بِ كنيته أكثر من اسمه ومات بِ المدينة بعد أن رجعوا من بدر، كذا وقال ابن إسحق بعد أحُد وهو الصحيح وروى ابن أبي عاصم في الأوائل من حديث ابن عباس: أول من يُعطى كتابه بِ يمينه أبو سلمة وقال أبو نعيم: كان أول من هاجر إلى المدينة وزاد ابن مُنْدِه وإلى الحبشة).[١٠٣]

* * *

٣ ــ خالد بن الوليد الذي نفحه (الرحيم/ الراضى) لقباً باذخاً هو

---

(١٠١) (أم سلمة أم المؤمنين) ــ الأول هامش ص ٥٠ ل أمينة أمزيان الحسني ــ مرجع سبق ذكره.
(١٠٢) (الاستيعاب) لِ ابن عبد البر ــ المجلد الرابع ــ ص ٣٠٦ ــ سابق.
(١٠٣) (الإصابة) لِ ابن حجر العسقلاني ص ٢٠٦ المجلد الرابع ــ مصدر سابق.

سيف الله المسلول الذي بـ دُربته الفائقة في القتال أنقذ جيش المسلمين في غزوة مُؤْتَة من هـلاك محقق على يد الروم (بلغ أجناد هرقل مائة ألف بخلاف أوشاب الأعاريب من لخم وجذام والقـيْن وبَهْراء وبليّ).

إذ عندما استشهد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة (القـواد) غـدا المعسكر في أمر مريج فـَ اصطلحوا على تأمير خالد بن الوليد (فـَ لِما أخذ الرايـة دافـع القـوم وخاشَيَ (والمُخَاشَاة هي المُحاجَزَة ا.ه) ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس).[١٠٤]

وكيما تدرك مدى فضل براعة خالد بن الوليد نزبر (= نكتب) أن جيش المسـلمين بلغـت عدته ثلاثة آلاف أنقذهم من قتل محقق تحت سنابك وبـِ سيوف أجناد الروم المائة ألف بـِ خـلاف من انضم إليهم من أفناء القنابل التي ذكرناها وهم أيضا مائة ألف.[١٠٥]

ولك أن تتصور حجم الكارثة التي من الجائز أن تحيق بـِ الدولة القرشـية الناشـئة فـي يثرب وبالديانة الإسلامية، إذ إن من بينهم العديد من خيرة الصحاب ومن القراء (حفظـة القـرآن المجيد) لولا عبقرية ابن الوليد العسكرية الفادّة، هذا بخلاف صفحات مشرقة عديدة لِ خالـد بـن الوليد فقد (شهد من رسول ــ ص ــ فتح مكة فـَ أبلى فيها وجرى له مع بنى جُذيمة ما جرى ثـم شهد حنيناً والطائف في هدم العُزّى وأرسله إلى أكَيْدر دومة الجندل فـَ أسره وقال في حقـه هـذا سيف من سيوف الله وهذا الحديث رجاله ثقات).[١٠٦]

٤ ــ سلمة بن هشام بن المغيرة.. أخو أبي جهل والحارث يُكنى أبـا هاشـم كـان مـن السابقين وثبت ذكره في الصحيح ودعا له الرسول ــ ص ــ وآخرون لما علم بـِ قـرارهم مـن المشركين أن ينجيهم منهم واشترك في غزوة مُؤْتة ولما عيَّره وزملاؤه المسلمون بـِ الفرار قـال النبي ــ ص ــ بل هو الكرّار ولما مات النبي ــ ص ــ خرج إلى الشَـام فـَ استشـهد بـِ مَـرْج الصُفّر وقال موسى ابن عقبة بل أجنادين.[١٠٧]

---

(١٠٤) (السيرة النبوية) لِ ابن إسحق ــ المجلد الثاني ص ١٨٥ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وآخـر ــ القطـاع الثقافي بـِ أخبار اليوم ــ مصدر سابق.

(١٠٥) (المصدر السابق) ــ ص ١٨٠.

(١٠٦) (الإصابة في تمييز الصحابة) لِ الحافظ ابن حجر شيخ الإسلام وقاضى القضـاة ــ ٧٧٣/ ٨٥٢هـ تحقيـق طه عبد الرءوف سعد ــ المجلد الثاني ص ٣٧٦ د. ت الناشر دار الغد الغربي/ مصر.

وأضاف صاحب (الاستيعاب) أنه (كان من مهاجرة الحبشة ومن خيار الصحابة وفضلائهم وكان قديم الإسلام واحْتُبُس بـِ مكة وعُذّب في الله عز وجل وكان رسول الله ــ ص ــ يدعو لـه في صلاته.

ولحق بـِ رسول الله ــ ص ــ بـِ المدينة بعد الخندق وخرج مع جيوش أبي بكر لِ قتال الروم ثم ذكر استشهاد في أول خلافة عمر ــ رض ــ إما في مَرْج الصُفّر وإما بـِ أجنادين).[108]

* * *

(٥) خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومى قُتل أبوه يوم بدر. قال ابن سعد وابن حبان أسلم بـِ مكة يوم الفتح وأقام بـِ مكة.[109]

وأضاف ابن عبد البر النمري أن (عمر بن الخطاب ولاّه مكة إذ عزل منها نافع الخزاعي وولاه أيضاً عثمان بن عفان عليها).[110]

ويقال إن له رواية في الحديث المحمدي بيد أن البعض ينكره.

(وأهم ما في الخبر أنه بعد فتح مكة أقام بها أي أنه أحد الذين طالبهم بنو ثقيف بـِ رءوس أموالهم، لأن ولاية عَتّاب بن أُسيْد على قرية التقديس جاءت رديْفال الفتح الأعظم).

هذا جهد المُقل في رصد بعض الصحب من بني المغيرة ممن عاضدوا (العفوّ ــ العظيم) في إفشاء الديانة التي دعا إليها وفي تدعيم أسس دولة بني سخينة في أثرب ويشهد ثبت المصادر الرفيعة التي رقمناها أنه كنّ لهم كل ود تقدير بـِ الإضافة إلى من هم بـِ مكة مثل خالد بن العاص، ولِ نضع في الوعي اليقظ أنهم من رهط سامق من قريش لا يقل عن بني هاشم الذين بلغت مكانتهم عنان السماء بين العرب والعجم ب (الألمعي/ الأمة).

هنا انتصبت مشكلة حادة، طرفاها:

<u>الأولون:</u> هم أصحاب حق في استرداد أموالهم وهم بنو ثقيف.

---

(١٠٧) (الإصابة) لِ ابن حجر العسقلاني ــ المجلد الثالث ــ ص ٢٦٣ ــ ٢٦٤.
(١٠٨) (الاستيعاب) لِ ابن عبد البر ص ١٨٢ ــ ١٨٤ ــ مصدر سابق.
(١٠٩) المصدر السابق ص ٣٥٩.
(١١٠) (الاستيعاب في معرفة الصحاب) لِ الحافظ أبي عمر.. ابن عبد البر ٣٦٨/ ٤٦٣هـ ص ــ ص ٢٧٥ ــ المجلد الثاني تحقيق طه عبد الرءوف سعد ــ على هامش الإصابة ــ سابق.

فطفقوا يطالبون بني المغيرة ــ بعد تحريم الربا ــ بِ رءوس أموالهم متنازلين عن الربا:

(قالت بنو عمرو بن عمير لِ بنى المغيرة هاتوا رءوس أموالنا ولكم الربا ندعــه لكــم فَ قالت بنو المغيرة نحن اليوم أهل عُسْرة فَ أخّرونا إلى أن ندرك الثمرة).[١١١]

ومن كتب التفسير العوالي اخترنا تفسير القرطبي:

(... وذلك أن ثقيفاً لما طلبوا أموالهم التي لهم على بني المغيرة شكوا العُسْرة ــ يعني بني المغيرة ــ وقالوا ليس لنا شيء وطلبوا الأجل إلى وقت ثمارهم).[١١٢]

وفي قرية القداسة بَكّة احتدم الشقاق بين الدائنين والمدينين وأوشك الخلاف أن يتحول إلى عراك، كيف لا والمال عند العُربان شقيق الروح.

فَ كتب عتّاب في ذلك إلى رسول الله ــ ص ــ.[١١٣]

وهذا العتاب هو والي مكة من قبل (المعلم/ المرشد ال الخير).

والآخرون: مدينون لكنهم يتمتعون بِ مكانة أثيرة ولهم سابقة (= في الإســلام) معروفــة وخدمات جليلة لِ الديانة والدولة مع عزة وشرف ونسب وحسب.

الأولون يلحّون في استقضاء ديونهم والأخيرون يستمهلونهم.

واحتدم النزاع بين الفريقين وطلبوا رفع الأمر إلى (المصون/ المُضحّم) فَ بادروا إليه بِ قرية التقديس لِ إبلاغه به.

ولا شك أنه أمر مُحيّر بيد أنه كَ المعتاد بعث (مأدبة الله = القرآن) آية كريمة تهــادت بِ اعتزاز تضم الحل.

(وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون).[١١٤]

* * *

---

(١١١) (أسباب النزول) لِ الواحدي ص ٥٩ ــ مصدر سابق.
(١١٢) (تفسير القرطبي) المجلد الثاني ــ ص ١١٧٩ ــ مصدر سابق.
(١١٣) (أسباب النزول) لِ الواحدي ــ ص ٥٩ ــ مصدر سابق.
(١١٤) الآية الثمانون بعد المائة من سورة البقرة.

هذه الآية العظيمة ندبت الثقفيين الدائنين إلى أمرين:

<u>الأول:</u> إمهال بني المغيرة حتى يخرجوا من الضيق الذي هم فيه.

<u>الآخر:</u> وهو أميز، إعفاء بني المغيرة من ديونهم.

(قوله تعالى (وأن تصدقوا) ابتداء وخبره (خير) ندب الله تعالى بهذه الألفاظ إلى الصدقة على المُعْسِر وجعل ذلك خيرا من إنظاره).(١١٥)

واستقبلها الفريقان بِ بشاشة فقد استجاب الذكر الحكيم لِ سُؤْلِهما وأحلّ الوئام بينهما بدل الخصام، والوفاق مكان الشقاق، والمُمالَحة (المواكلة) موضع المُلاحاة (اللوم العنيف).

فَ الثقيفون الديّانة سوف يُنْظِرون حتى يأتي الفرج أو يتصدقون على مدينيهم بِ مالهم. وبنو المغيرة هدأت نفوسهم لتأخير الوفاء إلى أن تتيسر أحوالهم أو ربما يخبرهم غرماؤهم أنهم عفوا عنهم وهو الخيار الأفضل بنص الآية.

وسعد (المحرّم لِ الظلم) بِ رضا الطرفين وقبولهما لما ندب إليه القرآن المجيد، الذي ينفح البرهان وراء الآخر بِ أنه دائماً معهم وأن وشيجته بهم صلبة وينقه كل ذي لب الحكمة السامية التي خفيت على أولاد الأفاعي، في انبثاقه نجوماً.

[٩]

من السذاجة بِ مكان الاعتقاد بِ أن أحوال مجتمع ما تتغير في بضع سنين، فَ العادات والتقاليد والأعراف وأنساق القيم المتجذرة في أعماق أفراده من العسير زعزعتها أو زحزحتها في وقت قصير مهما بلغت عبقرية المصلح الاجتماعي وسمو المبادئ التي يدعو إليها، إذ إن الأمر يستلزم تطويراً في الظروف المادية.

من بين الأدواء التي وجدها (الناسك/ العابد) في المجتمع الأثربي رمي المحصنات وهو قذف أو اتهام الزوجات الحرائر (لا الإماء أو الجواري) بِ الزنا أي خيانة الزوج خاصة في مجتمع النخبة لأن البعلة في الطبقة العالية تنظر إلى المخادنة نظرة سهلة لا عسر فيها وهو شأن متعارف عليه

---

(١١٥) (تفسير القرطبي) ــ المجلد الثاني ــ ص ١١٨٢ ــ سابق.

عند مثل هذه الطبقة لدى كل الأجناس وفي كافة البلدان وعلى توالي الأزمنة.

في قرية الحرتين وفي مجتمع النخبة الميسورة أو المترفة أو الغنية كثيراً ما يلاحظ الزوج أمارات الخيانة الزوجية في هيأتها وحديثها وعلاقاتها بـِ الرجال الآخرين حتى مــن ذوي قربـــاه خاصة إذا تقدم في العمر وضرب الشَمَط شعر رأسه وفَوْديه أو أصابه مرض أو هزال أقعده عـــن المعاشرة وهي ما زالت ناضجة نصف أنوثتها متفجرة وشهوتها متأججة بل ربما يـــدخل أحـــدهم داره فـَ يرى بعينيه رجلاً يركبها ويسمع بأذنيه أنينها وتأوهاتها. (عن ابن عباس في رواية الكلبي أن عاصماً (ابن عدي الأنصاري) رجع إلى أهله فـَ وجد شريكاً على بطن امرأته فأتى رسول الله ــ ص ــ)[١١٦] فـَ لا يجد الرجل أو الزوج مناصاً من أن يقذف المرَة أو الزوجة بـِ تهمـــة الزنـــا و(الغالب أن الرجل لا يقصد رمي زوجه إلاّ عن حقيقة فـَ نفس الرمى دليل على صدقه).[١١٧]

ورمي المحصنة مرض اجتماعي مركب فهو في ذات الوقت يشكّل سبباً ونتيجة، أما أنـــه الأخيرة (= نتيجة) لأنه حاصل انفلات الزوجات خاصة في الشريحة العليا والمُخدّرة عندما تســـمع أباها أو عمها أو خالها يتهم زوجته أو حتى امرأة أخرى قريبة أو غريبة، جارة أو بعيدة، يترســـب في أعماق وجدانها أن العلاقة الزوجية ليست بـِ القداسة أو حتى الطهارة التي تظنهـــا، وعنـــدما تكبر وتتزوج تحذو حذو أمها أو عمتها أو خالتها أو أختها الكبيـــرة أو جارتهـــا وهكـــذا تتحـــول الرفاقَة[١١٨] طقساً اجتماعياً مستتراً ودالته تفسخ المجتمع وتحلله، ومـــن ثـــم قابلـــه (الخاشـــع) بـِ الامتعاض والنفور وطفق يُشنّ حرباً ضروساً على أُسّ الظاهرة لِ يقضى عليها قضـــاء مبرمـــاً. ومن ثم انبثقت آية كريمة بعقاب أليم لكل من يتهم متزوجة محصنة (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون).[١١٩]

وعلاوة على جزاء القاذف الرادع فإن الزوجات لا بد أنهن يحْذرن من

---

(١١٦) (غرائب القرآن) لِ القميّ النيسابوري المجلد الثاني ــ ص ٢٤٩.
(١١٧) المصدر ذاته ــ ص ٢٥٠.
(١١٨) العامة في مصر تقول: الرَفَق فلان يرافق فلانة أي يعاشرها في الحرام وبذا تغدو كلمة الرَفَق شبه نصيحة ولا بأس من استعمالها.
(١١٩) الآية الرابعة من سورة النور.

مواصلة العلاقة الأثيمة لأنها بعد بزوغ هذه الآية العظيمة سوف تؤدي إلى صخب مدو وإلى خلخلة الرابطة الأسرية فَ الرجل أو الزوج المحدود (= طُبِّق عليه حد القذف) سوف يثأر لنفسه من التي تسببت في جلده ثمانين سوطاً. وهكذا فَ إن هذا النص المُحكم شكّل علاجاً وسطاً للمعضلة فَ الذُكران سيمتنعون عن الاتهام والنِسْوَن ــ زوجات أو غير زوجات للقاذفين لأن الآية لم تقتصر على قذف الزوجات ــ سيرتدعن ويَخْنسن عن الرَفَق.

* * *

بيد أن هذه الآية أوجدت في نفوس العرب اليثاربة ضرباً من الحروجة.

(عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما أنزلت (والذين يرمون المحصنات.. الفاسقون) قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فَ قال رسول الله ــ ص ــ: ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم؟ قالوا: يا رسول الله إنه رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط إلاّ بكراً وما طلق امرأة فَ اجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من عند الله ولكن قد تعجبت لو وجدت لَكَاع قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيّجه ولا أحركه حتى أتى بأربعة شهداء، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته..).[١٢٠]

ومن كتب التفسير أورده القميّ النيسابوريّ بنصه.[١٢١]

أما القرطبي فقد ذكر (لما نزلت الآية المتقدمة في الذين يرمون المحصنات وتناول ظاهرها الأزواج وغيرهم قال سعد بن معاذ يا رسول الله إن وجدت مع امرأتي رجلاً أمهله حتى أتى بِ أربعة! والله ل أصربنه ب السيف غير مصفح عنه. ف قال رسول الله ــ ص ــ أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني. وفي ألفاظ سعد روايات مختلفة هذا

---

(١٢٠) (أسباب النزول) لِ الواحدي ص ٢١٤ مصدر سابق.
و(لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ١٢٢ ــ مصدر سابق.
و(المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ٢٨/ ٤٨٠/ ٤٨١ ــ مرجع سابق. ووصفه المصنف بِ صحة الإسناد وأن الهيثمي قال عنه في الزوائد ٧/ ٧٤: رجاله ثقات.
ويفيد أن السيوطي ذكر أن أحمد بن حنبل أخرجه في مسنده.
(١٢١) (غرائب القرآن) ــ المجلد الثامن ــ ص ٢٤٩ ــ مصدر سابق.

نحو معناها).[١٢٢]

أي أن القرطبي رواه بـِ المعنى.

هكذا توثقت صحة هذا الحديث في المصادر التراثية المرتفعة الرتبة مـن كتـب التفسـير ومصنفات أسباب النزول.

وهو ثرّب المُعطيات منها =

(أ) سؤال سيد الأعاريب الأثاربة يَشفّ عما اعتمل في صدورهم غِـبّ أن هَلّـت الآيـة (والذين يرمون المحصنات).

(ب) مما يقطع ب أن المخادنة لدى الزوجات أمر طبيعـي لـديهم وشـأن وارد وحالـة متكررة.

(ج) وتؤيد هذا الفرض الجملة التي فاه بها سيد الخزرج: (لو وجدت لَكَاعاً تَفَخّذها رجل).

(د) أطلق سعد على الزوجة لقب لَكَاع وهو العبد أو اللئيم والمرأة لَكْعـاء أي حمقـاء[١٢٣] مما يؤكد نظرتهم المتعالية للمرَة وتحقيرهم إياها:

(هـ) جاء في الحديث نسق اجتماعي وهو أن الكبير أو الغِطْرِيف فيهم إذا تزوج وطلّـق فـَ لا يجرؤ فرد من القبيل أن ينكحها لغيرته (= السيد) الشديدة وهكذا تظل أيّما.

* * *

وليس ابن عبادة هو الوحيد الذي حاك في صدره شيء من الآية بل إننا نستطيع أن نـرقم أنه ممثل لـِ أثرياء مسلمي قرية الحرتين ولا يظن القارئ أن هذا مجرد حدس وتخمين بل حـدث بـِ الفعل.

(عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: أنّا ليلة الجمعة في المسجد إذ دخل رجـل مـن الأنصار فقال: لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فإن تكلم جلدتموه وإن قتل قتلتمـوه وإن سـكت سكت على غيظ الله ل أسألن رسول الله ــ ص ــ فـَ لما كان من الغد أتى رسـول الله ــ ص ــ فـَ سأله فـَ قال: لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فإن تكلم جلدتموه وإن قتل قتلتموه وإن سـكت سكت على غيظ، فـَ قال: اللهم افتح فـَ جعل يدعو).[١٢٤]

---

(١٢٢) (تفسير القرطبي) المجلد السابع ــ ٤٥٧٥ ــ مصدر سابق.
(١٢٣) المعجم الوسيط.
(١٢٤) (أسباب النزول) لـ الواحدي ــ ص ٢١٣. سابق.

فَ هذا أحد غطاريف عرب يثرب أهمه ما جاءت به الآية ثم أخذ يدعو: اللهم أفتح أي أحكم بِ العدل وأنت خير الحاكمين ــ ف هذا ينفح دالتين:

الأولى: أن الآية المذكورة حركت كوامن خبيثة في نفوسهم وألفوا فيهما مناسبة للتنفيس عما يضطرب في قلوبهم ويتلجلج في حنايا صدورهم ويتقلب في أعماق نفوسهم.

الأخرى: سبب للأولى وهي أن مخادنة نسونهم لفحول غيرهم عادة منتشرة وإلاّ فَ ما هو الباعث الحثيث على هذه الأسئلة لو أن المسألة افتراضية؟

ويؤكد وجهة نظرنا هذه ــ التي نعلم أن البعض يستنكرها من قوة أسطرة كافة نواحي هذا المجتمع الثُحْفة وعَدّه ذهبياً ومثالاً يتعين اتخاذه قدوة ــ ما جاء في عُجُز الخبر (فَ ابتُلى به الرجل فَ جاء هو وامرأته إلى رسول الله ــ ص ــ فَ تلاعنا... فَ قال رسول الله ــ ص ــ مه فَ لعنت، ف لما أدبرا قال:

لعلها أن تجيء به أسود جعدا فَ جاءت به أسود جعداً ــ رواه مسلم.[١٢٥]

إذن هذا الأثربي تكلم عن حالة واقعية عانى ذلها ومرارتها ورأى بِ فطرته أن الآية وضعته أمام ثلاثة خيارات عسيرة.

إذا نفّس عن قهره وتكلم عُدّ قاذفاً وجلد ظهره ثمانين جلدة وسقطت شهادته وإن قتل سِرْحَتَه (زوجته) الخؤون ورفيقها قُتل.

فليس أمامه إذن إلا أن يلتزم الصمت مغلوباً على أمره وتُخرج له منكحوته وخِدْنها لسانيهما هُزْءاً واستخفافاً.

* * *

وهذا ثالث من بنى قيلة يبهظه الحد الأدنى الذي حملته الآية العظيمة لأنه يَنْقه أن الوسط الذي يعيش فيه تأخذ الزوجات فيه راحتهن فَ يخاللن من يَرْوق لهن من الذكران المفعمين ب الفَحالة، فَ يَرْقَل إلى (الغالب) يبثه همه.

---

(١٢٥) نفس المصدر وذات الصفحة.

وفي هذه المرّة ننسخ ما ورد في واحد من كتب التفسير ذات المقام الرفيع كيما يتكامل شِقّ الإثبات ويرتفع (يزول) قطاع التشكيك والتوْهين:

(لما نزلت الآية المتقدمة قال عاصم بن عدي الأنصاري: إذا دخل منا رجل بيته ووجد رجلاً على بطن امرأته فَ إن جاء بِ أربعة قضى الرجل حاجته وخرج وإن قتله قُتل به وإن قال وجدت فلاناً مع تلك المرأة ضُرب وإن سكت سكت على غيظ اللهم افتح).(١٢٦)

وهناك احتمال أن صاحب الخبرين واحد وهو عاصم بن عدي وأن رواية الواحدي أغفلت اسمه.

إنما الذي يتجاوز رتبة الاحتمال ويرقى إلى درجة اليقين أن الآية الكريمة هزّت نخبة بني قيلة ولم ير فيها المنازيح ولا الطبقة المتوسطة أو الخفيضة في أثرب ما يحركها، لأن نِسْون الأخيرين في شُغل عن المرافقة فَ هن مهمومات بتدبير المعاش فَ على سبيل المثال أخبرتنا كتب السيرة المحمدية المعطرة أن أسماء بنت التيميّ عتيق (= أبي بكر) دأبت على أن تمشي ثلاثة أميال ذهاباً ومثلها إياباً لِ تحضر نَوى تحمله على رأسها كيما تعْلف به الفرس الوحيد لزوجها الزبير بن العوام.(١٢٧)

إن الذي يقطع بِ انزعاجهم البالغ من الآية الكريمة المذكورة هو توجههم إلى (ذي البيان) وطرح ملاحظاتهم عليها بين يديه الشريفتين ولعلها المرّة الأولى التي فعلوا فيها هذا الصنيع الذي يشى بِ ثورة مكتومة.

وهنا انتصبت مشكلة، فَ صفوة الخزرج والأوس أثارت رَهجَاً (غباراً) حول الآية وزَمهرت (احمرت) عيونهم من حد القذف الذي تضمنته وهم سادة يثرب هذا من رجا. ومن صوب آخر فَ إن رمى المُحصنات داء اجتماعي وبيل له سبب وبيء ويفرز عواقب وخيمة ومن ثم يتعين القضاء عليه قضاء مبرماً.

كما أنه إذا تمت الاستجابة لِ الأعاريب الأثاربة انفتح الباب أمام جميع التبع ل التعليق (بالنقد) على أي نص يأتي به (السبع المثاني/ القرآن). وهذا شأن غائر الخطورة بل هو إن تحرّيت الدقة مدمر. وهنا وعلى هدى

---

(١٢٦) (غرائب القرآن) ل القميّ النيسابوريّ ــ المجلد الثامن ص ٢٤٨، مصدر سابق.

(١٢٧) أصبح بعد الغزو النهبوى الاستيطاني الذي تم في عهود التيميّ أبي بكر والعدويّ عمر والأموي عثمان يمتلك ثروة أسطورية نتاج عرق الفلاحين الذين أطلقوا عليهم لقب العُلوج في الدول التي وطئوها بِ سنابك أحصنتهم المبروكة مثل مصر وفارس والعراق والشام وشمال إفريقية.ا.ه.

السنة (= الطريقة) التي استنها لنفسه (مأدبة الله/ القرآن) تتفتح أكاميْم آية كريمة يتروّح صفوة بني قيلة شذاها العطر ورائحتها الفوّاحة وطيبها الذكي فـَ تنفثئ غضبتهم وتَبُـوخ هَـوْجتهم وتتطفـئ ثائرتهم وتفتر هوْشتهم:

(... فـَ ما لبثوا إلاّ قليلاً حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشياً فوجد عند أهله رجـلاً فرأى بـِ عينه وسمع ب أذنه فلم يُهيْجه حتى أصبح، وغدا على رسـول الله ــ ص ــ فقـال يـا رسول الله: جئت أهلي عشياً، فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسـول الله ما جاء به واشتد عليه فقال هلال: والله إني ل أرجو أن يجعل الله لي مخرجاً فقال سعد بن عبـادة الآن يضرب رسول الله هلال بن أمية ويبطل شهادته في المسلمين، فقال هلال يا رسول الله: إنـي قد أرى ما قد اشتد عليك مما جئت به، والله علم أني لصادق ــ فـوالله إن رسـول الله ــ ص ــ يريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه القرآن.. فـَ أُنزلت (والذين يرمون أزواجهم ولـم يكـن لهـم شهداء إلاّ أنفسهم.. إلى آخر الآيات السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة مـن سـورة النـور.[١٢٨] وهي الآيات المعروفة بـِ آيات الملاعنة أو اللعان.

ومن بين النقاط التي تهمنا أن هلالاً هذا من ذوي السعة وأصحاب اليسـار فهـو يمتلـك الحيْطان (كروم ــ النخل) والبساتين وينشغل فيها من الصباح إلى المساء ولا يعود إلا في العشـي (حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشياً) فـ لا تجد البَعْلة الشابة أو الناضجة مناصاً من إطفـاء شهوتها عند غيره خاصة أن هاته الأعرابيات ليس لديهن أنشـطة ثقافيـة أو فنيـة أو اجتماعيـة تصرفهن عن سيطرة غريزة الجنس عليهن مع توفير أزواجهن لهن الدعة والبَلَهنيّة.

ومما له دلالة عميقة أن هذا الهلال المخدوع تقدم في العمر ولم يعد له أرب في ملامسـة النِسْون وهو ما صرحت به الزوجة الخائنة إذ إنه أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزاة تبـوك ومـِن ضمن الجزاء الذي وقعه عليهم (صاحب العلو والدرجات) مقاطعة المسلمين إياهم فـَ توجهت إليه الزوجة تستأمره في أن تظل تخدمه (تعني هلالاً):

---

(١٢٨) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ص ٤٨١. ــ أخرجه الواحدي وأحمد بن حنبـل وقـال المصـنف والشيخ شاكر: إسناده صحيح.

(افتكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، قالت: والله يا رسـول الله مـا بـه حركـة إليّ).[(١٢٩)]

فَ الزوجة هنا نفست عما يجيش بِ صدرها من ضيق لِ حرمانها من الامتطاء فَ أقسمت قبل أن تصف حاله وإلاّ فَ من الميسور عليها أن ترد قائلة:

سمعا وطاعة لِ أمرك (يا سيد الثقلين).

والبَعْلة التي على هذه الشاكلة يسهل إغواؤها أو ربما هي التي سعت إلى استغواء (شريك) خاصة وأنه على مخالطة تامة بهم كيما يقوم بِ ما عجز عنه الزوج الذي أصبح كَ الشنَّ البالي.

وثانيه تلك النقاط أن (مقيل العثرات) كره قالة الزوج المخدوع واشتد عليه لأنـه أدرك أن آية رمى المحصنات والحدّ الذي قننته لم يجيئا بِ الثمرة المرجوة فَ ما زالت زوجات أرستقراطية قرية الحرتين سادرات في غِيِّهن ومستمرات في (الرَفَق) على بعولتهن مما يدفع هؤلاء إلى رميهن أو قذفهن بِ تهمة الزنا ثم يفزعون إليه لِ إيجاد مخرج.[(١٣٠)(أ)]

وتخبرنا كتب الأسباب أن ذلك (= التوجه) إلى (النور) بِ السؤال تكرر وتراكم وتضاعف مما يقطع بِ أن الخيانات الزوجية غدت ظاهره لها وزنها، وأنها تنم عن تحلل المجتمع مما يسيئه ويحزنه (أخرج البزار عن جابر ــ رض ــ قال: ما نزلت آية التلاعن إلاّ لكثرة السؤال).[(١٣٠)(ب)]

ومن نافلة القول أن نرقم أن كثرة الأسئلة التي سبقت آيات الـتلاعن تنبئ عـن أولئك السائلين الكثيرين دافعهم الحثيث وباعثهم القوى وتخضيضهم الحازب مـرده تكـرار ملاحظـتهم الريب والشكوك على منكوحاتهم.

أما ثالثة النقاط التي شدت انتباهنا فهي عبارة عن علة أخرى لِ

---

(١٢٩) (السيرة النبوية) لِ ابن إسحق ــ المجلد الثاني ــ ص ٢٨٦ ــ طبعة القطاع الثقافي ــ بِ أخبار اليوم ــ مصر ــ مصدر سبق ذكره.

(١٣٠) (أ) أسباب النزول ص ٢١٢ ــ ٢١٣.

(١٣٠) (ب) (المقبول) لِ أبي عمر نادي نادي الأزهري ــ ص ٤٨٢ ــ ووصفه بِ جودة الإسناد وقال الهيثمي في الزوائد = رجاله ثقات وقال العراقي في تخريج الإحياء إسناده صحيح.

ونهاية السول فيما استدرك على الواحدي والسيوطي من أسباب النزول لِ أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ١٦٥ ــ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م دار الصحابة لِ التراث ــ طنطا.

كراهة (قائد الغرّ المحجلين) لما صرح به هلال واشتداده عليه هي أن هذا الهلال المخدوع الـذي شاهد الخَدِيْن على بطن زوجته وسمع بـِ أذنيه تأوهاتها هو من سادة الأوس وأغنيـائهم ولـه يـد بيضاء فـَ (أمه أنيسة بنت الهدم أخت كلثوم بنت الهدم الذي نزل عليـه النبـي ص ـ لمـا قـدم المدينة).[١٣١] ومن الذين آزروا في إفشاء ديانة الإسلام وتأسيس دولة بنى سخينة فـَ هـو (شـهد بدراً وأُحداً وكان قديم الإسلام وكان يكسر أصنام بنى واقف (رهطه فـَ هو واقفيّ ا.ه) وكانت معه رايتهم يوم الفتح (= الأعظم وهو فتح قرية التقديس ا.ه).[١٣٢]

أما تخلفه هو وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع عن تَبُوك فـَ مآبه تفرغه الكامل لِ تثمير أمواله مما وزّ بعلته لِ المخادنة.

هذا الأعرابي الأثربي السيد في عشيرته قديم الإسلام والذي يحمل نيشانين:

شهود غزاة بدر والاشتراك في عراك أُحد، من الصعب أن يفتري على امرأته هذه الفرية الفظيعة. ومن رجا آخر فـَ إن جلده ثمانين على ظهره سوف يُهينه ويُذلّه، وعدم قبـول شـهادته يودي بـِ كرامته ويمرّغ اعتباره في الطين.

وجِماعه سيثير رهطه ويُحنق عشيرته ويغضب قبيلته.

* * *

وبصدد توثيق هذا الحديث الذي شكّل علة بزوغ آيات التلاعن نـذكر أن الواحـدي فـي الأسباب[١٣٣] والسيوطي في ال (لباب) أورداه ومما ذكره الأخير وله دلالة (واجتمعـت الأنصـار وقال: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة).[١٣٤]

---

(١٣١) (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لِ عز الدين بن الأثير الجزرى ــ ٥٥٥ ــ ٦٣٠هـ تحقيق محمد إبـراهيم البنا وآخر ــ المجلد الخامس ــ ص ٤٠٦ ــ د.ت ــ دار الشعب بـِ مصر.
(١٣٢) ذات المصدر ونفس الصفحة.
(١٣٣) (أسباب النزول) ص ٢١٢ ــ ٢١٣.
(١٣٤) (لباب النقول) ص ١٢٢.

أي أن الأمر أقلق قَيْلة على بكرة أبيهم مما دفعهم لِ الاجتماع والتشاور في هذا الشأن مما يشى بِ استحالته إلى ظاهرة وليس مجرد حادث فردى. ثم نعرج على كتب التفسير كيما يزداد الحديث رسوخاً وتتأكد بينته:

(سبب نزولها هو ما رواه أبو داود عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ــ ص ــ بشريك بن سحماء. فقال النبي ــ ص ــ: البينة أو حد في ظهرك.

قال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا رجلاً على امرأته يلتمس البينة؟ فجمل النبي ــ ص ــ يقول البينة وإلاّ حد ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله في أمري ما يبرئ ظهري من الحد فنزلت (والذين يرمون أزواجهم) حتى بلغ (من الصادقين).[١٣٥]

والعبارة التي وردت في الحديث (ولينزلن الله في أمري ما يبرئ ظهري من الحد) كثيفة الإيحاء مليئة ب المعنى ثرة الدلالة.

كما أن القرطبي ذكر أن الذي خرج الحديث هو أبو داود وهو أحد أصحاب الصحاح الستة، أما الفخر الرازي فقد نسخ ما يلي (ف لم يلبثوا إلاّ يسيرا) حتى جاء ابن عم له (سعد بن عبادة) يقال له هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم فقال: يا رسول الله إني وجدت رجلاً مع امرأتي رأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ــ ص ــ ما جاء به، فقال هلال: والله يا رسول الله إني لأرى الكراهية في وجهك مما أخبرتك به والله يعلم إني لصادق وما قلت إلاّ حقاً. فقال رسول الله ــ ص ــ إما البينة وإما إقامة الحد عليك.

فَ اجتمعت الأنصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد فبينما هم كذلك إذ نزل عليه الوحي).[١٣٦]

وكما لاحظنا فقد حمل الحديث النص على أن الكراهية ظهرت بِ وضوح على وجه (المقدس/ المطهر) إذ إن هلالاً تبيّنها بِ سهولة، وكذلك اجتماع بني قيلة لِ المداولة في الشأن مما يدل على اهتمامهم به، كذا فإن هلالاً هو ابن عم سعد بن عبادة سيدهم أي أن الأول من ثُلّة المجتمع فيهم.

---

(١٣٥) (تفسير القرطبي) المجلد السابع ص ٤٥٧٥ ــ مصدر سابق.
(١٣٦) (التفسير الكبير) لِ الفخر الرازي ــ المجلد الحادي عشر ــ ص ٤٧٨ ــ مصدر سابق.

وأيضاً أورد القميّ النيسابوري ذات الحديث في التفسير.[١٣٧] كما زَبَره ابـن كثيـر فـي تفسيره وقال انفرد به البخاري من هذا الوجه.[١٣٨]

ومن المُحدثين انتقشه محقق (المعجم الموضوعي) وأثبت أنه ورد في سنن أبي داود.[١٣٩]

وهكذا تضافرت كوكبة باذخة من الكتب التراثية في علمي التفسير والأسباب على تقـديم البراهين الموثقة على صحة هذا الحديث ونأيه عن المطاعن.

* * *

بيد أن القميّ النيسابوريّ يضع أيدينا على سبب آخر ل بزوع الآية العظيمة الآنفة الـذكر فـَ يقول: (أما سبب نزول الآية فقد قال ابن عباس: لما نزلت الآية المتقدمة قال عاصم بن عـدي الأنصاري: إذا دخل منا رجل ووجد رجلاً على بطن امرأته، فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك فقد قضى الرجل حاجته وخرج وإن قتله قُتل به وإن قال وجدت فلاناً مع تلك المرأة ضُـرب وإن سكت سكت على غيظ، اللهم افتح. وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عُويمر وله امرأة يقـال لـه خَوْلة بنت قيس فأتى عُويمر عاصماً وقال:

رأيت شريك ابن السَحماء على بطن امرأتي خولة فاسترجع عاصم وأتى رسـول الله فـي الجمعة الأخرى فقال: يا رسول الله ما أسرع ما ابتليت بهذا في أهل بيتي، أخبرني عُـويمر أنـه رأى شريكاً على بطن امرأته وكان عُويمر وخَوْلة وشريك أبناء عم عاصم، فدعاهم رسول الله ــ ص ــ جميعاً وقال لعُويمر: اتقِ الله في زوجتك بنت عمك ولا تقذفها فقال: يـا رسـول الله إنـي رأيت شريكاً على بطنها وإني ما قربتها منذ أربعة أشهر وإنها حُبلى من غيري، فقال لها رسـول الله ــ ص ــ اتقي الله ولا تخبري

---

(١٣٧) (غرائب القرآن) المجلد الثامن ــ ص ٢٥٠ ــ سابق.

(١٣٨) (التيسير) خلاصة تفسير بن كثير ــ ص ٧٨٠ ــ سابق

(١٣٩) (المعجم الموضوعي لِ القرآن الكريم) تحقيق حمزة النشرتي وآخرين ــ الجزء السادس ص ٦٨ ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٩٩م والناشر هو المحقق الأول (١٤٠).

إلا بما صنعت، فقالت: يا رسول الله إن عُويمر رجل غيور وإن شريكاً يُطيل التـــردد فَ حملتـــه الغيرة على ما قال فأنزل الله سبحانه وتعالى (والذين يرمون أزواجهم.. إلى آخرها).[١٤٠]

ونخرج من هذا الحديث ب الآتي:

ان الخيانة الزوجية فاشية بين منكوحات ذؤابة بني قيْلة. وأن القرابة الحميمة بين الخـــائن شريك وعويمر من جهة وبين الخؤون خولة وزوجها المخدوع من صوب آخر فهم جميعـــاً أبنـــاء عم لم تَحلّ دون (الرَفَق) وهذا مؤشر لا يخطئ على تفسخ تلك الطبقة وتحللها مـــن كافـــة القـــيم والمبادئ.

ــ أن عويمر يعرف أن بَعْلته خولة حامل من غيره ومع ذلك يظل يعيش معها تحت سقف واحد وهو شأن بالغ الشذوذ.

ــ أنه (عويمر) لم يقربها منذ أربعة أشهر والمَرة في ذياك المجتمع المعجـــب لا تصـــبر على (الدَعْس) هذه المدة بل إن ما طالعناه عن أحوالهم يؤكد أن (الحَقْر أو الـــدَكّ) لـــديهم ذكـــوراً وإناثاً طقس يومي لا بد من ممارســـته حتـــى ولـــو بـِ مخالفـــة النهـــي الجـــازم الـــذي حملتـــه النصوص.[١٤١]

ولم ينفرد القميّ النيسابوري ب الحديث المذكور بل نفحنا به الزمخشري وأضاف معلومة تعطى مزيداً من الضوء ف قال (وكان شريك نزيلهم).[١٤٢]

وإذ هو بهذه المثابة فَ يسهل عليه خِلاط نِسْونهم اللائـــي لا يمـــانعن ل أحـــوالهن التـــي رقمناها فيما سلف.

* * *

لعل مما يزيد البحث إضاءة أن نذكر نُتفاً من سيرة كل من عُويمر وشريك.

<u>أما الأول:</u> فهو (عويمر بن أبيض العجلاني الأنصاري صاحب اللعان، قال الطبري هـــو الذي رمى زوجه بـِ شريك بن سَحْماء فَلاعن رسول

---

(١٤٠) (غرائب القرآن) القمي النيسابوري ــ ص ٢٤٨ ــ مصدر سابق.
(١٤١) لِ مزيد من التفصيلات يمكنك الرجوع إلى كتاباتنا (مجتمع يثرب ــ العلاقة بـــين الرجـــل والمـــرأة فـــي العهدين المحمدي والخليفي) وقد طبع مرتين ــ دار سينا ب مصر ــ ومؤسسة الانتشار العربي ــ بيروت.
(١٤٢) (الكشاف) ل الزمخشري ــ الجزء الأول ص مصدر سابق.

الله ــ ص ــ بينهما في شعبان سنة تسع من الهجرة وكان قدم (مَن) تبوك فـَ وجدها حُبلى).[١٤٣]

أي أن خولة وقت اتهام زوجها لها مُغَيّبة ومشكلة المُغيّبات ــ وهن اللاتي يتركهن أزواجهن عند خروجهم في غزوة أو سرية أو مهمة اغتيال عدو ــ من المشكلات التي أولاها (المظفر) عناية مركزة وشدد على من يدخل عليهم إبّان غياب أزواجهن لما يعلمه عن تهافتهن على (السلّق). وكيما يطمئن أجناده الذين يستنفرهم لِ القتال على بيوتهم وإلاّ فـ س يتقاعسون عند سماعهم الصيحة.

أما الآخر: فـ (هو شريك بن سَمحاء وهي أمه واسم أبيه عبدة بن مغيث البلوي حليف الأنصار.. وعن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته بـ شريك بن سَحمْاء... ورواه مسلم والنسائي.. ويقال إن شريك ابن سحماء بعثه أبو بكر الصديق رسولاً إلى خالد بن الوليد وهو بـِ اليمامة.. ويقال: إنه شهد مع أبيه أُحداً.

وروى ذلك ابن سعد عن الواقدي بـِ سند له، قال: بعث أبو بكر إلى خالد أن يسير من اليمامة إلى العراق وبعث عهده مع شريك بن عبده العجلاني، وكان شريك أحد الأمراء بـِ الشام في خلافة عمر وبعثه عمر رسولاً إلى عمرو بن العاص حين أذن له أن يتوجه إلى فتح مصر).[١٤٤]

* * *

هنا نجد أن الحافظ وشيخ الإسلام وقاضي القضاة ابن حجر العسقلاني ذكر أن حديث رمي هلال زوجته بـِ شريك بن سحماء والذي انتهى بـِ اللعان رواه مسلم في صحيحه وهو المُصلّى (= التالي) لِ صحيح البخاري أصح كتاب بعد (المرفوع/ المطهر) عندنا أهل السنة والجماعة.[١٤٥]

وإذ أرسل التيميّ عتيق شريكاً لِ خالد بن الوليد في اليمامة وولاه

---

(١٤٣) (الاستيعاب في معرفة الصحاب) لـ أبي عمر ابن عبد البر النمري ٣٦٨/ ٤٦٣هـ ــ تحقيق طه عبد الرءوف سعد ــ المجلد الخامس ــ ص ٣٤٨ ــ دون تاريخ ــ دار الغد العربي ــ مصر.

(١٤٤) (الإصابة في تمييز الصحابة) لـ ابن حجر العسقلاني ــ المجلد الثالث ــ ص ٤٧٥ ــ مصدر سابق.

(١٤٥) أما إخواننا أهل الوصية والعصمة ونعني بهم الشيعة أخلص المحبين لآل البيت الأبرار الأطهار فهم لا يعدون صحيح البخاري كذلك لأنه ومسلم غضا الطرف عن الشمائل المُنيْفة للإمام علي كرم الله وجهه ونوّر ضريحه وعطّر مثواه، وأعرضا عن مرويات حفيده بحر العلوم جعفر الصادق قدس الله سره ونأيا بـِ جنبيهما عن مناقب أهل البيت التي اعترف بها الداني والقاصي والتي سارت بها الركبان على طول الزمان ا.هـ.

إمْرَة أحد الجيوش التي أرْقلت لِ غزو الشام واستيطانها وكسح خيراتها ليتمتع بها أعاريب الحجاز كما بعث معه العدويّ ابن الخطاب بِ رسالة يأذن فيها بِ غزو مصر (أم الـدنيا) ل عمـرو بـن العاص ذلك الذي فعل الأفاعيل هو وعساكره في أرض المصريين الذين علّموا الـدنيا الحضـارة والمدنية، فَ إنه (= شريك) وقت اتهامه بِ مُخاللة زوجتيْ هلال وعويمر في عز ورجولته وقمـة فحالته وذروة قوته.

وهكذا تكاملت الصورة أو الصورتان:

زوجة بعلها شيخ كبير أو غاب عنها ورجل يتمتع بِ فُحُولة عَارمة يخالطها ويكثر التردد عليها ف كيف لا يحدث الالتقاء المحرم.

ولذلك وتأكيداً لكل ما طرحناه ـ بعد الملاعنة ـ جاء المولـود ثمـرة الامتطـاء غيـر المشروع شبيهاً بِ شريك وليس فيه من سِحْنة البعل المخدوع ذرّة.

فَ في قصة هلال بن أمية بعد أن تلاعنا هو وزوجته (فرّق رسول الله ـ ص ـ بينهمـا وقال انظروا فإن جاءت به جَعْدا حَمْش الساقين فهو لشريك ابن سَحْماء وان جـاءت بـه أبـيض سَبْطاً أقمر العينيْن فهو لِ هلال بن أمية فَ جاءت به آدم جَعْدا حَمْش الساقين. فَ قال رسـول الله ـ ص ـ لولا ما نزل فيهما من كتاب الله تعالى كان لي ولها شأن).[١٤٦]

وسبق أن رقمنا ما رواه الواحدي في (أسباب النزول) عن صحيح مسـلم ف جـاءت بـه أسود جَعْدا ص ٢٣٢.

وهذا دليل على أنه (المولود) هو ابن شريك لأنه أسود أجعد وبُرهانُنا فيه أن هذا الشـريك الخائن يُنسب إلى أمه سَحْماء والسَحماء في معاجم اللغة هي السوداء ولا بد أنه أسود مثلها، ومـن ثم حمل ولد الزنا ذات الملامح، الأمر الذي دعا (الحجة البالغة) لأن يقول ما حمله عجز الحـديث الشريف. ومن نكد الدنيا على البلاد التي غزاها هؤلاء العُربان أن يغدو ولد الزنا واللعـان هـذا أميراً على إحدها (قال عكرمة: لقد رأيته بعد ذلك أمير مِصْـرٍ مـن الأمصـار لا يـدري مـن أبوه).[١٤٧]

* * *

---

(١٤٦) (المقبول) ل أبي عمر نادى الأزهري ص ٤٧٩ ـ مرجع سابق.
(غرائب القرآن) ل القمى الثامن/ ص ٢٥٠ مصدر سابق. ـ (التيسير/ خلاصة تفسير ابن كثير) ص ٧٨٠ سابق.
(١٤٧) (غرائب القرآن) ل القمى النيسابوري ـ الثامن ـ ص ٢٥٠ ـ مصدر سابق.

وهكذا حلّت المشكلة هذه الآيات الحاسمة ووجد فيها سادة بنى قيْلة وغطاريفهم الدواء الناجح فـَ هدأت نفوسهم واستراحت خواطرهم واطمأنت قلوبهم، ورضى (سيد الناس) لِ رضاهم، كيف لا وهم من أخلص معاونيه وقدموا الكثير الذي يند عن الإحصاء في سبيل الديانة التي يبشّر بها والدولة التي يبنيها.

وأثبت أن (الشفا ــ الإيمان = القرآن) على وشيجة متينة بهم مما يصمّت دعاوي الانفصام والتباعد والتحليق في فضاء التجريد).

كما رسخت الحكمة البالغة للتنجيم والتبعيض والتفريق التي غابت عن الأذهان الكليلة للمشركين واليهود.

* * *

[١٠]

عطية هذا هو اسمه بِ اللغة العربية، بِ الأمهرية: اصْحَمَة، لقبه «النجاشي» حاكم الحبوش كما أن كسرى ملك الفرس وقيصر إمبراطور الروم.

وعندما نزح المستضعفون من المسلمين إلى أرضه أكرم مثواهم وأحسن وفادتهم وأبلغ ضيافتهم وقال لهم: أنتم شُيُوم (آمنون) وتوعّد كل من يتعرض لهم. وأسبغ عليهم حمايته ورَفَدَهم بِ الأمان وزَبَدَهم الطمأنينة. وقابل النَزَحة المستضعفون هذا الصنيع بِ موفور الامتنان، ولذا عندما هاجم أعداؤه أرض وطنه عرضوا عليه الانخراط في جيشه بيد أنه أبى وشكرهم.

(أخرج الحاكم عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال نزل بالنجاشي عدو من أرضه فجاءه المهاجرون فقالوا: إنا نحب أن تخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا ونُجْزِيك ما صنعت معنا، فقال: لا، دواء بنصرة الله خير من دواء بنصرة الناس). ولما أرسل بنو سخينة بعثة إليه لِ الوقيعة بينهم وبينه برئاسة عمرو بن العاص.[١٤٨] ومعها هدايا جزيلة له ولِ بطاركته كيما يطرد ضعفة المسلمين من بلاده، فرفض وصاح في عمرو بن

---

(١٤٨) هنا نتذكر الدور المؤسف الذي قام به في التحكيم بين باب مدينة العلم الإمام عليّ أبي الحسنين كرم الله وجهه والطليق ابن أبي الطلقاء معاوية بن أبي سفيان وتخرج بِ نتيجة هي أنك تجد هذا ال عمرو دائما في صف الباطل والخذلان ا.ه.

العاص[١٤٩] ومن معه (لو أعطيتموني دَبْراً (= جبلا) من ذلك ما سلمتهم إليكم.

ثم أمر فُردّت عليهم هداياهم ورجعوا بِ شر خيْبة).[١٥٠]

وأورد الواقدي القصة بِ تمامها مطولة في مغازيه.[١٥١]

ولما بلغه نصر المسلمين في غزاة بدر هنا النزحة وعلى رأسهم جعفر ابن أبي طالب رضوان الله تعالى عليه ولبس ثوبين وجلس على الأرض مباشرة تواضعاً وشكرا لله اقتداء بِ عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم.[١٥٢]

ولما أرسل (الناصح) إليه كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام تلقاه بِ الحفاوة والتجلّة بعكس ما فعله الطاغية كسرى أنوشروان.

بيد أن الدور المتميز الذي أداه أصحَمة (النجاشي) والذي فاق كل ما قدمه هو تزويجه (المستقيم) لِ رملة (أم حبيبة) بنت أبي سفيان التي نزحت إلى الحبشة هي وزوجها عُبيد الله جَحْش وهناك حَنّ لديانته الأولى ــ النصرانية ــ فَ ارتدّ عن الإسلام إليها. وبقيت الزوجة تعاني آلام الغربة عن الوطن وفراق الزوج بيد أن (الصَفِيّ) من المستحيل أن يدع هذه الفرصة تفلت، فَ هي حقيقة ناهزت الأربعين ــ وهي سن متقدمة في ذياك المجتمع الذي تَعْرك (تحيض) فيه الجارية (الصبية أو الفتاة الصغيرة السن) في التاسعة أو العاشرة ــ وليس لها سِحْر صَفِيّة ولا ملاحة جُويرية ولا حُسن أم سلمة ولا جمال زينب[١٥٣] ولا فتاء التيمية بنت عتيق ولا وضاءة ابنة مصر القبطية. ولكنها بنت زعيم قريش ونكاحها سيكسر عينه ويخفف من غُلوائه ويُطامن شِرّته ويستّلّ سَخيْمته ومن ثم بعث إلى (عطية) لِ يخطبها له فَ شَمّر عن ساعديه السوداوين واستجاب له. وأصدقها أربعمائة دينار دفعها لوليّها في العقد خالد بن سعيد بن العاص ثم أقام وليمة تليق بِ الملوك دعا إليها النَزَحة ثم عاد بها المبعوث إلى

(١٤٩) ذلك الذي فعل الأفاعيل هو وباقي الصحاب وعسكره في أرض الحضارة التي لم تتكرر حتى الآن: مصر ا.ه.

(١٥٠) (إمتاع الأسماع) لِ المقريزي ــ الأول ــ ٢٤٥.

(١٥١) (المغازي) المجلد الثاني ص ٧٤٢ ــ ص ٧٤٣ مصدر سابق.

(١٥٢) (المغازي) لِ الواقدي ــ الأول ــ ص ص ١٢٠ ــ ١٢١.

(١٥٣) (نساء النبي) لِ بنت الشاطئ ــ ص ١٧٨ ــ مرجع سابق.

أثرب وقد قيل إنه عمرو بن أمية الضِمْرى أو شرحبيل بن حَسَنَة.[١٥٤]

* * *

هذا النكاح تم في العام الهجري السابع أي قبل فتح مكة بما يقرب من سنتين وشكل خبْطة سياسية شقّت عن الحذق ودلت على المهارة وأبانت على الحَصافة ــ وفي رأينا أنه الزواج السياسي الفريد بخلاف الأنكحة الأخرى التي يدّعي الطبالون أنها سياسية.[١٥٥]

ورقمنا فيما سبق أن آية عظيمة من الذكر الحكيم هلّت بِ طلعتها الفائقة البهاء والتألق تبارك هذه الزيجة التي جاءت في عُقْبانَها نتائج بواهر يأتي في مقدمها تَلْيِيْن جُموح صخر بن حرب (= أبي سفيان) واستمالة بني أمية وهم من ذؤابة بني سخينة ويجمعون بين المال والدهاء السياسي.

* * *

هذه هي الأيادي البيض التي قدمها (النجاشي عطية) لِ (الراضي) ولصحبه المستضعفين الذين نزحوا إلى بلاده.

لذا عندما توفي صلى عليه (المهذب/ المطهر) وأمر صحبه أن يصلوا عليه. (قال جابر بن عبد الله وأنس (= بن مالك) وابن عباس وقتادة: نزلت في النجاشي، وذلك لما مات نعاه جبريل ــ س ــ لِ رسول الله ــ ص ــ في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله ــ ص ــ لأصحابه أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم، فقالوا من هو؟ فقال النجاشي، فخرج رسول الله ــ ص ــ إلى البقيع وكُشِفَ له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وكبّر عليه أربع تكبيرات واستغفر له وقال لأصحابه: استغفروا له..).[١٥٦]

هذا الحديث الذي رواه ثلاثة من مشاهير الصحب نستقطر منه معلومات ثمينة منها أنه:

---

(١٥٤) (السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين) لِ المحب الطبري ص ١٦٢ وما بعدها.

(١٥٥) من هؤلاء الطبالين أعاجم وفرنجة منهم مونتجمري واط عند تناوله واقعة نكاح (صاحب التاج) زينب بنت جحش.

(١٥٦) (أسباب النزول) لِ الواحدي ــ ٩٣ ــ مصدر سابق.

(١) أظهر أن السماء شديدة العناية بِ أمر أصحمة (عطية النجاشي) حتى إنها كلفت ملاك الرب أو رئيس الملائكة جبريل أن يبلّغ (الكافي/ الكريم) خبر وفاته في ذات اللحظة.

والراجح عندنا أن حياطته من قبل السماء بِ هذه الرعاية المكثفة عِلّتها: موقفه الرائع من النَزَحة المستضعفين عندما حطّوا رحالهم في أرضه ولِ أدائه دور الخاطب في تزويج رَمْلة بِ (الغالب) وفي القرآن المجيد (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان).

(٢) حمَل (= الحديث) خبر معجزة حدثت لِ (الطاهر) وهي رؤيته أرض الحبشة وهو في أثرب ثم أبصر سرير النجاشي.[١٥٧]

ونحن نهدي هذه المعجزة لِ مُتحذلقي الكتبة المحدثين الذين ينكرون معجزاته خلا (معجزة القرآن الكريم الخالدة)!!

وحتى اللحظة لا أدري لِمَ ينكرون عليه هذا الضرب من المعجزات، في حين أن البطاركة الأعاظم: إبراهام وموسى وعيسى وغيرهم أتوا ب أو حدثت لهم خوارق ومدهشات وأعاجيب. وهو في نظرنا يفوقهم عبقرية ومنزلة ومواهب وشمائل ومناقب وكتابه (القرآن العظيم) أميز من كتبهم؟

(٣) أخبر الصحب أن (عطية) هو أخوهم وأمرهم بعد الصلاة عليه أن يستغفروا له.

* * *

بيد أن الأمر بِ الصلاة على النجاشي عطية والاستغفار له ساط في نفوس الأصحاب فَ هو ١ ــ عبد ٢ ــ حبشي ٣ ــ نصراني. والتفت بعضهم إلى بعض يتساءلون: كيف؟

(روى النسائي عن أنس قال: لما جاء نعي النجاشي قال رسول الله ــ ص ــ: صلوا عليه قالوا كيف نصلي على عبد حبشي).[١٥٨]

هذا الحديث خرّجه النسائي (أحد أصحاب الصحاح الستة) أعلى دواوين السنة مرتبة والذي يماري في ما ورد فيها يُشكّك في المصدر الثاني ذاته.

---

(١٥٧) هذا هو السر في أدائه وصحبه صلاة الغائب أو الميت عليه.

(١٥٨) (لباب النقول) لِ السيوطي ــ على هامش (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) لِ الفيروز آبادى ــ ص ٧٣ ــ مصدر سابق.

وراويه هو أنس بن مالك خادم (المتضرع في الدعاء) ومن مشاهير الصحبة. وأضاف السيوطي أن ابن جرير الطبري رواه في تفسيره (أو روى نحوه) عن جابر. أما الحاكم في «المستدرك» فقد عزاه إلى عبد الله بن الزبير وهو ذاته صحابي معروف، أمه التيميّة أسماء بنت عتيق وخالته التيميّة عائشة وأبوه الزُبير بن العوام الحواريّ واحد العشرة المبشرين بـِ الجنة.

ونحن نسأل من يُحاجّ فيه: ماذا تريد أكثر من هذه الكوكبة الفريدة التي تحلّقت حول هذا الأثر الشريف؟

(أخرج النسائي والبزار والطبراني عن أنس ــ رض ــ أن النبي ــ ص ــ صلى على النجاشي حين نُعِي، فقيل يا رسول الله، (نصلي على عبد حبشي).[١٥٩]

والذي يهمنا في هذا الأثر الشريف أن أولئك العُربان وصفوا (النجاشي) وهو ملك وقدّم جميلاً لِ عدد وفير من سابقيهم المستضعفين ولقائدهم (سيد الكونين) ووصفوه بـِ العبد مما يقطع بـِ مدى ما يتسمون به من كبرياء وخُنزوانة. وفي رواية أخرى وصفوه بـِ العِلْج وهو وصف زراية وتحقير يطلقه أولئك العَرَبَة على غيرهم من الشعوب كما درج الرومان على تسمية خلافهم بـِ البرابرة، بيد أن هؤلاء يُلتمس لهم شطر من العذر لأنهم أصحاب حضارة وعلم وثقافة ومدنية أما هؤلاء الأعاريب فـَ هم مليطون من جِماعه فـَ علام هذه العَنْجهيْة. ومن مهازل التاريخ أنهم فيما بعد أطلقوا هذا اللقب المهين على مواطني الدول التي دَعَسُوها بـِ خيولهم المباركة: مصر، فارس، العراق، الشام، مع أنها أعلى منهم بـِ ما لا يقاس في مدارج الحضارة والمدنية ولكن كما قال سيدهم (صاحب زمزم):

إذا لم تَسْتَحِ فـَ اصنع ما شئت.

---

(١٥٩) (المقبول) لِ أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ١٩٢ ــ مرجع سابق. ونجد هنا أن المصنف زاد على النسائي: البزار والطبراني، وأضاف في هامش الصفحة أن الهيثمي قال في الزوائد: رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجال الطبراني ثقات.
ووضعه الأزهري المصنف أو المصنف الأزهري بـِ أن إسناده حسن

* * *

اتباعاً لِ المنهج الذي التزمناه نثنّي بما تضمنته كتب التفسير بخصوص هذه الواقعة زيادة في التوثيق ونكتفي بـِ ما أورده القرطبي:

قوله تعالى: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بـِ الله) إلى آخر الآية.

قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة والحسن: نزلت في النجاشي وذلك أنه لما مات نعاه جبريل ــ س ــ لرسول الله ــ ص ــ فقال النبي ــ ص ــ لأصحابه: قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي، فقال بعضهم لبعض نصلي على عِلْج من عُلُوج الحبشة، فـَ أنزل الله تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم أولئك يُؤتون أجورهم مرتين).[١٦٠]

هكذا نجد أن الصحب استهولوا الصلاة على النجاشي لأنه عِلْج وهو كما قلنا وصف يؤكد ما ذكرناه عن استكبارهم وشُموخهم بـِ آنافهم على خلق الله دون مبرر أو سند لهم يُبيْحُه وعلى النقيض التام للمبادئ السامية التي حاول غَرْسها فيهم (المُبيْح) مثل قوله الشريف (كلكم لِ آدم وآدم من تراب).

* * *

وتَبلور الموقف كالآتي:

إما أن ينفذ أمر (الأوسط) ويصلي بهم صلاة الميت الغائب على (عطية/ أصحمة) ويستغفر هو وهم له وهو شأن له قدره من الأهمية لأن عدم انصياع التبَع لما يشير به عليهم بادرة مرفوضة ويتعين في التو ــ لا بعد حين ــ قمعها والقضاء عليها.

كما أن الإعراض عن الصلاة على النجاشي فيه بَخْس لِحقه وإنكار لما قدّم من خدمات وتجاهل لِ صاحب فضل وهذا مُنافٍ لحديثه الكريم:

«من صنع فيكم معروفاً فـَ كافئوه».

هذا من صوْب. ومن شِق آخر فـَ قَسْر الصُحبة على أمر يكرهونه نعني

---

(١٦٠) (تفسير القرطبي) المجلد الثالث ص ١٦٥٤ سابق.

الصلاة على (عطية/ أصحمة) سوف يصيبهم بـِ الضيق المكتوم والنفور المُغَطّى والحنق المستور، وهو حريص على مشاعرهم حَفِيّ بـِ أحاسيسهم مهتم بـِ عواطفهم لا يسعى لـِ إحراجهم ولا يعمل على مضايقتهم ولا يقدم على مساءتهم.

إذن ما الحل؟

لا يقف (مأدبة الله/ القرآن) في جانب السلب أو حتى في جهة الحياد فـَ تَنْبجس منه آية مجيدة كـَ النهر العذب تَبُلّ ريقهم بل وتروي عطشهم، وهي الآية التاسعة والتسعون بعد المائة من سورة آل عمران. وبعد أن تضلّعت عروقهم من الريّ ينْقَهُون أن القرآن المجيد قد تكرّم بـِ تقديم إجابة شافية عن التساؤل الذي توجهوا به إلى (الآمر/ الناهى) وأن (عطية/ النجاشي) ليس عِلْجاً، بل هو على قُلّة أهل الكتاب وأنه مؤمن بالله تعالى وبـِ القرآن والإنجيل ومن الخاشعين الذين لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، وأنه من الذين يُؤتيهم ربهم أجرهم مرتين.

فـَ أدركوا أن من هذا شأوُه يستحق التكريم حياً وميتاً فـَ رضوا بـِ الصلاة عليه وأشرقت أسارير (الناسك) بِشْراً وحُبُوراً بـِ اقتناع أصحابه وأدائهم الصلاة والدعاء لـِ (عطية/ أصحمة)، ومن رجا آخَر دائماً يزبدنا (الذكر الحكيم) بـِ أن ملاحظته لهم لا تَفْتُر أبداً وأنه في كل نازلة ينفحهم بـِ آية عظيمة تهديهم إلى سواء السبيل وكيما يقتنع من له قلب أو يلقي السمع وهو شهيد أن الحكمة كلها في ظهوره الرائع نُجُوماً متفرقة حسب أحوالهم وأن ربَاطه بـِ مجتمعهم وثيق.

* * *

تلك أمثلة عشرة عن انبثاق آيات (القول/ المحكم) للإجابة على تساؤلات الصحاب وللرد على استفساراتهم ولـِ إيضاح استبياناتهم. ونعتقد أن فيها غُنية ولها الصلاحية الكاملة للقيام بدور البيّنة على الفرض أو الفروض التي طرحناها ومن ثم نكتفي بها إذ توجد بـِ جانبها العشرات، ونضع في الاعتبار أننا لسنا بـِ صدد إحصاء أو استقصاء، وكل ما يعنينا أن يفطن القارئ إلى ما نؤمه ويدرك ما نتغياه ويَفْقه ما نرمي إليه خاصة أن الموضوع بكر لم يسبق تناوله.

* * *

الفصل الثالث

آيات هلّت موافقة لِ عبارات فَاهَ بها بعض الصحاب، أو اقتراحات قدموها، وأخرى توقعوا بزُوغها في بعض المواقف

قدمنا في الفصل السابق أن (السبع المثاني/ القرآن) أشرقت آيـــات عديـــدة منـــه تحقيقـــاً لرجاوات صحابيات وصحابة، بيد أنه لم يقف عند هذا الحد بل خطا خطوةً أروع وهـــي تقـــديمهم آيات كريمة قريبة أو حتى مُشاكلة لِ جُمل تكلم بها واحد أو أكثر منهم.

ونوع آخر آيات مجيدة بزغت بناءً على اقتراحات طرحوها على (الظفور) فـَ لاقت منـــه استحساناً وصادفت قبولاً وألْفت ارتياحاً ووجدت استجابة وقابلت ترحيباً.

* * *

أشهر التبَعَ في المضمار هو العدويّ ابن الخطاب:

(روى البخاري وغيره عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث، قلت يا رسول الله لو اتخـــذت من مقام إبراهيم مُصلى؟ فنزلت (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت يا رسول الله أن نســـاءك يدخل عليهن البَرّ والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله ــ ص ــ نساؤه في الغيرة، فقلت لهن عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيـــراً مـــنكن، فنزلـــت الآية.

وله طرق كثيرة منها أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر قال:

لما طاف النبي ــ ص ــ قال عمر: هذا مقام أبينا إبراهيم؟

قال: نعم، قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى).

الآية الخامسة والعشرون بعد المائة من سورة البقرة.[١]

الحديث أخرجه البخاري وهو من هو وابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهم.

وأورده أبو عمر نادي الأزهري بنصه وعزاه إلى البخاري وغيرهم في (نهاية السول).[٢]

أما في (المقبول) فقد ذكر أن الترمذي والنسائي (وهما من أصحاب الصحاح الستة) أخرجاه عن أنس.[٣]

وذكر الحافظ ابن عبد البر النمري (.. ومن حديث ابن عمر أيضاً قال: نزل القرآن بِ موافقته في أسرى بدر، وفي الحجاب وفي تحريم الخمر وفي مقام إبراهيم).[٤]

* * *

فإذا انعطفنا إلى كتب التفسير، نجد عند الإمام الرازي (.. ما روى أنه ــ ص ــ مَرّ بالمقام ومعه عمر فقال يا رسول الله: أليس هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: بلى، قال أفلا نتخذه مصلى؟ قال: لم أُومر بذلك فلم تغب الشمس من يومهم حتى نزلت الآية).[٥]

هذا الحديث ذكر لنا أن الآية المجيدة أقبلت بأريْجها العَطِر في ذات اليوم أو بعد سويعات من ملتمس العدويّ عمر.

ويحدد ابن جَزّى الكلْبيّ ما حدث أي انبعاث الآية المذكورة بِ الآتي: (وافق قول عمر ــ رض ــ لو اتخذت من مقام إبراهيم مُصلى).[٦]

أي أن الآية الحميدة ومطلب ابن الخطاب توافقا، أي جاءت حروفهما

---

(١) (لباب النقول) لِ السيوطي ــ طبعة الشعب ــ ص ١٨.
(٢) (نهاية السول) ص ٢٧.
(٣) (المقبول) ص ٨٧.
(٤) (الاستيعاب) الخامس ص ١٤٢ ــ سابق.
(٥) (مفاتيح الغيب ــ التفسير الكبير) ل الإمام فخر الدين الرازي ــ المجلد الثاني ــ الجزء الرابع ــ ٤٠٣ ــ سابق.
(٦) (كتاب التسهيل لِ علوم التنزيل) الجزء الأول ــ ص ٦٠ ــ مصدر سابق.

متطابقة، وسوف نرى أنه تكرر ولعل هذا يضيء لنا حَفَافَ الحديث المحمدي الشريف:

(وروى من حديث عُقبة بن عامر وأبي هريرة عن النبي ــ ص ــ أنه قال: لو كان بعدي نبي لكان عمر).[٧]

فَ هل انبِجاس آيات كريمات من (البشري/ القرآن) مَشاكِلة لِ الألفاظ التي يدلي بها العدوي أحد أسباب ورود الحديث سالف الإلماع؟

* * *

أما القرطبي فَ هو يرتفع بعدد موافقات العدويّ لِ الذكر الحكيم إلى أربع:

(عن أنس بن مالك قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع:

قلت: يا رسول الله لو صليت خلف المقام، فنزلت الآية (واتخذوا من مقام.. الخ).

وقلت يا: يا رسول الله لو ضربت على نسائك الحِجَاب فإنه يدخل عليهن البَرّ والفاجر فأنزل الله (وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب)، ونزلت هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) فلما نزلت قلت أنا تبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت (فتبارك الله أحسن الخالقين). ودخلت على أزواج النبي ــ ص ــ فقلت: لتنتهن أو ليبدله الله ب أزواج خيراً منكن فَ نزلت الآية (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن).[٨]

* * *

(أخرج البخاري والنسائي وابن ماجة عن أنس قال عمر: وافقت ربي في ثلاث.. واجتمع على رسول الله ــ ص ــ نساؤه في الغيرة فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ــ سورة التحريم ــ الخامسة).[٩]

هذا الحديث خرّجه البخاري والنسائي وابن ماجة وهم ثلاثة من أصحاب الصحاح الستة ورواه أنس بن مالك، وهو خادم (الأعز ــ الأعظم) أي أنه (= الحديث) ناء عن التجريح وورد به أن الآية الشريفة انفجرت كَ

---

(٧) (الاستيعاب) لِ ابن عبد البر ــ الخامس ــ ص ١٤٢ ــ مصدر سابق.
(٨) (تفسير القرطبي) فاتحة المجلدات ــ ص ص ٤٩٧/ ٤٩٨.
(٩) (المقبول) لِ أبي عمر نادي الأزهري ــ ٦٨٦.

النبع الصافي بِ ذات الكلمات التي تلقّظ بها العدويّ، وأكد السيوطي أن (سبب نزولها هــو قــول عمر).[١٠]

ومن كتب التفسير (عسى ربه إن طلقكن) الآية ورُوي أن عمر قال ذلــك ونــزل القــرآن بموافقته.

ولقد قال عمر حينئذ للنبي ــ ص ــ والله يا رسول الله لئن أمرتني بِ ضرب عنق حفصة لضربت عنقها).[١١]

ابن جزيّ في تفسيره للآية يؤكد أن ابن الخطاب هو الذي فاه بالألفاظ التي تضمنتها الآيــة الكريمة، أما الذي جاء في ختام الخبر فـَ لا تعليق لنا عليه إلاّ أنــه مــن هــواة قطــع الرقــاب، والطريف أنه لم يستثمر هذه الهواية المُعجبة مع الأعداء لأنه باعترافه فرّ مع الذين هربــوا مــن وجه كفار قريش في غزاة أحد.

* * *

وفي تفسير ابن كثير (عن أنس قال عمر بن الخطاب بلغني شــيء كــان بــين أمهــات المؤمنين وبين النبي فاستقريتُهن أقول لتكفّن عن رسول الله ــ ص ــ أو ليبدله الله أزواجاً خيــراً منكن حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين فقالت يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نســاءه حتــى تعظهن؟)

فأمسكت فأنزل الله عز وجل (عسى ربه إن طلقكن.. الآية).[١٢]

هذه الزوجة الشجاعة التي اعترضت العدويّ لأنه يحشر نفسه بين (الملئ) ونِسْــوَنه هــي هند أم سلمة بنت زاد الركب، رغم صلة قرابة بينهما والحق معها ولا ندري بِ سند من ديــن أو عرف اجتماعي عمل هذه العملة؟ في حين أن هناك من الصحاب لو فعلها فـَ لا أحد يُثَرّبه مثــل العباس بن عبد المطلب عم (ذى الحطيم).

(قال عمر:.. حتى دخلت على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها فقالت أم سلمة: عجباً لك يــا ابن الخطاب، دخلت في كل شيءٍ حتى تبتغي أن تــدخل بــين رســول الله ــ ص ــ وأزواجــه فأخذتني والله أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد، فـَ خرجت من عندها).[١٣]

---

(١٠) (لباب النقول) لِ السيوطي ص ١٧٣.
(١١) (التسهيل) لِ الكلبي ــ الجزء الرابع ص ١٣٢.
(١٢) (التيسير ــ خلاصة تفسير ابن كثير) ص ١٢٣ سابق.
(١٣) (أم سلمة) لِ أمينة أمزيان الحسنى ــ الجزء الثاني ــ ص ١٥٣ ــ مرجع سابق.

ونظرا لما تمتعت به أم سلمة من شخصية قيادية (نسائية) ولِ عراقة نسبها وأصالة حسبها ولِ سمو شرفها ولِ حظوتها لدى زوجها لحسنها وجمالها استطاعت أن تواجــه العــدويّ وتنتقــد مسلكه وكسرته حسب عبارته.

الخلاصة إذن أن هذه الآية التي تناولنا بِ التحليل أسباب انبثاقها تؤكد أن إشراقها نم عــن فكرة طرحها ابن الخطاب، وفي رواية أخرى بِ ذات التركيب الذي رصّه أو رصَفَه. وهناك آيــة خامسة نزلت على لسان العدويّ ابن الخطاب:

(أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن أبي ليلــى: أن يهوديــاً لقي عمر فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا. فقال عمر: (من كان عــدواً لله وملائكتــه ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) الآية الثامنة والتسعون من سورة البقرة).[١٤]

أما السيوطي فقد أورده مطولاً وفي عُجُزه (.. ثم أتيت النبــي ــ ص ــ وأنــا أريــد أن أخبره فـَ لما لقيته قال ألا أخبرك بآيات أنزلت عليّ؟ فقلت: بلى يا رسول الله فقرأ (من كان عدواً لجبريل... حتى بلغ للكافرين)، قلت: يا رسول الله والله ما قمت من عند اليهود إلاّ إليك لأخبــرك بما قالوا لي وقلت لهم فوجدت الله قد سبقني.[١٥]

والحق أنني عندما قرأت هذا الأثر لِ أول مرة حاك في صدري شيء، إذ كيف يجرؤ هذا العدويّ أن يجعل الله ذا القوة والجبروت مُسابقه؟ هَلاّ قال:

فـَ وجدت الآية المجيدة قد أشرقت أو فاحت رائحتها الطيبة كما المسك! إنما يبــدو أنــه شديد الاعتزاز بِ نفسه لدرجة أنه لم يفطن إلى ما في لفظه من تجاوز وجُنُوح!!

* * *

ثم نؤوب إلى سياق التنقير:

أورد الفخر الرازي الخبر ذاته وضَمّنه قالة العدوي لِ يهود (ولأنتم

---

(١٤) (المقبول) ص ٦٧/ ٦٨.

(١٥) (لباب النقول) ص ١٤ مصدر سابق. (أسباب النزول) لِ الواحدي النيسابوري ص ص ١٧، ١٨ ــ مصدر سابق.

أكفر من حمير).[١٦]

هنا نجد أنه خرج عن الحدود التي رسمها القرآن العظيم للمسلمين في جدالهم مــع أهــل الكتاب.

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن).[١٧]

وعن أمره الكريم لهم بأن يُحسنوا مقالهم مع كل الناس (وقولوا للناس حسناً).[١٨]

كما أننا لا نعتقد أنه لم يسمع (متمم مكارم الأخلاق) وهو يُؤدّبهم (إن الله يبغض الفــاحش المُتَفحّش).[١٩]

ولا أدري بِ أي سند حكم هذا العدويّ على الحمير بِ الكفر؟[٢٠] وهل توجــد حيوانــات كوافر وأخرى مؤمنات؟

والذي علمناه من الذكر الحكيم أن جميع ما في الأرض يسبح لله العزيز الحكيم وبداهة أنه لا يسبح له جل جلاله كافر! ولعل هذه المقالة تنفي ما يدعيه الطبّالون أنه من علماء الصــحابة، إذ لو أنه كذلك لما خرجت من شفتيه تلك العبارة الفَلُوت!.

* * *

ومن المفسرين المحدثين ألفينا عبد الله شحاته نسخ الحديث المذكور بِ قَضّــه وقَضِيضْــه من تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير الطبري وتفسير البيضاوي.[٢١]

والمصنف المذكور أستاذ بِ إحدى كليات العلوم الإنسانية بِ جامعة القاهرة، بيد أنه غَضّ الطرف عن مسألة تكفير ابن الخطاب للحمير فإما أن الهالة الأسطورية التي أحاطته بهــا جوقــة الطبالين (بداية بِ ابن

---

(١٦) (مفاتيح الغيب) المجلد الثاني ــ الجزء الثالث ص ٢٦٧ ــ مصدر سابق.
(١٧) (الآية السادسة والأربعون من سورة العنكبوت).
(١٨) الآية الثالثة والثمانون من سورة البقرة.
(١٩) عن أسامة بن زيد وهو الحِبّ ابن الحبّ خرجه أبو يعلي في مسنده وقال عنه صيارفة الحديث إنه صــحيح ا.ه.
(٢٠) من مخاريق التاريخ أن هذا العدويّ الذي مبلغ علمه أن الحمير كافرة هو الذي أعطى الأمر بغزو واستعمار واستيطان واحتلال البلد الذي هو بِ الإجماع أستاذ الدنيا في الحضارة والمدنية والعلوم والآداب وكافــة جوانــب الثقافة: مصر المحروسة.
(٢١) (تفسير القرآن الكريم) لِ د/ عبد الله شحاته ــ الجزء الأول ــ ص ١٢٥ عنــد تناولــه لِ ســورة البقــرة الزاهرة.

الجوزى حتى خالد محمد خالد مروراً بِ العقاد وهيكل) قد أعْشت عينيه. وإما سكت حتى يضمن الحصول على رخصة النشر التي تتعطف بها عليه مؤسسة شئون التقديس يُبَرْقش به (الرخصة لا المؤسسة المهيبة) كل جزء يطرحه في الأسواق.

وإذ إنه فعل ذلك فقد دخل في زُمرة الساكتين عن الحق الذين وصفهم (سيد الخلق محمد وصفاً رادعاً في حديثه المحفوظ: الساكت عن الحق شيطان أخرس).

إذ في مقدوره أو ميسوره أن يَرْقُم أنها غلطة من عمر و(أن جميع الحيوانات بريئة من الكفر بل هي مُسبّحة لله ولكن لا نفقه تسبيحها)، ولكنه آثر السلامة واختار العافية وفضّل هدوء البال وليذهب الحق وأهله لدى حيث ألقت رَحْلها أم قَشْعم.[٢٢]

* * *

كذلك وافق الذكر الحكيم العدويّ ابن الخطاب في مسألة ضرورة الاستئذان قبل الدخول على الشخص ولو أنه رجل، إذ ربما أو قل كثيراً أو عادة عندما يخلو بِ نفسه لا يتحشم لِ عدم الموجب، بيد أنه يكره وينفر أن يراه آخر مهما قرب منه على تلك الهيئة وهذا ما حدث معه بالفعل، إذ فاجأه غلام أثربي وهو في القيلولة على حال تأذى من إطلاعه عليها فَ أبدى (= عمر لا الغلام الأثربي) ضِيقه من ذلك لِ (الأوسط) وتشوفه لبزوغ آية تنظم ذلك الشأن وفعلاً أشرقت آية الاستئذان:

(قال ابن عباس وجّه الرسول ــ ص ــ غلاماً من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب ــ رض ــ وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته كذلك، فقال يا رسول الله: لو أنّ الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت إيمانكم» وهي الآية السابعة والخمسون من سورة النور.[٢٢]

ومن كتب التفسير نقتصر على ما أورده القميّ النيسابوري في ال

(٢٢) (أم قَشْعم) هي المنيّة والحرب والداهية والضبع (القاموس المحيط) لِ الفيروز آبادى و(ثمار القلوب) للثعالبي ص ٢٦٠ مصدر سابق.
(٢٣) (أسباب النزول) ل الواحدي ص ٢٢٢.

(غرائب) (يروى أن مدلج بن عمرو ــ وكان غلاماً انصارياً ــ أرسله رسول الله وقت الظهيرة إلى عمر ليدعوه فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف ثوبه فقال عمر لودِدْت أن الله عز وجل نهى أبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلاّ بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ــ ص ــ فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية).(٢٤)

* * *

إذن توافق الذكر الحكيم مع كلمات عمر بن الخطاب في عدة مواضع بأن نقلها بِ حُروفها: اتخاذ مقام إبراهيم مُصلى والعداوة لِ جبريل وميكال وتبارك الله أحسن الخالقين، وإبدال الأزواج (الزوجات) خيراً منهن، وبعضها بِ المعنى مثل الاستئذان وهو أمر بالغ الإدهاش وربما أقرب تعليل عقلاني له هو استمرار التساق العدويّ بِ (محمود).

إنما ينتصب اعتراض أو دفع بالغ الأهمية:

إن التيميّ عتيق بن أبي قحافة (أبا بكر) أطول منه صحبة وأعمق منه ملازمة فلماذا لم يفعل فعله أو يصنع صنيعه؟

فـَ يقتحم الرد بِ أن العدويّ مُلْهم ومُحْدّث، وهاتان صفتان شديدتا الإبهام، غزيرتا الالتباس، كثّتا الغموض، هذا من رجا.

ومن صوب آخر

فـَ إنهما تَشِيان بِ مَنْحَى غُنُوصِيّ.

ولقد وقفت مليّاً وتريثت كثيراً وتأنيت طويلاً أمام هذه الظاهرة.(٢٤)(أ)

فأعياني البحث وأرهقني التنقير وأتعبني التنقيب أن أجد لها حلاً عقلانياً يطمئن إليه تفكيري بل حتى يرتاح إليه وجداني.

* * *

والشطر الآخر:

هو أن يطرح العدويّ عمر فكرة أو رأياً ثم تتهادى آية كَ النجم الثاقب:

إما أن تتبنّى فكرته أو رأيه كما زَبَرْنا بشأن منع المحادثة مع نِسْوَن (العابد) ومع من يتردد عليهن في حجراتهن وألا يتكلمن معه إلاّ من وراء حِجاب أو ساتر يمنع رؤيتهن.

---

(٢٤) (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) لِ القميّ النيسابوري المجلد الثامن ــ ص ٢٣٧.
(٢٤) (أ) معلوم أن الواقعة إذ تتوافر تغدو ظاهرة.

وإلى مزيد من التوثيق:

(أخبرنا حميد بن أنس قال قال عمر بن الخطاب ــ رض ــ قلت يا رسول الله يدخل عليك البرّ والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحِجاب، فأنزل الله تعالى (آية الحجاب ــ رواه البخاري).[٢٥]

وأورده السيوطي في ال (لباب) (فقال له عمر: يا رسول الله لو اتخذت حِجاباً فإن نساءك لسن كَ سائر النساء وذلك أطهر لِ قلوبهن، فنزلت آية الحجاب).[٢٦]

وجاء به أيضاً الأزهري في المقبول ص ٥٥٤ وعزاه إلى الطبراني وابن مردويه وسبق أن رقمنا أن الواحدي أسنده للبخاري.

ثم ذكر الأزهري له رواية أخرى تزيده تثبيتا (أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود: قال فضل الناس عمر بن الخطاب بِ أربع ــ وبذكره الحِجاب: أمر نساء النبي أن يحتجبن فقالت له زينب: وإنك علينا والوحي ينزل في بيوتنا؟! فَ أنزل الله (وإذا سألتموهن) إلى آخر الآية.[٢٧]

إن العبارات التي انضوى عليها الخبر من المتعين أن تلفت النظر، فَ زوجة أخرى من زوجات (السلطان ــ الحُجّة) تنتقد العدويّ على أنه يحشر أنفه في أخص أمورهن، كما يفهم منه أن اقتراح ابن الخطاب لم يصادف قبولاً لديهن وإلا لما زَبَرته (= زجرته وزناً ومعنى) زينب بنت جحش وهي أيضاً ذات مقام رفيع لأنها نصف قرشية ونكاحها وثقته آية من (الأحسن ــ القرآن) فضلاً عن أنها أثيرة للغاية لدى (الذي اختار الرفيق الأعلى)، لما تمتعت به من وضاءة وقسامة ورداحة (سمنة) وبلدحة (بدانة).

* * *

ثم نصل لِ محطة كتب التفسير: (... إن عمر كان يحب ضرب الحِجاب عليهن محبة شديدة وكان يقول يا رسول الله يدخل عليك البرّ والفَاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحِجاب فنزلت).[٢٨]

---

(٢٥) (أسباب النزول) لِ الواحدي ص ٢٤٣ ــ سابق.
(٢٦) (لباب النقول) لِ السيوطي ص ١٤٢ ــ سابق.
(٢٧) (المقبول) لِ أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ٥٥٥ ــ مرجع سابق. ونهاية السول له ص ٢٢٢.
(٢٨) (غرائب القرآن) لِ القميّ النيسابوري ــ المجلد التاسع ــ ص ٢١٨ ــ مصدر سابق.

يلفت النظر في هذا الجزء أن العدويّ أحب ضرب الحجاب عليهن محبة شديدة فَ هل مرده وجود ابنته العدوية حفصة بينهن وسنها آن ذلك لم تتعدّ الثانية والعشرين، أم أنه غيور؟ بيد أن (المهذب) أفصح في حديث صحيح أنه يلي ربه في الغيرة، ولدى القرطبي (روى أبو داود الطيالسى عن أنس بن مالك قال: قال عمر:

وافقت ربي في أربع.. الحديث..

وفيه قلت يا رسول الله: لو ضربت على نسائك الحِجاب يدخل عليهن البرّ والفاجر فأنزل الله عز وجل (وإذا سألتموهن.. على آخر الآية).[٢٩]

وهكذا تكاملت أدلة الثبوت لِ هذا الحديث من كتب التفسير ومصنفات أسباب النزول.

* * *

بيد أن هناك حديثاً آخر يحمل سبباً مغايراً لِ هَلّ (= ظهور) آية الحجاب.

(أخرج البخاري في (الأدب المفرد) والنسائي والطبراني وغيرهم عن عائشة قالت:

كنت آكل مع النبي ــ ص ــ في قِعْب ــ أي قدح ــ فَ مرّ عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه أصبعي فقال: حِسّ أو.. أوه.[٣٠] لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزلت آية الحجاب).

وصفه المصنف بصحة الإسناد وأضاف أن السيوطي صحح إسناده في الدرّ وزاد نسبته لابن أبي حاتم وابن مردويه.

(أخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي ــ ص ــ في قعب فمرّ عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعي اصبعه فقال: أوه، لو أُطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزلت آية الحجاب).[٣١]

وأضاف السيوطي (قال ابن حجر العسقلاني.. لا مانع من تعدد الأسباب).[٣٢]

---

(٢٩) (تفسير القرطبي) المجلد الثامن، ص ٢١٨ ــ مصدر سابق.
(٣٠) (المقبول) لِ أبي عمر نادى الأزهري ــ ص ٥٥٣ ــ مرجع سابق.
(٣١) (لباب النقول) لِ السيوطي ــ ص ١٤٢ ــ مصدر سابق.
(٣٢) ذات المصدر والصفحة.

وابن حجر هو صاحب (الفتح) وهو من أقوى مصنفات شرح الحديث المحمدي.

نخرج من هذا الحديث أنه حتى وقت ظهور الآية الكريمة من المُباح أن يأكل (المشاور) وزوجته وصاحبه في طبق واحد، وإذ إنها أشرقت في السنة الخامسة فَ معناه أنه ظل كذلك ثمانية عشر عاماً أي أكثر من ثلثي عمر الدعوة الإسلامية.

ثم تسببت غَيْرة العدوي في تحريمه عليهن. ونحن نرى أن ما جاء في آية الحجاب جِماعه خاص بِ نِسْون (الواجد) ولا ينسحب على نساء سائر المسلمين، إذ هو حكم خاص بهن لِ مكانتهن العالية ورتبتهن المُنيفة ومقامهن المحمود، ومع تقديرنا لِ الفقهاء الذين ذهبوا إلى تعميم هذا الحكم على الأمة بِ أسرها فإن الذي دفعهم إليه النزعة الذكورية، وهو ليس الوحيد بل توجد عشرات الأحكام والقواعد والفتاوي التي يقبع وراءها المنزع الحثيث، وإلاّ فَ ما هو التعليل المنطقي لتأخر صدور الحكم ذاك المدى المستطيل؟ كما أن تطور المجتمعات وصعودها درجات سلم الترقى يجعل منحى الفقهاء هذا يصيب أفرادها بِ العنت والحرج والضيق وكلها حاربها القرآن العظيم. (وما جعل عليكم في الدين من حرج).[٣٣] أو أن يتخذ موقفاً محدداً خاصاً به وحده وقد يجيء مخالفاً لِ الآخرين بمن فيهم سيدهم وقائدهم (مقدم ولد آدم) فَ يؤيده (الإيمان/ الشفاء) وأبرز مثل:

مسألة أسارى غزاة بدر فَ عندما استشار (المنصور بِ الرعب مسيرة شهر) التيميّ أبا بكر فيما يفعله فيهم أشار بِ الرفق بهم وأخذ الفداء منهم وقد طابق ميل (الرحمة المهداة) إذ إنه رءوف رحيم بِ الناس أجمعين.

ولما أخذ رأى ابن الخطاب ذهب إلى ضرورة ضرب أعناقهم لأن صفحتهم معه سوداء حالكة السواد فهم كذّبوه وهَزئوا به وأخرجوه من بلده ثم حاربوه ولو أنهم ظفروا به لما أفلت منهم ولم يراعوا فيه إلاّ ولا ذمة ولا صلة القرابة الحميمة.

بيد أن (المرحمة) لِ رقة قلبه ولِ شمائله التي لا ضروب لها ولِ

---

(٣٣) (الآية الثامنة والسبعون من سورة الحج)

أخلاقه العالية التي ليس لها نديد ول مناقبه المعدومة النظير أخذ بـِ مشورة عتيق بن أبـــي قحافـــة وتسلم الفداء من أهالي الأسرى ثم أطلق سراحهم.

فـَ أسرعت آية عظيمة تسجّل الواقعة وتأخذ بـِ رأي عمر وبعد أن تلاها علـــى أصـــحابه قال في أسى: لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه أحد إلاّ ابن الخطاب.

* * *

(قال ابن عمر: استشار رسول الله ــ ص ــ في الأسارى أبا بكر فقال: قومك وعشيرتك. خلّ سبيلهم. واستشار عمر فقال اقتلهم، ففاداهم رسول الله ــ ص ــ فأنزل الله تعالى: «مـا كـان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخن في الأرض»، قال تلقى النبي ــ ص ــ (عمر) فقال: كـاد أن يصيبنا في خلافك بلاء).(٣٤)

من هذا الأثر الشريف يتضح لنا أن (المُعزّز) دأب على استشارة أبي بكر وعمر ومن ثـم فهما وزيراه.. والأمر بـِ النسبة لِ التيميّ طبيعي أو بديهي إنما بـِ النسبة لِ العدويّ فـَ هو مثـار تساؤل: لماذا خصّه (الغوث) بـِ هذه الرتبة من دون الصحاب مع أن من بينهم من هو أسبق منـه في اعتناق الديانة التي بشّر بها ومنهم من وُلد قبله (يعني أسنّ منه)، ومنهم من ينتسـب لِ فـرع أطول قامة من رهطه بني عديّ في قبيلة بني سخينة ومنهم من هو أعلم منه واحفـظ لِ القـرآن العظيم؟ هل بسبب قوة شخصيته التي أطبق الجميع عليها، أم لأن الإسلام تعـزّز بـه واسـتعلن المسلمون بعد تواريهم عن الأنظار واختفائهم في دويرة الأرقم بن أبي الأرقم؟

إنه من الجائز أن يتمتع شخص بـِ قوة الأسر ومتانة البنيان وفَتْل الذراعين وشدة العضـل ثم تبلوه فـَ تلفاه فَطِيْر الرأي أفيْن العقل، ركيك الفكر، هزيل القريحـة، ضـيّق الأفـق، أعشـى البصيرة! وعلى كل فإن تقريب (الهُمام) لِ العدويّ واتخاذه المستشار المُصَـلى (= التـالي) بعـد عتيق دون غيره من الصُحبة رغم ما تمتعوا به من شمائل وامتازوا به من مناقب

---

(٣٤) (أسباب النزول) لِ الواحدي ــ ص ١٦٠ ــ مصدر سابق.

وانفردوا به من تحاميد، أُحْجِيّة من أحاجي التاريخ الإسلامي وكم فيه من الغاز.

* * *

(روى أحمد وغيره عن أنس قال: استشار النبي ــ ص ــ الناس في الأسارى يوم بدر فقال إن الله قد أمكنكم منهم، فقال عمر بن الخطاب:

يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه فقام أبو بكر فقال:

نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، فأنزل الله..).[٣٥]

ثم أتحفنا السيوطي بِ رواية أخرى مقاربة:

روى أحمد والترمذي والحاكم وابن مسعود قال:

لما كان يوم بدر وجيء بِ الأسارى، قال رسول الله ــ ص ــ:

ما تقولون في هؤلاء الأسارى ــ الحديث، وفيه نزل القرآن بِ قول عمر (ما كان لنبي أن يكون له أسرى إلى آخر الآيات).[٣٦]

والفقرة العُجْز فيها (= في هذه الرواية) بالغة الثمانة لأنها نصّت على أن الآيات الكريمات:

(ما كان لنبي أن يكون له أسرى.. الخ) جاءت على لسان ابن الخطاب أي أنه فاه بها أولاً ثم ضمّنها الذكر الحكيم آياته هذه. وبذا لا يغدو عمر هو صاحب الفكرة فَ حسب بل نطق بِ الكلمات التي حملتها الآيات العظيمات، وبهذا تضاف إلى ما سبقتها من آيات حكيمات، وافق فيها العدوي الذكر الحكيم مثل الآية الكريمة الخاصة بِ اتخاذ مَقَام إبراهيم مُصلى، ومنذ تلك الساعة ومئات الملايين من تبع (النور) يصلّون فيه فَ هل ينال ابن الخطاب شطراً من ثواب صلواتهم؟

هذا ما لم اتحققه، لأن كتب العلوم الإسلامية التي طالعتُها لم تتحدث عنه، ولكن لو صَحّ لَ صار نصيب العدويّ من الحسنات يستعصي على الإحصاء.

---

(٣٥) (لباب النقول) لِ السيوطي ص ٩١ وهو هنا ذكر أن مصدره هو أحمد بن حنبل في (مسنده).
(٣٦) (ذات المصدر والصفحة).

(نصل الآن إلى كتب التفسير:

(ما كان لنبي أن يكون له أسرى) لما أُخذ الأسرى يوم بدر أشار أبو بكر بحياتهم وأشار عمر بقتلهم فنزلت الآية عتاباً على استبقائهم).[٣٧]

هنا يصف ابن جَزي الآية على أنها عتاب على استبقاء الأسارى. والأصوَب في رأينا أنها تشريع يتعين اتباعه في الوقائع المشابهة. وينسخ الفخر الرازي الحديث بشيء من التطويل وجاء فيه (فقام عمر وقال: كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء فمكّن عليّاً من عقيل، وحمزة من العباس ومكّن من فلان ينتسب له فنضرب أعناقهم.. ومال إلى قول أبي بكر).[٣٨]

ولا ندري كيف يواجه الإمام عليّ رضى الله عنه وكرم الله وجهه إخوة عقيل وأسرته لو قتله؟ وكيف يصبح موقف حمزة من أم الفضل (مَرَة العباس) وأولادها منه لو نفّذ مشورة العدويّ وقتل أخاه الذي هو في ذات الوقت عم (يس) الذي أفزعته تلك المشورة فـَ قال لصاحبها:

أتأمرني أن أقتل العباس؟ فـَ جعل عمر يقول: ويل لعمر ثكلته أمه).[٣٩]

لقد استشعر العدويّ بشاعة رأيه. وينتقش القرطبي ذات الحديث وفي مؤخرة الرواية (.. فقال رسول الله ــ ص ــ إن كاد لَيصيبنا في خلاف ابن الخطاب عذاب، ولو نزل عذاب ما أفلت إلاّ عمر).[٤٠]

نخرج من هذا الأثر الشريف أن (المهيمن/ المبارك) توافق مع مذهب ابن الخطاب في ضرورة تصفية أسرى بدر جسدياً وعدم استبقائهم، ولو نزل عذاب من السماء مثلما حدث على عهود (الكُمّل) السابقين لـَ أفلت منه العدويّ منفرداً وهو أمر بالغ الإدهاش.

بيد أن القميّ النيسابوري زاده توثيقاً فـَ بعد أن روى حديث الاستشارة أردف به حديثاً آخر (وروى أنهم لما أخذوا الفداء نزلت الآية فـَ دخل عمر على رسول الله ــ ص ــ فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال: يا رسول الله أخبرني:

---

(٣٧) (التسهيل لعلوم التنزيل) لِ محمد بن جَزِيّ الكلبيّ ــ الجزء الثاني ــ ص ٦٨.
(٣٨) (التفسير الكبير) لِ الفخر الرازي ــ المجلد السابع ــ الجزء الرابع عشر ص ص ٥٣٨ ــ ٥٣٩.
(٣٩) (ذات المصدر ونفس الصفحة)
(٤٠) (تفسير القرطبي) المجلد الرابع ص ــ ٢٨٨٦ ــ سابق.

فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاءً تَبَاكَيْت. فقال: أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عُرِض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه).[٤١]

ويفسر لنا النيسابوري نجاة عمر لو أنزل العذاب (لقوله كان الإثخان في القتل أحب إليّ).[٤٢]

وذكر الواقدي (وقبل رسول الله ــ ص ــ منهم الفداء وقال رسول الله ــ ص ــ لو نزل عذاب يوم بدر ما نجا منه إلاّ عمر، كان يقول اقتلْ ولا تأخذ الفداء).[٤٣]

وهكذا وثقْنا أن عمر بن الخطاب توافق مع الذكر الحكيم في عدد من الآيات ذهب البعض إنها ثلاث وأوصلها آخرون إلى خمس وفي هذا يقول السيوطي:

(عمر بن الخطاب نزل فيه آيات منها موافقاته الشهيرة)[٤٤] وذكر الأزهري (أفردها بعضهم بِ التأليف).[٤٥]

* * *

هناك أصحاب آخرون لهم مقترحاتهم أو موافقاتهم لِ آيات الذكر الحكيم بيد أنها أخفض شأنا مما قدمه العدويّ ابن الخطاب.

(أ) أبو طلحة

(عن أنس بن مالك قال: كنت مع رسول الله ــ ص ــ إذ مرّ من حجرة فرأى فيها قوماً جُلوساً يتحدثون ثم عاد فدخل الحجرة وأرخى السِتْر دوني، فجئت أبا طلحة فذكرت ذلك له فقال: لئن كان ما تقول حقاً لَيُنزِلَن الله فيه قرآنا فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) الآية الثالثة والخمسون من سورة الأحزاب).[٤٦]

راوي الحديث هو أنس اللَسِيْق ب (المصون) لأنه خادمه. وأورده

(٤١) (غرائب القرآن) لِ القميَ النيسابوري ــ المجلد ــ ص ٣٧٧ ــ.
(٤٢) ذات المصدر والصفحة.
(٤٣) (المغازى) لِ الواقدي تحقيق مارسدن جونز ــ الأول ص ١١٠ ــ مصدر سابق.
(٤٤) (التحبير في علم التفسير) لِ السيوطي المتوفي سنة ٩١١هـ ــ تحقيق وتقديم د. فتحي عبد القادر فريد ص ٤٣٧ ــ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦ ــ دار المنار لِ النشر والتوزيع ــ القاهرة.
(٤٥) (نهاية السول) لِ أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ٢٧ ــ مرجع سبق لنا ذكره.
(٤٦) (أسباب النزول) ص ٣٤٢ ــ مصدر سابق.

السيوطي بِ ألفاظ مقاربة وذكر أن الترمذي أحد أصحاب الصحاح السِتّة أخرجه وحسّنه وراويه هو أنس.[٤٧]

من هو أبو طلحة؟

(هو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام.. بن مالك بن النجار الأنصاري.. مشهور بكنيته أبو طلحة. من فضلاء الصحابة وزوج أم سُلَيْم، كان يرمي بين يديّ النبي ــ ص ــ يوم أُحد.. وعن أنس أن النبي ــ ص ــ لما حلق شعره بِمِنَى فرّق شقه الأيمن على أصحابه: الشعرة والشعرتين وأعطى أبا طلحة الشق الأيسر كله..).[٤٨]

يؤكد ابن عبد البر أن أبا طلحة من بنى مالك النجار من ناحيتي أبيه وأمه وأنه شهد بدراً[٤٩].

وتأكيد نسب أبي طلحة لِ بنى النجار له أهمية إذ إنهم أخوال (المُسدّد) لِ أن جده المباشر عبد المطلب (شيبة الحمد) أمه سلمى بنت زيد بن عمرو.. بن النجار رآها أبوه هاشم في يثرب وهو في طريقه إلى الشام فأعجبته فَ خطبها لِ أبيها فَ أنكحه أياها.[٥٠]

وبذا فإن طلحة بِ الإضافة إلى الأوسمة المشرِّفَة التي زيّنت صدره فَ هو يمت إلى (النَجِيْد) بِ صلة قربى حميمة. أما زوجته أم سُليم أيضاً فهي نجارية خزرَجيّة وتخرج في الغزوات معه ومنها وقعة أُحُد وهي التي قدّمت له أنَساً (من زوج سابق على أبي طلحة اسمه مالك) كيما يخدمه وطلبت منه أن يدعو له ففعل، ولها أحاديث رويت عنها وهي من عقلاء النساء.[٥١]

وهكذا وَثّقنا أن أبا طلحة لَزِيق بِ (المصُون) ومُلْتَبِك به بِ قوة ومن ثمّ عندما حكى له ربيبه أنس الواقعة حَدّس بزوغ آية كريمة ولقد صدق توقعه. وموجز الواقعة أنه في ليلة دخل (صاحب البيان) على زينب بنت جحش التي (وصفتها الرواية بِ أنها كانت بيضاء سمينة من أتم نساء قريش).[٥٢]

---

(٤٧) (لباب النقول) لِ السيوطي ص ١٤٢ ــ مصدر سابق.
(٤٨) (الإصابة في تمييز الصحاب) لِ بن حَجَر العسقلاني ــ المجلد الثالث ــ ص ٣٠ ــ مصدر سابق.
(٤٩) (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) لِ ابن عبد البر النمري ــ المجلد الثاني ــ ص ٦٤١ ــ مصدر سابق.
(٥٠) (تاريخ الرسل والملوك ــ تاريخ الطبري) لِ ابن جرير الطبري ــ الجزء الثاني ــ ص ٢٤٧ ــ مصدر سابق.
(٥١) (أسد الغابة في معرفة الصحابة) المجلد السابع ــ كتاب النساء ص ص ٣٤٥ ــ ٣٤٦.
(٥٢) (نساء النبي) لِ بنت الشاطئ ــ ص ١٣٣.

(دعا القوم فـَ طَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام قام مِن قام وقعد ثلاثة نَفَر، فـَ جاء النبي ليدخل فإذا القوم جُلـوس ثـم إنهـم قـاموا فانطلقت فأخبرت النبي ــ ص ــ أنهم انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت لأدخل فألقى الحِجاب بينـي وبينه فأنزل الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي).[٥٣]

وأضاف أن أم سُلَيْم بعثت مع ابنها أنس هدية مساهمة في وليمة العرس هي: حَـيْس فـي توْرّة من حجارة مما يؤكد الصلة الحميمة.[٥٤]

والواقعة تدل على جلافة وجفاوة وبداوة أولئك العُربان ولو أن لديهم ذرة من حضـارة أو مُسْكة من مدنية أو قُتيتة من رقي لما سلكوا ذاك المسلك البعيد عن الـذوق بعـد السـماء عـن الأرض.

وهي (= الواقعة) تنفحنا مؤشراً ذا دلالة غائرة عما عاناه (اللبيب) من أولئـك الأعاريـب من رذالات وسخافات ودناءات صبر عليها صبراً فاق صبر أيوب.

أبو طلحة لِ طول صحبته وقوة الالتصاق به وله متانة الآصِرَة به دلّتـه فَرَاسَـته علـى ضرورة بزوغ آية كريمة تردع ــ مستقبلاً ــ أولئك العربة المُتبدِيْن لئلا يعودوا لِ مثله أبدا. وبذا أثبت أنه فارس (= يتمتع بـِ فَرَاسة كبيرة) من الطراز الأول.[٥٥]

* * *

(ب) أبو أيوب الأنصاري

(عن أفلح مولى أبي أيوب قالت أم أيوب لأبي أيوب: ألاّ تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب، أفكنتِ يا أم أيوب فاعلة ذلك؟ فقالت لا والله. قال: فعائشة خير منك.

فلما نزل القرآن وذكر أهل الإفك قال الله تعالى: «لـولا إذ سـمعتموه ظـن المؤمنـون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وقالوا هذا إفك مبين» الآية الثانية

---

(٥٣) (السمط الثمين) لِ المحب الطبري ــ ص ١٨١ ــ مصدر سابق و(أسباب النـزول) لَ الواحـدي ٢٤١ ــ سابق.

(٥٤) والحَيْس: تمر وأقط وسمن تُخلط وتُعجن وتُسوّى كَ الثَّرِيْد ــ المعجم الوجيز. ــ أما التَوْر: قال الأزهـري: إناء معروف تذكره العرب ــ المصباح المنير) ا.ه.

(٥٥) تقول العوام في مصر فِرّيس.

عشرة من سورة النور. يعني أبا أيوب حين قال لِ أم أيوب).[٥٦]

إن تعليق الواقديّ الوارد في عُجُز الخبر بِ قوله (يعني أبا أيوب حين قال لِ أم أيوب) في غُنية عن الشرح والتوضيح.

(عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب:

يا أبا أيوب ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟

قال بلى وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال فعائشة خير منك، ثم قال الله تعالى (ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً) أي فقالوا كما قال أبو أيوب وصاحبته).[٥٧]

وفي هامش ص ١٢١: أي قالوا يعني أبو وأم أيوب خيراً في حق عائشة.

ومن مصنفات أسباب النزول اخترنا ما نفحنا به الواحديّ النيسابوريّ في هذه الواقعة وما جاء على لسان أبي أيوب:

(سمعت عطاء الخراساني عن الزهري عن عروة أن عائشة ــ رض ــ حدثته بِ حديث الإفك وقالت فيه وكان أبو أيوب الأنصاري حين أخبرته امرأته وقالت:

يا أبا أيوب ألم تسمع بما حدّث الناس؟ قال: وما يتحدثون؟ فأخبرته بقول أهل الإفك، فقال ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. فأنزل الله عز وجل:

(ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم).[٥٨]

ومن هذا النص البالغ الثمانة يسفر (ينكشف) أن الآية العظيمة حملت ذات الكلمات التي خرجت من بين شفتيّ أبي أيوب اليثربي:

(ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم)

وهو (أبو أيوب) يُشاكِل ما حدث من العدويّ ابن الخطاب ولو أن هذا الأخير فاقه في العدد.

---

(٥٦) (المغازى) لِ الواقديّ ــ المجلد الثاني ــ ص ٤٣٤ ــ مصدر سابق.
(٥٧) (السيرة النبوية) لِ ابن إسحق ــ المجلد الثاني ــ ص ص ١٢٠ ــ ١٢١ ــ طبعة أخبار اليوم ــ مصدر سابق.
(٥٨) (أسباب النزول) لِ الواحدي ــ ص ٢١٨.

* * *

اتباعاً لخطوات المنهج الذي التزمنا به نختم بـِ مدونات التفسير زيادة في التوثيق:

في تفسيره لـِ الآية الثانية عشرة من سورة النور أورد النيسابوري ما يلي:

(رُوي أن أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب: أما ترين ما يقال؟ فقالت: لـو كنـت بـدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله سوءاً؟

قال: لا، قالت ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله ــ ص ــ فعائشة خيـر منـي وصفوان خير منك).(٥٩)

وعسى ما قدمناه فيه مقنع بـِ أن الآية العظيمة المذكورة طابقت في معناها لا في لفظها أو في أُسّها لا في رَصْفها أو في لُبّها لا في قشرها ما ذهب إليه أبو وأم أيوب.

* * *

حزمة ضوء على الثنائي الأيوبي:

نحن لا نساير أم أيوب فيما ذهبت إليه أن صفوان خير من أبي أيوب، فـَ إما أن ما قالتـه نَزّ تحت وهج الحماس الذي هيمن عليها وهي تتكلم في الموضوع وإما أن بينها وبين أبي أيـوب شيئاً مثلما بين الأزواج جميعها فانتهزتها فرصة ونفّست عن مكنون صدرها وهي تعلم أنـه لـن يجرؤ على معارضتها أو يفتح فاه بـِ كلمة لـِ حساسية المسألة.

فـَ أبو أيوب هو خالد بن زيد.. بن مالك بن النجار، وسبق أن أوضحنا صلة بنى النجـار الوشيجة بـِ (المستقيم)، وهو قد شهد بيعة العقبة وبدراً (الكبرى)، ولما هاجر (المعصوم) من بَكّـة إلى أثرب شرّفه بـِ النزول ضيفاً عليه وأقام عنده حتى بنى بيوته ومسـجده وآخـى بينـه وبـين مُصعب بن عمير (الذي هو من ذؤابة قريش فهو من بني عبد الدار حملة راية سخينة في الغارات والغزوات وأرسله (الخاتم) كيما يُعلّم بني قَيْلة قواعد الديانة ويحفظهم القرآن ومن ثم فـَ هو يعـد: مُقدم النَزَحَة ولذا فإن مؤاخاة أبي

(٥٩) (غرائب القرآن) لـِ القميّ النيسابوري ــ المجلد الثامن ــ ص ٢٦٢ ــ مصدر سابق.

أيوب معه دليل قاطع على علو رتبته (= رتبة أبي أيوب ا.ه). ولم يتخلف عن غزاة. وبعد وفاة (الحبيب/ المصطفى) شهد مع الإمام علي كرم الله وجهه وقدّس سره ونوّر ضريحه قتال الخوارج ثم لزم الجهاد (أي الاشتراك في معارك الغزو النهبوى الاستيطاني الاستنزافي الذي احتل به أولئك الأعاريب أراضي بلاد الجوار ذوات الحضارات الباذخة ا.ه) ومات إبّان قتال الروم سنة اثنتين وخمسين عند محاولة خائبة لفتح القسطنطينية ودُفِن هناك، فضلاً عن روايته للأحاديث المحمدية.[٦٠]

إذن هو صحابي من الوزن الثقيل إذ له صلة نسب حميمة ومن ذوي السابقة في اعتناق الديانة ورفع رأسه عالياً (الظَفُور) عندما نَزَح إلى القرية ذات الحَرْتين بِ النزول في داره ثم حارب جنباً لِ جنب معه في غزواته وشارك في السرايا، أي أنه على آصرة شديد الأَسْر به وقديمة العهد معاً، ومن ثم فَ من الطبيعي أن تتوافق الآية الحميدة المذكورة مع رأيه أو مذهبه أو منحاه في فتنة أوشكت أن تصيب البيت المحمدي بقدر غير قليل من الصلّق.[٦١]

* * *

أما أم أيوب

فَ هي أنصارية خزرجية، ساهمت في خدمة (المنصور بِ الرعب مسيرة شهر) عند نزوله في بيتهم ولها رواية (في الأحاديث المحمدية).[٦٢]

إذن هي ذات صحبة مستطيلة وخِلْطَة وتمَارس فضلاً عن شهادتها الرائعة في حق التيميّة بنت ابن أبي قحافة، وجماعها مؤهلات تمنحها وزوجها شرف اتفاق الآية العظيمة المذكورة فيما ذهبا إليه لِ أول وَهْلة أن أُحْدُوثة الإفك مُختلقة من أساسها سُداها الكذب ولُحمتها التلفيق والافتراء وأنه فرض عين على كل مؤمن ومؤمنة من الأتباع أن يظن بنفسه خيراً وبِ التالي يوقن بِ براءة التيميّة عائشة.

---

(٦٠) (الإصابة) لِ ابن حَجَر العسقلاني ــ الثاني ص ٣٥١.
(٦١) (صلّق الشمس = حرها ــ القاموس المحيط ــ لِ الفيروزي أبادي) ا.ه.
(٦٢) (أسد الغابة) لِ ابن الأثير ــ كتاب النساء ــ ص ٣٠٤ ــ سابق.
و(الاستيعاب) لِ ابن عبد البر ــ المجلد السابع ــ ص ٧٦٣ ــ مصدر سابق.

* * *

تلك أمثلة على بزوغ آيات كريمة من القرآن الحكيم إما موافقة لِ جُمَل تكلم بها أحـــدهم أو اقتراحات طرحوها أو توقعوها لِ ظروف أو أحوال تستنفر هلّها، وقد تجـــيء مـــرّة بِ اللفـــظ أو أخرى بِ المعنى. وهكذا يثبت (= القرآن) أنه وثيق الصلة بِ المخـــاطبين بـــه وأن بَاصِـــرَته لا تتحول عنهم بل هي دائمة اللحظان لهم. وهي ميزة بالغة الروعة انفرد بها عـــن كتـــابيْ موســـى وعيسى، ومنحته فيضاً لا ينضب من الاستمرارية والفَتَاء والتجدد.

الفصل الرابع

الإيضاح والاستدراك والاستثناء

هذا الفصل يؤكد ما سبق أن زَبَرناه (= رقمْناه وكتبناه) أن الذكر الحكيم في سوره العظيمة وآياته الكريمة ــ باستثناء التي تناولت أُحْدُوثة الخلق وحكاية آدم وحواء والشيطان وحكايا البطاركة الأماثل والتي لها أصول في الكتاب المقدس (لدى اليهود والنصارى/ المسيحيين) اتصلت بِ وشائج متينة سواء بِ (المُبلّغ) الذي قرأها على المخاطبين بها أم أنفسهم.

[١]

هذا ضرب من الآيات لا يعالج مشكلات حَازِبَة ولا يفكّ معضلات معقدة ولا يلبي طلبات عاجلة ولكنه يوضح ويبيّن ويشرح حيناً ويستثنى حيناً آخر.

وفي المرة الثالثة يستدرك ــ بداهة ــ ما فات جمهرة الذين توجهت إليهم الآيات استيعابه أو الإحاطة به أو فهمه على الوجه الصحيح، ولا نقول الأمثل، لأن أولئك البدو العربان لا تمكنهم أحوالهم الذهنية والمعرفية والإدراكية من النَقْه والفهم الأمثل، فَ هم بِ شهادة القرآن المجيد أكثرهم لا يعقلون وعندما ينفي عن غالبيتهم العقل فَ هذا ينسحب على المجموع لأن القلة التي قد تعقل هي استثناء ومعلوم أنه (أي استثناء) لا يغيّر من الحكم.

الخلاصة: إننا عندما نسطّر أن عدداً من الآيات الكريمة جاءت على سبيل الاستدراك نعني أن عُمالتها (بضم العين أي وظيفتها) هي أن يستدرك المخاطَبون (بفتح الطاء) ما فاتهم من مدلول أمّت (= قصدت)

إليه الآية بيد أنه غاب عن فطانتهم ــ لو احتازوا أو تملكوا فطانة ــ إذ لو احتازوها أو تملكوهــا لما أحوجوا (مأدبة الله) لأن يبعث إليهم بـِ آية أو آيات مُصلّية (= تالية ــ لاحقة) تعيــنهم علـــى الوعي بـِ حقيقة المطلوب منهم.

فـَ على سبيل المثال عندما هلت الآية السابعة والثمانون بعد المائة مــن ســورة البقــرة (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) أخذها بعض صــحبه بحرفيّتهــا وأحضر خيطين أحدهما أبيض والآخر أسود وظل يأكل ويشرب ويعافس زوجته، حتى يتبين لـــه الأبيض من الأسود وبداهة لا يتحقق ذلك إلاّ إذا أسفر الصباح، فذهب أحدهم إلى (المُحلل) يسأله: فـَ هَاله هذا الغباء المُطبق وقال له = إنك لـَ عريض القفا.[١]

(عن عديّ بن حاتم قال: لما نزلت (كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) عَمَدْتُ إلى عِقالين أبيض وأسود فـَ جعلتهما تحت وسادتي وجعلت أنظر إليهما من الليــل ولا يستبين لي فإذا تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت، غدوت إلـــى رســول الله فأخبرته فضحك وقال: (إنك لـَ عريض القفا، إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل) وكنّى رسول الله ــ ص ــ بذلك عن بلاهة عديّ وقلة فطنته).[٢]

أي لم ينقه مدلول الآية الكريمة وهو طلوع الفجر، ولكن الأسئلة تكررت أي لـــم تقتصــر على فرد.

إزاء ذلك غدا من الحتم أن تنبثق آية توضح المقصود من (الخيط الأبــيض مــن الخــيط الأسود) فـَ لمعت كـَ اللؤلؤة وأضاءت كـَ الفجر جملة إيضاحية (من الفجر):

روى البخاري عن سهل بن سعيد قال: أُنزلت (كلوا واشربوا حتـــى يتبــين لكــم الخــيط الأبيض من الخيط الأسود) ولم يُنزل (من الفجر) من الآية ١٨٧ من سورة البقرة، فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل ويشرب حتـــى يتبين له

---

(١) الكتبة المحدثون ــ دعك من الوعاظ وخطباء المساجد ــ عندما يتحدث (= يكتب) أحدهم عــن أي صــحابي حتى ولو كان مثل بُسر بن أرطأة يقول الصحابي الجليل سيدنا فلان بن فلان رضي الله عنه.
(٢) (غرائب القرآن) لـَ القميّ النيسابوريّ ــ المجلد الثاني ــ ص ٢٨٠ ــ مصدر سابق.

رؤيتهما فأنزل الله بعد (من الفجر) فعلموا أنما يعنى الليل والنهار).[٣]

وأورده الواحديّ في (الأسباب) وأضاف أن البخاري رواه عن ابن أبي مريم ومسلم عن محمد بن سهل عن أبي مريم.[٤]

أي أن الحديث خرّجه كل من البخاري ومسلم وهما قمة الصحاح السِتّة، وزَبَرَه الأزهري في مقبوله بنصه عن البخاري ومسلم ووصفه بِ الصحة (صحيح) وأضاف أن النسائي أخرجه في الكبرى والبيهقي في السُنن وأبو يَعْلَي في مسنده والطبري في تفسيره والطحاوى في شرح معاني الآثار.[٥]

ثم نتوجه إلى كتب التفسير، وعلى سبيل المثال:

(وفي الصحيحين أيضاً عن سهل بن سعد: نزلت (يعنى آية ١٨٧ ــ البقرة) ولم ينزل (من الفجر) فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله عزّ وجل (من الفجر) فعلموا أنه يعني الليل والنهار).[٦]

وهكذا تأكدت صحة الحديث لِ علو المصادر التي وضعته أمامنا وهو غنى بِ المعطيات منها:

أ ــ الآية المذكورة صَفِرَت صُفُوراً تاماً من كلمتي (من الفجر) عن انبثاقها أول مرة.

ب ــ دلّت الزيادة والعلة التي استنفرتها على المستوى الحضاري الخفيض لأول من خوطب بِ القرآن العظيم.

ولو أن الذين تلقوه على درجة ولو معقولة من الوعي لما استدعى الأمر إهلال آية جديدة توضح وتبيّن وتُسْفِر عن المقصود.

ج ــ عديّ بن حاتم الطائي أحد الذين فعلوا ذياك العمل الساذج لا يمكن بحال عدّه من غمار الناس وعامة الأعاريب فأبوه حاتم الطائي اشهر كرماء العربان وضُرب بجوده المثل وله شعر جيد وقبيلته طيئ من القبائل المشهورة وقد اعتنقت النصرانية وهذا العديّ من المقدمين فيهم

---

(٣) (لباب النقول) لِ السيوطي ــ ص ص ٢٣ ــ ٢٤ ــ مصدر سابق.
(٤) (أسباب النزول) لِ الواحدي ص ٣٢ ــ مصدر سابق.
(٥) (المقبول) لِ الشيخ أبي عمر نادي الأزهري ص ٩٦ ــ مرجع سابق.
(٦) (غرائب القرآن) لِ القميّ النيسابوريّ ص ٢٨٠ ــ مرجع سابق.

ومع ذلك وصفه (المتبتل) بِ البله وقلة الفِطْنة.

د ــ هذه الواقعة وأضرابها تَزْبدنا سنداً جديداً يقوي ما أكدناه أن النصوص المقدسة انبثقت من أحشاء مجتمع بالغ الركود والتأخر وتفتحت أكاميمها في بيئة شديدة التخلف والتدني.

* * *

[٢]

إفشاء الديانة التي بشّر بها محمد وإرساء دولة بني سخينة نعني قريشاً، جماعه استدعى بِ طريق الحتم واللزوم عَسْكَرة مجتمع يثرب.

وهنا يتساءل أحد قرائنا: ما برهانك عليه؟

بِ حسبة بسيطة سوف يظهر أنه إبّان المدة التي عاشها (جد الحسنيْن) بين جنباتها خرجت كل شهر ونصف شهر وربما أقل غزوة أو سرية أو بعث خاص من (معانيه إرسال فرد أو نفر لاغتيال شخصية مُؤثرة من الأعداء أو هدم صنم أو كعبة)، ومن ثم فَ إن القتال أطلق عليه الجهاد وهو اسم متضلع من النكهة التيولوجية وشكّل معلماً بارزاً في حياة ذلك المجتمع.

وقد مُنح جزاءً مُغرياً من يُقتل في سبيل نشر العقيدة وتشييد مبنى الدولة وهو الخلود في الجنة التي تفيض بأنهار الخمر واللبن والعسل المصفى والحور العين وأنواع اللحوم وأصناف الفواكه.. الخ.

وهي مكافآت سخية تَخْلِب لُبّ البدوي الذي يعيش في صحراء جرداء قرعاء قاحلة جَديبة شحيحة محرومة من جِماعها ويتحلّب لها ريقه ويحلم بها يقظة ومناماً.

إذن شدّد (القول الفصل/ القرآن) على ضرورة الخروج للقتال (الجهاد) ووعد من يفعلون بما ذكرنا وتوعّد من تقاعس عنه بضروب الوعيد.

وتعددت الآيات المتعلقة به (بِ القتال) أو التي تدور في فلكه وتَمْرُج في مرعاه وتجري في مضماره. ومن البديهي أن المُقْعَدِيْن والعُمى والزَمْنَى (= المرضى بِ أمراض مُزمنة) لا يشملهم النَفْر إلى القتال، وهذا أمر متعارف عليه لدى كل الشعوب على طول التاريخ. ولكن العُربان المُتَبَدّين

والذين حظوا بـِ سماع (الحبل المتين/ القرآن) يُتلى عليهم لـِ أول مرّة لم يدركوا هذه البديهة ربما خوفاً من أن يطولهم الجزاء الرادع المرصود للناكلين أو المتقاعسين عن القتال (= الجهاد) أو طمعاً في ألا تفوتهم المتع الحسية الفائقة اللذة التي مُنى بها المُسرعون إليه.

* * *

هذا ما حدث فـَ عندما تنبثق آية مضيئة كـَ القمر فيها أمر بـِ القتال يتردد أصحاب الأعذار بين الخوف والرجاء أو الرهبة والرغبة فـَ يَرْقُلون أو أحدهم إلى (كنديدة وهو اسم محمد في الزبور) يستوثقون منه على استثنائهم من القتال ولا ينصرفون حتى تهلّ آية أخرى أو استدراك يوثق إعفاءهم من حمل عبء الجهاد أو القتال تقديراً لـِ ظروفهم:

(أخرج الطبراني عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ــ ص ــ وإني لواضع القلم على أذني إذ أُمر بالقتال، إذ جاء أعمى فقال كيف بي وأنا ذاهب البصر؟ فنزلت (ليس على الأعمى حرج) سورة الفتح آية ١٧.[٧]

تلألأت الآية ١٦ من سورة الفتح تحض المُخلّفين من الأعراب على قتال قوم أولي بأس شديد حتى يسلموا.[٨] وإن أطاعوا وقاتلوا فـَ لهم الأجر الحسن الذي زَبَرناه قبلاً أما إن خَنَسوا كـَ عادتهم أو مثلما فعلوا فيما سبق فـَ سوف يلحق بهم العذاب الوجيع.

وقد أورده المصنف ذاته في (المقبول) بنفس الرواية عند الطبراني ووصفه بـِ صحة الإسناد.[٩]

ورغم وضوح الأمر وأن الآية مشرقة كالشمس في رابعة النهار وأن التكليف الذي تضمنته بـِ قتال مشركي العرب كيما يدخلوا الديانة الإسلامية موجهان إلى القادرين على السلاح واستعماله، فقد ذهب ضرير إلى (سيد الكونين) يسأله كيف يقاتل وهو محروم من نعمة البصر؟

---

(٧) (نهاية السول) لـِ أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ــ سابق.
(٨) سبق أن سطرنا أن الإسلام انتشر داخل جزيرة العرب بـِ حَدَأ وحَرّ السيف وسندنا حديث محمدي شريف خرّجه مسلم في صحيحه علاوة على آية السيف أو القتال ا.ه.
(٩) (المقبول) لـِ أبي عمر نادى الأزهري ص ٦٠٠ ــ سابق.

وفي ميسور (مُقدم ولد آدم) أن يردّ عليه أن الخطاب غير موجه لك ولا لأمثالك ومن ثم لا معنى لِ استيضاحك.. بيد أنه هو مضرب الأمثال في الاحتمال وسعة الصدر والأخلاق الرفيعة، فقد صبر حتى أشرقت الآية السابعة عشرة (= من ذات السورة) رسخت قاعدة رفع الحرج عن العُميان والمرضى، وبالتالي عن جميع أصحاب الأعذار، وأكّدت لهم أن كل ما عليهم ينحصر في طاعة الله و(المستقيم) فيما عداه (= القتال/ الجهاد).

فإن وُفّوا فَ لهم جنات (بِ الجمع) يتمتعون فيها بِ ذات اللذائذ المرصودة للمقاتلين (المجاهدين).

* * *

والاستدراك يتكرر:

أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت أن رسول الله ــ ص ــ أملى عليه (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله) النساء ٩٥. فَ جاء ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله أستطيع الجهاد لَ جاهدت ولكني أعمى، فأنزل الله (غير أولى الضرر) النساء٩٥.(١٠)

بطل هذه الواقعة هو عبد الله بن أم مكتوم قديم الإسلام وبسببه أقبلت كَ النجم الثاقب أوائل سورة عَبَس وعند خروج (الصيّن) في إحدى الغزوات ولاّه على أثرب وربما تعدد أي حدث أكثر من مرة ومنه استخرج بعض الفقهاء جواز تولية الأعمى مقاليد الحكم.

إذن الآية الخامسة والتسعون من سورة النساء في بَدّى الأمر بزغت كالفجر الصادق وهي مليطة من استثناء أصحاب الضرر فَ لما أبدى ابن أم مكتوم عذره أضيف إليها الاستثناء ولم يعد للعُميان والمرضى والزَمْنَى.. الخ، حرج في الخَنَس عن المساهمة في الغزوات والسرايا، ولقد تأيد هذا الحديث من مصادر أخرى:

روى البخاري عن البراء قال: لما نزلت (لا يستوى القاعدون من المؤمنين قال النبي ــ ص ــ:

---

(١٠) (نهاية السول) لِ أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ٧٣ ــ مرجع سابق.

ادْعُ فلاناً فـَ جاء ومعه الدواة واللوح والكتف فقال اكتب: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله) وخَلّف النبي ــ ص ــ ابن أم مكتوم فقال: يا رسول الله، أنا ضرير، فنزلت مكانها (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر).

وروى الترمذي نحوه من حديث ابن عباس وفيه قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم: إنا أعميان.

وعند ابن جرير من طرق كثيرة مرسلة نحو ذلك.(١١)

هنا نَلْقَى السيوطي يذكر أن الحديث خرّجه البخاري والترمذي وابن جرير أي الطبري.

أما الواحدي النيسابوريّ فـَ قد صوّر لنا كيفية إضافة (غير أولى الضرر) الآية.

لِ (عن زيد بن ثابت قال: كنت عند النبي ــ ص ــ حين نزلت عليه (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله) ولم يذكر أولى الضرر فقال ابن أم مكتوم:

كيف وأنا أعمى لا أبصر؟

قال زيد: فَتَغَشّى النبي ــ ص ــ في مجلسه الوحى فـَ اتكأ على فخذي فوالذي نفسي بيده لقد ثقل على فخذي فخشيت أن يرضّها ثم سُرّى عليه فقال:

اكتب «لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر» فكتبتها ــ رواه البخاري عن... الزهري.(١٢)

* * *

من هذا الحديث ننقه إن الإضافة الاستدراكية هلّت على الفور لأعلى التراخى، فـَ أن قدّم عبد الله بن أم مكتوم ما يفيد عدم استيعابه لما جاء في الآية إذ إنها من الطبيعي لا تقصد من كلمة (القاعدين) أصحاب العاهات الذين تكبّلهم عن الانخراط في صف العسكر المقاتلين. إنما تنسحب على من يتراخى وهو صحيح البدن والحواس، بعدها مباشرة

---

(١١) (لباب النقول) لِ السيوطي ــ ص ــ ٦٠ ــ مصدر سابق.
(١٢) (أسباب النزول) لِ الواحدي ص ص ١١٧/ ١١٨ ــ مصدر سابق.

بَزَغَت كالقمر المضيء جملة (غير أولى الضرر) وقبل أن يغادر ابن أم مكتوم المجلس أصبحت جزءا عُضوياً من الآية الكريمة.

* * *

ننتقل بعدها إلى ما ورد بشأن هذا الحديث في كتب التفسير لِ نزيده متانة ووثوقاً:

(لما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم الأعمى فقال: يا رسول الله هل من رخصة فإني ضرير من البصر فَ نزل «غير أولى الضرر»).[١٣]

مئات الأعوام تفصل ما بين ابن جزيّ الكلبي والألوسي بيد أن المصادر واحدة أو هي متقاربة، عند تفسيره لِ هذه الآية المجيدة أورد لنا الألوسي الحديث محفوفاً بخبر أو وقائع نفحتنا بِ معطيات على قدر من الأهمية.

(روى مالك عن الزهري عن خارجة بن زيد قال: قال زيد بن ثابت: كنت أكتب بين يدي النبي ــ ص ــ في كتف «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون» وابن أم مكتوم عند النبي ــ ص ــ فقال: يا رسول الله قد أنزل الله تعالى في فضل الجهاد ما أنزل وأنا رجل ضرير فهل لي من رخصة؟ فقال النبي ــ ص ــ:

لا أدري، قال زيد وقلمي رَطْب ما جَفّ حتى غَشى النبي ــ ص ــ ووقع فخذه على فخذي حتى كادت تُدقّ من ثقل الوحي ثم جلَى عنه، فقال لي أكتب يا زيد «غير أولى الضرر».[١٤]

وقال محققه إن البخاري أورده في صحيحه في تفسير سورة النساء.

هنا نجد أن الآية تهادت أو بعضها خالياً من (غير أولى الضرر) ولولا اعتراض عبد الله بن أم مكتوم لَ ظلّت هكذا بيد أنه غِبّ ما شرح لِ (الأعظم) ضُرّه ولو أنه ليس في حَوْجة إلى إبانة، وسأله أئمة رخصة له وبداهة لِ أضرابه، أجابه أنه لا يدري. ونكاد نرجّح أن هذا الخبر انفرد بِ هذه الإجابة المُعجبة لأن عدم دراية (اللبيب) مُشْكل من كل الوجوه..

وبعد قليل أتى الشطر أو الجزء أو البعض الاستدراكي يسعى مسرعاً،

---

(١٣) (كتاب التسهيل لِ علوم التنزيل) لِ ابن جزيّ الكلبيّ ــ الأول ــ ص ١٥٤ ــ مصدر سابق.

(١٤) (تفسير الألوسي) تحقيق محمود الشرقاوي ــ الجزء الخامس ص ١٩٨ ــ ١٤١٦هـ ١٩٩٦م ــ كتاب الشعب الديني ــ مؤسسة دار الشعب بِ مصر.

إذ قال لزيد بن ثابت أحد كتبة الوحي اكتب (غير أولي الضرر) وغدا استثناء هؤلاء من القتال أو الجهاد أو الحرب ميثاقاً غليظاً بينهم وبين (المجيد/ الزبور = القرآن) وانحسرت عنه صفة أو صبغة العَسْكرة التي شملت مجتمعهم المبرور.

ويلفت الانتباه أن ابن أم مكتوم رغم فقد بصره بيد أنه تمتع ببصيرة في هذه الخصوصية بِ الذات وهي أن الذكر الحكيم أبرز فضل الجهاد وهو بداهة يعني المكافآت المُسيلة لِ اللُعاب المرصودة في الدار الآخرة لِ العسكر الذين يُقتلون في سبيل نشر الديانة وتأسيس الدولة وبِ مفهوم المخالفة أنه سوف يُحرم منها هو وأنداده بسبب ما بهم من أضرار وعاهات وهذا يتمثل في قوله (يا رسول الله قد أنزل الله تعالى في فضل الجهاد ما أنزل) ولعل هذا هو الباعث الذي وزّه على طرح هذه الملاحظة.

ولو أننا لا نسقط من حسابنا التدني المعرفي والثقافي الذي جعلهم لا يعون أن استحالة عسكرة ذوي الأعذار ترقى لِ رتبة البديهيات ومن ثم فَ لا ضرورة للنص عليها.

* * *

إن صيغة الخبر كما أوردها مفسر حديث أو معاصر تحمل دليل ثبوت على انخفاض المستوى الحضاري لأولئك البدو العُربان ولو أنها جاءت في أحد أطرافه لا في صلبه.

(وعن البراء ــ رض ــ قال: لما نزلت (لا يستوي القاعدون من المؤمنين) قال النبي ــ ص ــ ادع فلاناً فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف فقال اكتب (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله) وخَلْف النبي ــ ص ــ ابن أم مكتوم، فقال، يا رسول الله أنا ضرير، فنزلت مكانها (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله).[١٥]

فمنه (= الخبر) نستخلص أنهم دأبوا على الكتابة على أكتاف البعير

---

(١٥) (في رحاب التفسير) لِ عبد الحميد كشك ــ الجزء الخامس ــ ص ٩٩٣ ــ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ــ المكتب المصري الحديث ــ القاهرة.

وما شابهها من أدوات ساذجة والزمن قبيل منتصف القرن السابع الميلادي في حين أن قدماء المصريين ابتدعوا الكتابة وعلّموها سائر الأمم ولو أن بعض علماء الحضارات يماري في هذه الحقيقة التاريخية، إنما الذي لا مشاحة فيه أنهم على الأقل منذ ثلاثة آلاف عام سابقة على القرن السابع الميلادي توصلوا بـِ عبقريتهم الخلاّقة إلى صنع أوراق البردى وسجلوا عليها تاريخهم وكافة أحوالهم، وما زالت هذه الأوراق، رغم مضى هذا المدى السحيق، محتفظة بـِ مادتها وقوامها وما سُطّر عليها.

أليس من مخاريق التاريخ أن أولئك الأعاريب الرُحّل ـ الذين شَفّ استعمالهم لـِ أكتافِ البعير كصحائف لـ الكتابة عليها، عن ما هم عليه من بداوة وبدائية وبعد عن المدنية والعلم ـ أن يحتلون أرض الكنانة التي علمت الدنيا الحضارة والضمير وأن يفرضوا على مواطنيها لغتهم وثقافتهم وتراثهم وعاداتهم وتقاليدهم! ويتحول المصريون قادة العالم إلى أتباع لـِ أولئك الأعاريب العراة من كل ما يمت إلى الثقافة والعلوم بـِ أو هي صلة؟

إن هذا الأمر المحيّر المُلغِز يحتاج إلى دراسة معمقة.

ثم نعود أدراجنا إلى سياقة البحث:

[٢]

في الفقرة السابقة ثبت أن الاستدراك هلّ بـِ طلعته البهية وريحه الذكية بسبب ملاحظة عبيطة، في حين أن الرد عليها بديهي تلك التي أبداها عبد الله بن أم مكتوم أو من على شاكلته.

أما هذا الاستدراك أو هذه الاستدراكات التي بزغت كالنجوم الوضّاءة والتي نستطيع أن ننسخ أو نرقم أنها حُبلى بـِ جنين أو أجنة أساميها المعقولية وكُناها المنطقية بل وفي مقدورنا أن نخطو خطوة أو خطوات قُدُما فـَ نسطّر أن إكراهات المجتمع وإلزامات البيئة وضغوط الواقع المعاش هي التي حَزَبت أصحابها ووزّت مُبديها وحثت طارحيها على أن يفعلوا، ومن هذه الزاوية الحياتية تلقاها (العافي = محمد) بصدر رحب ومن رجا آخر: تهادت الإجابات الاستدراكية شافية وافية.

إن انتظار المطلقة مدة من الزمن حتى تنكح زوجاً جديداً أمر ضروري للتأكد من براءة الرحم مما يحتمل أن يَعْلَق به من الزوج السابق، وهو أمر عرفه العُربان السابقون على ظهور الإسلام واستقروا عليه، ثم جاء الإسلام فـَ نَقَشه كما استعار الكثير من الأنظمة في شتى المناحى، فـَ أشرقت آية كريمة كما السراج المنير (والمطلقات يتربصن بـِ أنفسهن ثلاثة قروء) ٢٢٨ البقرة،[١٦] ثم تشريع عدة المتوفي عنها زوجها. بقيت أنواع أخر من النِسْوَن مثل: المسنات اللاتي غيبهن الحيض، ذوات الأحمال، الصغيرات التي لم يَعْرَكْنَ (يحضن).[١٧]

إزاء ذلك تقدم من سمع تلك الآية أو الآيات إلى (المصدوق) يلحفون في طلب استدراك يبين حالة أولئك اللاتي لم يوضح (الأحسن = القرآن) أحوالهن: (قال مقاتل لما نزلت «والمطلقات يتربصن بـِ أنفسهن ثلاثة قروء» قال خلاد بن النعمان بن قيس الأنصاري: يا رسول الله فما عِدة التي لا تحيض وعدّة التي لم تحض وعدة الحبلى؟ فأنزل الله تعالى «واللاتي يئسن من المحيض من نسائكم» إلى آخر الآية).

أخبرنا أبو إسحق المقرئ، أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون أخبرنا مكى بن عبد أنه قال: أخبرنا أبو الأزهر أخبرنا أسباط بن محمد عن مطرف عن أبي عثمان عمرو بن سالم قال: لما نزلت عدة النساء من سورة البقرة في المطلقة والمتوفي عنها زوجها، وقال أبي بن كعب: يا رسول الله إن نساء من أهل المدينة يقلن قد بقي من النساء لم يذكر فيها شيء قال: وما هو؟ قال الصغار والكبار وذات الحمل فنزلت هذه الآية (واللاتي يئسن) إلى آخرها.[١٨]

في هذا الخبر المزدوج نجد أن الذي سأل في شطره الأول هو خلاّد بن النعمان بن قيس من بني قيْلة، وفي عجزه من طرح الاستفسار هو أبيّ بن

---

(١٦) اخترع الفرنجة الكفرة الملاعين الذي سيدخلون النار جهازاً بواسطته يمكن معرفة خلو الرحم أوعلوقه بـِ نطفة وقد نادينا في إحدى كتاباتنا بأنه لم تعد هناك ضرورة للانتظار ثلاثة أشهر فرد علينا أحد الإخوة الأزهريين سامحني الله وإياه أننا ممن يحبون أن تشيع الفاحشة والعياذ بالله تعالى ا.ه.

(١٧) أليس مستغرباً في ذياك المجتمع المدهش أن تنكح طفلة لم تبلغ العاشرة وقد أخبرتنا كتب السيرة المحمدية التي هي أطيب ريحاً من نشر القطر أن (صاحب اللواء) وهو في الخامسة والخمسين أو قريباً منها دخل على التيمية عائشة ولم تبلغ الثامنة.ا.ه.

(١٨) (أسباب النزول) لِ الواحدي ـــ ص ـــ ٣٩٠ ـــ سابق.

كعب أثربي أيضاً إنما لم يتكلم عن نفسه فقط بل يمكن أن نعدّه وافد النِسْوَن إلى (أبي إبراهيم) مما يكشف عن أن طلب الاستدراك جَمْعِيّ لا فرداني.

* * *

أخرج ابن شيبة والحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن راهويه عن أبي بن كعب[١٩]

قال... ثم أورد الحديث الذي نفحنا به الواحدي وهو المرقوم قبل قليل باختلاف بسيط وهو أن (ناساً من أهل المدينة) بدلاً من (نساء من أهل المدينة) التي ذكرها الواحدي وهذه العبارة ترفع الستار عن أن الأمر لم يشغل بال النِسْوَن فَ حسب بل شمل ذُكران القرية ذات الحــرتين وهــو يؤكد ما وسمنا به الرغبة الجماعية.

ولاحظنا أن من أخرج الحديث ثُلّة طيبة من أصحاب كتب الحديث ووصــف إســناده بِ الصحة وهو ذات ما ذهب إليه السيوطي في (ال لُباب).

ثم أهدانا الأزهري صاحب المقبول رواية أخرى له.[٢٠]

* * *

بعدها نعرّج على كتب تفسير القرآن الكريم وعلومه الشريفة:

روي أن أناسا قالوا: يا رسول الله قد عرفنا عدة ذوات الأقراء، فما عدة اللائي لم يحضن من الصغار والكبار؟ فنزلت الآية «واللائي يئسن من المحيض من نسائكم..».[٢١]

الزركشي صاحب (البرهان)، وهو من أهم كتب علوم القرآن وقد يضــاهيه (الإتقــان) لِ السيوطي، أورد الخبر عينه دون إسناد.

بيد أنه في موضع آخر في الصفحة يضعه في حجرنا بِ إسناد:

عن ابن جرير بِ سنده عن عمرو بن ساباط قال: قال أُبَيّ بن كعب: يا

---

(١٩) (المقبول) لِ أبي عمر نادي الأزهري ص ٦٧٧.
(٢٠) (ذات الصفحة). ووصفه بأنه صحيح الإسناد.
(٢١) (البرهان في علوم القرآن) لِ بدر الدين محمد الزركشي ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ الجزء الأول ــ ص ص ٢٨ ــ ٢٩ ــ الطبعة الثانية ــ ١٣٩١هـ ــ ١٩٧٢م ــ نشره عيسى البابي الحلبي ــ ب مصر.

رسول الله إن عدد النساء لم تُذكر في الكتاب = الصغار والكبار وأولات الأحمال، قـال فَـ أنـزل الله عز وجل «واللاتي يئسن من المحيض من نسائكم..» ونقله ابن كثير في التفسير.[٢٢]

إذن حسبما نسخه الزركشي في برهانه:

حمله تفسير ابن جرير الطبري وتكلمنا عنه مراراً وسطّره ابن كثير في تفسيره وهو مـن أجلّ التفاسير وله مقام محمود عند الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة جعلنا الله منهم وحشرنا فـي زمرتهم بِـ مَنّه وكرمه.

* * *

بِـ مقدورنا أن نكتفي بـ ما نسخناه عن الزركشي كَـ دليل ظهير (مساعد/ مساند) للحجـج التي نقلناها عن مؤلفات الأسباب، بيد أنه نظراً لِـ أهمية الموضوع والمادة فإننا نـأتي بِـ بـراهين أخرى لِـ زيادة التأكيد وترسيخ التوثيق. أما الأهمية التي أوردناها فَـ تتمثل في شأنين:

أولهما: ما تناوله الاستدراك من مسائل على قدر وفير من الحساسية فهو يعالج أكثر مـن حالة من حالات النِسْوَن (الصغيرة/ الكبيرة/ الحامل) أي نسبة كبيرة منهن، وهن يشـكّلن نصـف المجتمع.

آخرهما: يمس ناحية أَوْلاها أولئك العُربان التفاتاً كبيراً والحق أنها تستحق الاهتمام حتـى الآن وهي صحة نسبة الجنين (أنثى أو ذكر) لوالده.

(روى أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله قد عرفنا التي تحيض فما عدة التي لم تحـض؟ فنزل «واللائي يئسن من المحيض».[٢٣]

هذا الـ معاذ بن جبل أثربي من بني قَيْلة ومن الصحب المعروفين، أرسله (الحبيب) إلـى اليمن للفتيا والقضاء، والحوار الذي دار بينهما في هذه الخصوصية يعتبر من أدلة الاجتهاد.

---

(٢٢) هامش ص ٢٨ من كتاب (البرهان في علوم القرآن) لِـ الزركشي ـ الأول بقلم محققه محمد أبـو الفضـل إبراهيم.

(٢٣) (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير) لِـ الفخر الرازي ـ المجلد الخامس عشر ـ ص ٥٧٦ ـ مصدر سابق.

وحتى الآن فإن جميع طلبة الاستدراك هم من مواطني قرية أثرب).[٢٤]

* * *

إن تفسير ابن عباس أمدنا بِ تفصيلات عن ذات الخبر ثحينة الثمانة، غالية القيمة، شديدة النفاسة (.. فلما بيّن الله عدة النساء اللائي لم يحضن قام معاذ (أي ابن جبل) فَ قال: يا رسول الله: ما عدة النساء اللائي يئسن من المحيض؟ فنزل: «واللائي يئسن من المحيض» أي من الكبر من نسائكم إن ارتبتم أيْ شككتم في عدتهم (لعدتهن) في الطلاق (ثلاثة أشهر) فقام رجل آخر فقال: أرأيت يا رسول الله في اللائي لم يحضن للصغر ما عدتهن؟ فنزل واللائي لم يحضن من الصغر فَ عدتهن أيضا ثلاثة أشهر.

فقام رجل آخر فقال: أرأيت يا رسول الله ما عدة الحوامل؟ فنزل (وأولات الأحمال) يعني الحُبالى (أجلهن) يعني عدتهن (أن يضعن حملهن) يعني ولدهن).[٢٥]

هذا الخبر (التُحْفة) يكشف لنا الغطاء عن عدد الاستدراكات التي لحقت بشأن عدة المطلقة ومن توفى عنها زوجها وعن طريقه بزوغها وكيف أنها تلاحقت الواحدة إثر الأخرى وجماعها في مجلس واحد. إن هذا الأثر النفيس لم يتناوله ــ على حد علمنا ــ واحد من البُحّاث فيما يسمّى الوحي وطريقة نزوله. إنه لَ شأن مُدهش بل مُحيّر، إذ كيف تتابع

---

(٢٤) هناك رأى يذهب إلى أن اليهود الذين طردهم قدامى المصريين من المحروسة (مصر) لخبثهم ونجسهم نزح فريق منهم لِ منطقة الحجاز وسموا هذه القريبة أثريب على اسم مدينة مصرية معروفة ثم حُرّفت إلى أثرب كما يحدث عادة. وقد حاول الأعاريب تعليله فقالوا إنه من الثرَب أي وهو إما الملامة والتعبير ب الذنب أو شحم رقيق يغشى الكرش والإمعاء ــ (المصباح المثير) لِ الفيومي و(المعجم الوجيز) لِ مجمع اللغة العربية وكما يبين هو تعليل خائب بل فاسد لأن أياً من المعنيين لا يصلح اسماً لِ قرية.
كما أطلقوا عليها طيبة وهو أيضا اسم مدينة مصرية وهكذا تنتشر أشعة الحضارة المصرية في كل اتجاه ا.ه.

(٢٥) (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) لِ الفيروزي آبادى صاحب القاموس ــ ص ص ٣٥٨ ــ ٣٥٩ ــ الطبعة الثانية ــ ١٣٧٠هـ ــ ١٩٥٠م ــ مكتبة مصطفى البابي الحلبي ــ بِ مصر.
ونحن نعلم أن هناك من يشكك في نسبة هذا التفسير لِ ابن عباس وحتى لو قيل إنه من تصنيف أبي طاهر محمد بن يعقوب ــ الفيروز آبادى فَ لا يقدح في مكانته لأنه من علماء القرن التاسع عشر الهجري وخاصة في اللغة و(قاموسه المحيط) يعتبر من أهم القواميس والمعاجم.

الاستدراكات بـِ هذه الأيأة (= الهيئة) وفي جلسة واحدة؟

وهنا يرتفع سؤال يتشح بـِ غُلالة شفافة تكشف عن لهفة غائرة في العمق للعلم والمعرفة:

(الإمام/ العجب = القرآن) من الحتم اللازم أنه ألمّ بأحوال النِسْون الكبيرات والصغيرات والحُبالى فـَ لماذا سكت عن توضيح مقدار أو مدة عِدّتهن كما بين عِدّة المطلقة والأرمل؟

أمن الضروري أن يتقدم اليثاربة الأعاريب أو غيرهم من أتباع (المِقْضَال) بـِ استيضاحات واستبيانات حتى يهلّ الاستدراك ويبزغ الإيضاح ويتهادى البيان؟ الإجابة القاطعة من غير سَوْم ولا مفاصلة ولا مماحكة هي النفي القاطع: لا، لا لزوم لأي منها، بيد أنه (= المرفوع/ المطهر = القرآن) تركها لـِ المخاطَبين به يقدرونها حسب ظروف مجتمعاتهم وموجبات تقاليدهم ومقتضيات عاداتهم. بيد أنه لما ألحفوا في الطلب ولجّوا في المسألة وألحفوا في الاستيضاح غدا من الحتم اللازم الإجابة عنها والرد عليها.

ومن الغريب أن (السابق بـِ الخيرات) طالما حذر تَبَعَه من كثرة السؤال عليه وأن يذروه (يتركوه) ما تركهم.

(ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم)

(ذروني ما تركتكم فـَ إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم) و(إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحرّم على المسلمين فـَ حَرّم عليهم من أجل مسألتهم).[٢٦]

بيد أن أولئك البدر العُربان لم يدركوا هذا المنهج المحمدي الرائع في تربيتهم وتعليمهم.

ومن جانب آخر فـَ هم لا يريدون أن يعملوا عقلهم ويُشغّلوا مُخّهم أو يجتهدوا في استكشاف حلول لـِ مُشكلاتهم وابتداع مفاتيح لـِ مغاليق معضلاتهم بل هم يَرْقِلُون إليه لـِ ينوب عنهم في كل ذلك وهذا مسلك

---

(٢٦) صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب توفيره ــ ص ــ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة له ــ وغيرها من الأحاديث المحمدية الشريفة.

القاصر ونهج العاجز وطريق البليد وسبيل الفَدْم وجادة العَيي.

روي أنه لما نزل (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) قيل فما عدة اللائي لم يحضن؟

فنزلت الآية (واللائي لم يحضن) (وأولات الأحمال).[٢٧]

* * *

وهكذا تكاملت أدلة الثبوت من واقع مصادر قيمة من كتب أسباب النزول ومصنفات علوم القرآن والتفاسير صحة الاستدراك أو الاستدراكات التي أشرقت كَ الشموس الطالعة والبدور الرائعة والنجوم اللامعة تتمم ما سبقها وتكمل ما تقدم في مجال عِدّة النِسْوَن.

[٣]

الاستدراكات السوابق جاءت تلبية لمطلب جماعي:

أما المُصلّية (التالية) فقد بَزَغَت بناءً على رغبات فرد واحد:

(عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال أتى وحشي إلى النبي ــ ص ــ فقال: يا محمد أتيتك مستجيراً فَ أجرني حتى أسمع كلام الله، فقال رسول الله ــ ص ــ قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتني مستجيراً فأنت في جواري حتى تسمع كلام الله، قال: فإني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله تعالى وزنيت هل يقبل الله مني توبة؟ فصمت رسول الله حتى نزل «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ولا يزنون»... إلى آخر الآية، فتلاها عليه، فقال: أرى شرطاً فلعلي لا أعمل صالحاً أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت: «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»، فدعا به فتلاها عليه، فقال: ولعلي من لا يشاء وأنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا

(٢٧) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) لِ القاضي البيضاوي.
(٢٨) (أسباب النزول) لِ الواحدي ــ ص ٢٢٧ ــ سابق.
و(نهاية السول) لِ أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ص ١٨٤ ــ ١٨٥ ــ سابق.
و(لباب النقول) لِ السيوطي ــ ١١٨ ــ سابق.
(المقبول) لِ أبي عمر نادى الأزهري ــ ص ٥٧٣ ــ سابق.

تقنطوا من رحمة الله».، فقال: نعم الآن لا أرى شرطاً فأسلم).[٢٨]

طالبها هو وحشي: عبد أسود أفطس رأسه كَ زبيبة وفوق ذلك هو قاتل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد (صاحب المقام المحمود) والذي وصفه أحد صناديد بني سخينة بأنه (الذي فعل بهم الأفاعيل) في غزاة بدر الكبرى.

وقبلا في قرية التقديس والمسلمون قلة مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس.[٢٩]

غِبّ أن أعلن حمزة إسلامه تنفسوا الصعداء واستطاعوا الظهور وهذا يفسّر لنا حزن ابن أخيه (سيد ولد قُصيّ) على مقتله في معركة أُحد وتمثيل هند بنت عتبة أم لطليق معاوية وبعل الطليق أبي سفيان بِ جثته تمثيلاً بشعاً مما دفعه إلى أن يقسم أن لو واتته الفرصة لَ يُمثّلن بِ سبعين منهم.[٣٠] بيد أنه راجع نفسه الشريفة وعدل عنه.[٣١]

قتل وحشي حمزة بعد أن وعدته هند بِ الحرية ثأراً لِ مقتل أبيها عتبة في وقعة بدر الكبرى فانتهز العبد فرصة انهماك حمزة في القتال ورماه بِ حربته من خلف ولما تأكد من موته انصرف وتوجه لِ سيدته فلما تيقنت من حقيقة الأمر طغى عليها السرور وخلعت عليه حُلِيَّها ثم أقبلت على جسد حمزة الطاهر وبقرب بطنه واستخرجت كبده ولاكتها.[٣١](أ)

بيد أنها لم تستسغها فَ لَفَظَتَها، وهذا من شقوتها وتعاستها إذ لو ابتلعتها لَ دخلت الجنة كما أخبر (الرحمة المهداة).

وتفسيره أنه من المستحيل أن تصطلي كبد حمزة بالنار مع أم الطليق معاوية، في حين أن سائر جسده يحظى بِ النعيم في الجنة.

---

(٢٩) الخطاب الذي بالقرآن العظيم بصيغة (يا أيها الناس)

(٣٠) موجه إلى المكاكوة، وفيه نوع من التقدير لأنهم حَامّة (خاصة) أهل جزيرة الأعاريب وهناك بيت شعر يقول: أنتم الناس أيها الشعراء.

(٣١) لاحظ الرقم سبعين.

(٣١) (أ) هذا الفعل الشنيع من هند يقطع بِ القساوة والتوحش مركوزان في نفوس أولئك العربان مع أنها تعد من ذؤابة بني سخينة فَ ما بالك بِ نِسْوَن العامة في مكة والبدويات ساكنات الخيام والأخبية؟
وقارن بين سلوك هذه المَرَة المفترسة وما سطَره التاريخ عن السلوك البالغ الرقي والتهذيب لِ النساء في مصر القديمة لِ تدرك الفرق بين البداوة والحضارة والهمجية والمدنية. ومن ثم فإن المقارنة بينهما مستحيلة.ا.ه.

* * *

قد يسأل قارئ ما الذي دفع (صاحب الزوجات الطاهرات) أن يصبر هذا الصبر الذي فاق صبر أيوب (الذي يضرب به المثل) على العبد فيتلو عليه ثلاث آيات كريمـــات ضـــمّتهن ســـور متباينة وبداهة أنهن أشرقن في أوقات متباعدة، لأن الآية الأولى في سورة الفرقان (هـــي الثامنـــة والستون) والثانية في سورة النساء (هي الثانية والأربعون) والثالثة والأخيرة فـــي ســـورة الزمـــر (هي التاسعة والثلاثون) والأولى والثالثة (الأخيرة) مكيتان أي سابقتان على حـــدوث الواقعـــة بـِ سنوات والثانية أو الوسطى مدنية أي بزغت كالقمر في أثرب. وقد جمعهن بـِ هذا الترتيب حتـــى يُسلّم؟

الإجابة تتلخص في أنه أتاه مستجيراً. وتوجد آية حاسمة في (أحسن القصص) تنص علـــى الآتي:

(وإن أحد من المشركين استجارك فأجَره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه).[٣٢]

فـ إذن حتم لازم على (المتضرع في الدعاء أي محمد) أن يُجيره ويســـمعه آيـــات مـــن القرآن المجيد بل ويبلغه مأمنه.

وهذا يوضح لنا قوله لـِ العبد (قد كنت أحب أن أراك على غير جوار) ونحـــن نـــرجّح أن مسلماً فطّنه كيما يطلب الجوار وسماع آيات من (النور الهدى = القرآن) لـِ ينفـــد بـِ جلـــده مـــن القتل، هذا من شق.

ومن صوب آخر فإن (اللسِن ــ اللوذعى) هو القدوة في الصبر وسعة الصـــدر واحتمـــال الأذى، بـِ الإضافة إلى حرصه البالغ على أن يلَج الديانة التي يُبشّر بها أكبر عدد من المخـــاطبين بـِ من فيهم العُبدان ذوو الأنوف الفُطّس والبشرة السوداء والشعر الأجْعَد الأكْحَت، إذ بحسب مـــا سنّه لـِ تُبّاعِه أن الناس سواسية لا يتفاضلون إلا بـِ التقوى، وهو معيار بالغ الروعة.

ومن ناحية ثالثة:

فـَ إنّ (الزين ــ الكامل) امتاز بـِ فراسة عميقة وبعد نظر ومن ثم حدّس

---

(٣٢) سورة التوبة الآية السادسة.

أن وحشيا بماله من قدرة قتالية عالية ومهارة مشهود لها في استعمال الحِرَاب (جمع حَرْبَة) وهي من أدوات الطِعان الهامة لدى أولئك العربة.. سوف يغدو شديد النفع في الغزوات والسرايا والبعوث والمغازي[٣٣] التي تعمل جميعها على إشاعة ديانة الإسلام وتوسيع رقعة دولة بني سخينة، ولقد صدقت فراسته، كيف لا وهو (الصادق المصدوق)، ففي خلافة التيْميّ عتيق ابن أبي قحافة قتل وحشيّ مسيلمة (الكذاب) رأس وقائد ثورة بني حنيفة بِ اليمامة على دولة بني سخينة، أيضاً رماه بحربته فَ أرداه قتيلاً ومن ثم سُمعت منه مراراً قالته (قتلت خير الناس يعني حمزة وشر الناس أي مسيلمة).

وبِ مقتله انهارت ثورة بنى حنيفة في حين أنهم إبّان حياته صمدوا وقاوموا حتى إنهم كَبّدوا جيوش الخلافة التيميّة خسائر فوادح راح ضحيتها المئات من الصحابة، خاصة حُفّاظ القرآن العظيم ويسمونهم (القُرّاء) ولولا قتل مُسيلمة لما تخاذل بنو حنيفة ولما انهارت مقاومتهم، أي أن العبد الأفطس قدّم للديانة الإسلامية وللدولة القُرشية المتمثلة في الخلافة التيْميّة خدمة تجل عن الوصف.

وهذا واحد من مئات البراهين على أن (النابذ/ الناجز) تمتع بِ عبقرية فاذة وبعد نظر عريّ عن الضروب وبصيرة نافذة لا نديد لها.

* * *

نصل إلى محطة توثيق الخبر من صفحات (التفاسير) التراثية التي تضعها أمة لا إله إلا الله في مقام التقدير.

القرطبي في (الجامع) أورد الحديث الذي قدمناه آنفا بِ نصه وفصه ــ من ثم فَ لا نرى موجباً لتكراره منعاً لِ الإطالة والإملال وذلك في ثنايا تفسيره لِ سورة الزمر.[٣٤]

---

(٣٣) يسمونها الفتوح مثل فتح مصر مع أنه غزو استعماري استيطاني استنزافي لم تر الكِنَانَة أبشع منه في تاريخها الطويل المجيد، فَ لم يحدث على تعدد غُزاتها وتنوع جنسياتهم أن استعمرها واستنزف خيراتها واستوطن أرضها الطاهرة مثل أولئك العُربان بل إنهم فرضوا عليها بِ القوة لغتهم الميمونة وثقافتهم المبروكة!

(٣٤) (تفسير القرطبي ــ الجامع لِ أحكام القرآن) المجلد الثامن ــ ص ص ٥٧١٢ ــ ٥٧١٣ ــ كتاب الشعب ــ طبعة دار الريان لِ التراث ــ القاهرة ــ د.ن.

وإبّان تفسيره لِ ذات السورة ذكر محمد بن أحمد بن جَزِيّ الكلبي وهو يتناول آية (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم..): (فَ قيل في سببها إنها نزلت في وحشي قاتل حمزة، لما أراد أن يُسلم وخاف ألا يُغفر له ما وقع فيه من قتل حمزة).[٣٥]

* * *

لسنا بصدد الخوض في الخلاف الذي نشب بين أهل السنة والجماعة وبين المعتزلة حول غفران الله لِ جميع الذنوب هل هو متوقف على التوبة لأن مشيئته تابعة لحُكْمِه وعَدْلِه أم أنه يفعله حتى دون توبة، لأن مشيئته تابعة لِ ملكه وجبروته فهو يغفرها ولا يبالي؟

إنما الذي يعنينا هو أن الزمخشري ــ وهو معتزلي ويُعَدّ تفسيره خير مثل لِ تفاسير المعتزلة ــ ذكر عن الآية الكريمة: «وقيل إنها نزلت في وحشي قاتل حمزة ــ رض ــ».[٣٦]

وهكذا تضافرت ثلاثة من أميّز التفاسير التراثية: سُنيّة ومعتزلة على إثبات صحة الحديث الذي رَقَمْناه في فاتحة هذا الفاصلة والذي حملته أربعة من مصنفات (أسباب النزول) منها اثنان من كتب السلف يعتبران من أهم ما دون في هذا العلم واثنان من المراجع (الحديثة أو المعاصرة). وبهذا تتامت براهين الثبوت عليه.

* * *

قبل ختام هذه الفاصلة يجيء مفيداً في صدد التوثيق أن هناك من ذهب إلى أن الآية ٥٣ من سورة الزمر مدنية رغم أن السورة التي احتضنتها مكية، منهم ابن جَزِيّ الكلبي، والجلالان المحلى والسيوطي.[٣٧]

ومن أصحاب مؤلفات علوم القرآن نكتفي بِ اثنين يعتبران من أعلام من أبدع فيها وهما الزَرْكَشيّ والسيُوطيّ.

---

(٣٥) (كتاب التسهيل لِ علوم التنزيل) لِ ابن جَزِيّ الكلبي الجزء الثالث ــ ص ١٩٧ ــ مصدر سبق ذكره.
(٣٦) (الكشاف) لِ الزمخشري ــ المجلد الثالث ــ ص ٤٠٣ ــ مصدر سابق.
(٣٧) (كتاب التسهيل) ــ الجزء الثالث ــ ص ١٩٠. و(تفسير الجلالين)
(٣٨) (البرهان في علوم القرآن) ــ الزركشيّ ــ الأول ص ٢٠٢ سابق.

وفي فقرة عنوانها (الآيات المدنية في السور المكية): سورة الزمر مكية غير قوله (قل يا عبادي...) الآية ٥٣.[٣٨]

أما السيوطي فَ أورده: «قال البيهقي: في بعض السور التي نزلت بِ مكة آيات نزلت بِ المدينة فَ ألحقت بها» قال ابن الحصّار: كل نوع من المكي والمدني منه آيات مستثناة.. وذكر أمثلة:

السابع عشر: من الزمر «قل يا عبادي... الآية ٥٣».[٣٩]

وأهمية توثيق أن الآية (٥٣ ــ الزمر) مدنية هو أنها تمثل الاستدراك الثالث والأخير الذي تلاه (الشارع) على العبد وحشى وبعد سماعه دخل حظيرة الإسلام أي أن هذه الآية أشرقت خصيصاً في هذه المناسبة أو لِ أجل هذا السبب وهو دفع قاتل حمزة إلى اعتناق الإسلام.

[٤]

هذا الاستدراك علته أن آية كريمة أشرقت فَ أصابت أتبعة (قدم صدق) الأوائل بِ فزع شديد إثر أن قرأها عليهم وهي «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» وهي الرابعة والثمانون بعد المائتين من سورة البقرة. ولهم عذرهم، فَ الحساب على ما يدور في خَلَجَات النفس وما يعتمل في حنايا الصدر وما يوسوس به القلب أمر صعب، خاصة أنها (= النفس) أمارة بِ السوء بِ شهادة القرآن المجيد ذاته.

فَ أرْقَلُوا (= هرعوا/ أسرعوا) إليه بل إنهم جَثَوا للركب بين يديه الشريفتين وبثوه شكواهم وحدثوا أن المؤاخذة على ما يبدون ويخفون تعني الهلكة لهم.

وامتعض من هذا الموقف وطلب منهم أن يسمعوا ــ يعني الآيات الكريمات وتوجيهاته الساميات ــ ويطيعوا دون نقاش وبغير اعتراض وبلا جدال، ومعناه أن يسحبوا ملاحظتهم وإلا تساووا مع تَبَع (الكُمّل) السابقين الذين قالوا صراحة: سمعنا وعصينا.

والذي فاقم الشأن تعقيدا وزاده مَرْجاً.[٤٠] وضاعف من كدر أن كبار الصحاب من النَزَحَة واليَثَاربة أسهموا في رفع الشكاية، أي أن تلك الآية

---

(٣٩) (التحبير في علوم التفسير) لِ السيوطي ــ ص ص ٥٣، ٦٠.
(٤٠) في (القاموس المحيط) لِ الفيروز آبادي المرج = القلق والاضطراب والاختلاط.

لم تقضّ مضجع الأخْيَاف (المختلطين) أو الخامدين أو الأزاعِر بل الحامّة (= الخاصة) والصــفوة والأماثل.

وإلى هذا الحد البالغ الحروجة ورغم الأمر الحاسم كما السيف القاطع بِ الطاعة المطلقــة والتسليم الكامل والإذعان الكلي فَ قد غدا من الحتم اللازم ورود استدراك يرد إلى الصــحاب ــ وهم عُدّته في نشر الديانة وسنده في إقامة الدولة ــ هدوء سرهم وراحة بالهم وسـكينة نفوســهم وشَرْح صدورهم وبرد قلوبهم وطمأنينة أفئدتهم.

وهكذا تلألأت الآية المُصلّية (= التالية لها) من ذات السورة العظيمــة فَ روت ظمــأنهم وبَلّت صداهم وأذهبت عطشهم إلى الأبد:

(روى أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال:

ولما نزلت هذه الآية (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ٢٨٤ البقرة، جاء أصحاب رسول الله ــ ص ــ إلى النبي فجَثَوا بين يديه لِلركُب وقالوا: يا رسول الله إن كنا نؤاخــذ بما أبْدَيْنا وأخفيْنا لقد هلكنا، فقال رسول الله ــ ص ــ أتريدون أن تقولوا كما قال من قبلكم:

سمعنا وعصينا؟

قولوا سمعنا وأطعنا فلما اقترأوها وزلّت بها أنفسهم أنزل الله تعالى:

(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون) ٢٨٥ ــ البقرة.[٤١]

وأضاف أن مسلماً وغيره رووه عن ابن عباس.

وذكر الواحديّ أن على رأس الصحب الذين جاءوا إلى (صاحب التاج) وأبدوا لــه تلــك الملحوظة أو ذلك التحفظ من المنازيح = أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف، ومن بني قَيْلة: معاذ بن جبل وناس منهم وأضاف أن الحديث رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع.[٤٢]

أما صاحب (المقبول) فقد ذهب إلى أن الحديث أخرجه أحمد ومسلم عن أبي هريرة، أمــا النسائي فقد أخرجه عن ابن عباس وأن له رواية عن ابن عباس ووصفه (الحديث لا ابن عبــاس) أنه صحيح.

وذكر أن ابن عباس أكد أن المسلمين وجدوا (= حزنوا) عندما سمعوا

---

(٤١) (لباب النقول) لِ السيوطي ــ ص ــ ٣٦ مصدر سابق.
(٤٢) (أسباب النزول) لِ الواحديّ النيسابوريّ ــ ص ٦٠ مصدر سابق.

الآية ٢٨٤ ــ البقرة. (وإن تبدوا ما في أنفسكم) حتى جاءت الآية المصلية ٢٨٦ ــ البقرة (لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها) وأردف المصنف أن الحديث أخرجه الحاكم وابن جرير أي الطبري عن الزهري وأنه (الحديث لا الزهري) صحيح الإسناد.(٤٣)

* * *

هذا ما أورده أصحاب مصنفات (الأسباب).

فـَ ماذا رقم (المفسرون) ومؤلفو كتب علوم القرآن الكريم الأخرى؟

ونبدأ بـِ ما أورده القاضي أبو بكر ابن العربي في مؤلفه (الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم) إذ زَبَر ذات الخبر الذي سطرناه قبل قليل ولا مدعاة لِ تكراره.(٤٤)

وأول ما نبدأ به في نطاق المفسرين، ما زَبَدَنا به شيخهم نعني الطبري:

(عن مجاهد قال: كنت عند ابن عمر فقال: «وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه» الآية، فبكى فدخلت على ابن عباس فذكرت له ذلك فضحك ابن عباس فقال: «يرحم الله ابن عمر وما يدري فيمَ أنزلت؟ إن هذه الآية حين أنزلت غمّت أصحاب رسول الله ــ ص غَمّاً شديداً وقالوا:

يا رسول الله: هلكنا! فقال لهم رسول الله ــ ص ــ قولوا: سمعنا وأطعنا. فنسختها: «أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ــ ــ إلى قوله: وعليها ما اكتسبت»..(٤٥)

ويبين من هذا الأثر ما يقال عن العدويّ ابن العدويّ: عبد الله بن عمر بن الخطاب أن درج على التفسير الحرفي للنصوص واتباع ما جاء بها

---

(٤٣) (المقبول) ل أبي عمر نادى الأزهري ــ ١٤٩ ــ ١٥٠ ــ مرجع سابق.
(٤٤) (الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم) للقاضي أبي بكر بن العربي/ تحقيق عبد الكبير العلوي ــ الجزء الثاني ــ ص ٣٤ ــ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٩٨م ــ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ــ المملكة المغربية.
(٤٥) (تفسير الطبري ــ جامع البيان عن تأويل أي القرآن) لِ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ــ ٢٢٤ ــ ٣١٠هـ تحقيق محمود شاكر ومراجعة أحمد محمد شاكر ــ الجزء السادس ــ ص ١٠٨ ــ الطبعة الثانية ١٠٧١ دار المعارف.
(٤٦) (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام) لِ على سامي النشار ــ ص ٣٨٠ ــ الجزء الأول ــ الطبعة الثامنة ١٩٧٧ ــ دار المعارف بـِ مصر.

والتقيد دون أي حيدة أو تمييز، بل إن عمرو بن عبيد (من زعماء المعتزلة) هاجم عبد الله بن عمر واعتبره حشوياً.[٤٦]

ولعل القارئ يسأل ما المقصود ب الحشوية؟

(هناك بعض النصوص تقرر أن عمرو بن عبيد هو أول من أطلق هذا الاسم وأنه سمى به عبد الله بن عمر، فقد كان عبد الله بن عمر يقبل الأحاديث والسنن والآثار، كيفما كانت).[٤٧]

ثم عود إلى سياقة التنقير:

الفخر الرازي يضع في حجورنا لائحة بِ أسماء كبار التبّاع الذين هرعوا إلى (أذن خير) غِبّ أن هلّت الآية (وإن تبدوا ما في أنفسكم):

(يروى عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت هذه الآية جاء أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ (= ابن أبي جبل) إلى النبي ــ ص ــ فقالوا: يا رسول الله، كُلفنا من العمل ما لا نطيق، إن أحدنا ليحدث نفسه بِ ما لا يجب أن يثبت في قلبه وإن له الدنيا. فقال النبي ــ ص ــ فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل سمعنا وعصينا، قولوا سمعنا وأطعنا، فقالوا سمعنا وأطعنا واشتد ذلك عليهم فمكثوا في ذلك حولاً فأنزل الله تعالى (لا يكلف الله نفساً...)

نسخت هذه الآية، فقال ــ ص ــ «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا به».[٤٨]

هذا الأثر الشريف مليء بِ المعطيات رفيعة الدرجات منها:

١ ــ أن رؤوس المنازيح هم الذين آذتهم الآية الكريمة ويكفي أن يمشي في مقدمهم التيميّ عتيق صاحبه في الغار والعدويّ عمر بن الخطاب/ حموه أي والد زوجته حفصة وعبد الرحمن بن عوف أحد النجباء وعضو هيئة المبشّرين العشرة بِ الجنة ومن اليثاربة العرب معاذ بن جبل الذي أرسله قاضياً ومفتياً إلى اليمن.

٢ ــ أن قالة هؤلاء المتنفذين تَشِي بِ معارضة جارفة تصل إلى تخوم العصيان وتمثل ذلك قولهم (كُلفنا من العمل ما لا نطيق)، أي أن الآية

---

(٤٧) ذا المرجع ص ٣٧٤.
(٤٨) (مفاتيح الغيب ــ التفسير الكبير) لِ فخر الدين الرازي ــ ٥٤٤/ ٦٠٦هـ ــ المجلد الرابع ــ ص ٢٩ ــ طبعة الغد العربي ــ سابق.

الكريمة كلفتهم بـِ ما لا طاقة لهم به.

٣ ــ عندما أمرهم (الأوسط) بـِ الطاعة يبدو أن الأمر كما جاء بـِ الحديث اشتد عليهم أي رغم تلفظهم بكلمات السمع والطاعة استمروا في العُسْرة والمعاناة.

ولا شك أن (الألمعي) أدرك ما هم فيه من ضيق وعنت وكرب.

٤ ــ ومن ثم فإنه بعد عام كامل بزغت لكَ الهلال الآية الاستدراكية (لا يكلف الله نفساً... الخ) ومنه نعلم أن الاستدراك من الجائز أن يأتي مُصَلِيّاً (= تالياً) بعد سنة كاملة.

* * *

أما القميّ النيسابوريّ فـَ قد زَبَدَنا بـِ خبر ثمين إذ إنه حمل طرفاً من الحوار الذي جرى بين الأصحاب وبين (الناسك) وبعبارة أخرى أوضح اعتراضهم ثم رده عليهم:

(عن ابن عباس وأبي هريرة واللفظ له، لما نزلت (وإن تبدوا ما في أنفسكم... إلى آخرها) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ــ ص ــ فأتوا رسول الله ــ ص ــ ثم بركَوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كُلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والسلام والصدقة وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نُطِيقُها، قال رسول الله ــ ص ــ:

أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما قرأها القوم وزلّت بها ألسنتهم أنزل الله عز وجل (لا يكلف الله نفسا إلاّ وسعها).[٤٩]

التُباع في هذا الخبر وصلت بهم الحالة الشعورية التي انتابتهم بعد الآية الأولى أن بركوا على الركب ولْ نذكر أن الذي فعله سادة غطاريف لا عُبدان أو موالى بل ولا بُغاث أوْشَاب أغْمَار، حتى وإن كانوا أحراراً. مما يقطع بـِ أن وقع الصدمة غائر وليس سطحياً وذكروا له أن الأعمال أي الأوامر أو التكاليف التي أمرهم بها أدوها على الوجه الأكمل.

---

(٤٩) (غرائب القرآن) لِ القميّ النيسابوري ــ المجلد الثالث ــ ص ٣٢.
(٥٠) (نظام الغريب في اللغة) لِ عيسى الوحاظى الحميري ــ تحقيق محمد بن علي الأكوع ــ باب أسماء السيوف ص ١٢٧ ــ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م ــ دار المأمون لِ التراث ــ دمشق ــ الشام.

بيد أن فحوى الآية لا يطيقونه، وهنا صكّهم بِ رد قاطع كما الصِمْصَام الجرّار أي السيف القاطع[٥٠] بِ أنهم بهذا المسلك شابهوا حملة العهديْن القديم والجديد تبعة البطاركة أو الكُمّل (= مفردها كامل) السوابق حينما يسمعون الإصحاحات ثم لا ينفذون ما تحمله إليهم من أوامر وتكليفات ــ ودعاهم إلى السمع والطاعة ليس هذا فَ حسب بل لطلب الغفران.

ويضيف الخبر أنهم بعد أن قرأوها أو اقْرِئُوها زَلّت بها ألسنتهم.

وكلمة زَلّ لها العديد من المعاني منها:

زَلَقَ ومثلما يزلّ الشخص في الطين، كذا في المنطق أو القول وأزلّه الشيطان عن حق وزَلّ من الشهر كذا: مضى وزَلّ الفرَسَ: أسرع وزَلّ عمره: ذهب، وزَلّ الدرهم: نقص وزنه، وذهب فلان زليلاً وزلولاً: سريعاً[٥١] وكلها توحي بِ عدم الاكتمال والعَوَز إلى التمام والافتقار إلى البسط والحَوْجة إلى السعة مع التسرع والهرجلة[٥٢] أي أن الصحاب تَعَجلوا في الحكم على الآية المجيدة فأنزلقت ألسنتهم وهَدّمَلت نفوسُهم وشَطَنَتَ[٥٣] (= بعُدت) عقولهم وكَ محصلة أكيدة (أنزل الله في أثرها: آمن الرسول.. الخ).

بيد أن القميّ النيسابوري وضع أيدينا على معلومة هامة، هي أنه بعد أن وردت آية (وإن تبدوا ما في أنفسكم..) التي أهمّت الصحبة وآدتهم (بالدال لا بالذال) ورفعوا بشأنها شكواهم بَزَغت آية كريمة هي (آمن الرسول...) توسطت بين الأولى والأخيرة وكأنما جاءت مقدمة لآية الاستدراك الأخيرة أو الثالثة وهي (لا يكلف الله نفساً..)

إن هذا الرأي الذي ساقه المصنف يتسم بِ الجِدّة إذ لم نقرأه لِ غيره ممن أطلعنا على كتبهم.

وبِ المعقولية لِ النسخ أو ما نسميه الاستدراك من المقبول منطقياً أن تسبقه فترة تمهيد أو إعداد أو تهيئة في هذا الموقف على وجه التعيين. لماذا؟ لأنه يتعلق بِ الناحية التربوية أي تربية (القارئ = الجواد) لِ أصحابه. ولعل هذا يزيح الستار عن علة ما زَبَره الفخر الرازي من أن

---

(٥١) (أساس البلاغة) لِ الزمخشري ــ الأول و(المختار من صحاح اللغة).
(٥٢) هي الاختلاط في المشي من (القاموس المحيط) لِ الفيروزي آبادي ــ الجزء الرابع.
(٥٣) ال هَدّمَلَة: مشية فيها قَرْمَطَة ــ ذات المصدر والجزء.

الاستدراك تهادى بعد حَيْل (= حول) كامل.

بخلاف الاستدراكات المتقدمة التي تحتم ظهور آياتها الكريمة إما على الفور وإما على رَيْث إنما لا تنتظر لِ مدة اثنى عشر قمراً.

ولعلنا بِ ما قدمنا قد أفلحنا في طرح البراهين القواطع على صحة انبثاق الاستدراك الذي حملته خواتيم سورة البقرة والذي جاء رداً على ملاحظة حازبه تقدم بها وهم جاثون على ركبهم جَمَاجِم[٥٤] الصحبة من منازيح وأثاربة.

---

(٥٤) جمع جُمْجُمْة، وجُمْجُمْة القوم: رأسهم (شجر الدر) صنعة أبي الطيب عبد الواحد اللغوي ــ ت ٣٥١هـ ــ تحقيق محمد عبد الجواد ــ ص ٤١ ــ الطبعة الثالثة ــ ١٩٨٥ ــ دار المعارف ــ ب مصر.

في ختام هذا الباب الأول:

لعلنا قد وفقنا في تقديم البراهين المؤكدة والحجج الدامغة والأدلة المؤثقة على قيام الوشيجة المحكمة والآصرة المتينة والرابطة القوية بين (الفرقان = القرآن) والذين توجه إليهم بِ الخطــاب على كافة المستويات ومختلف الصُّعُد وفضلاً عن شدة الأسْر التي تسمها فهي ليست علاقة جامدة (استاتيكية) أو ذات طرف واحد، بل هي (ديناميكية) متحركة ذات طرفين، صاعدة ومــردودة أي قبول وإيجاب، طِلبة «بِ كسر الطاء» وتفاعل معها، رغبة وتحقيق، وفي أحيان ظُلامة أو شِــكاية في مقابلها رفع لِ علة التظلم وإزالة ل سبب التشكي وفي أحيان ثانية رجــاوات وموافقــة عليهــا وأحياناً أخرى استبيانات تقابلها استدراكات تزيل اللبس وتنفى المرج وتفك المعضلة..

وهكذا.. ونخرج من جِماعه أنها علاقة جدلية.. وهي بِ هذه الخاصية النادرة غدا حتمــاً مقضياً وضرورة لازمة وفرضاً محكماً أن تَهلّ الآيات نجوماً وتفاريق وهي (= الخاصــية) التــي أكسبت (أحسن الحديث/ القرآن) الحيوية والنضارة والفتاء والعطاء المستمر والتــي ميــزن عــن توراة موسى وإنجيل عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم.

ومن رجا آخر منحته سمة العناية بِ الواقع الذي عاشوه ساعة بزوغ آياتــه الكريمــة وبِ النوازل التي لقيها الذين أمّتهم (قصَدتهم) بالخطاب وبِ مشاكلهم وأحوالهم وتقلباتهم اليومية، ومــن هذا المنطلق فإن ادعاءات التعالي والمفارقة والتغريب والفصم والتجريد.. الخ، التي ينــادي بهــا كثيرون ــ لِ حاجات في نفوسهم ــ قد رفعت الستور عن بطلانها وبددت الحُجُب التي تمنع رؤية فسولَتها وأزيحت الغيوم التي تواري زيفها وظهر لكل ذي بصيرة أن القرآن العظــيم هــو وحــده كتاب الحياة.

المحتويات

السفر الأول

الباب الأول

آيات كريمة أشرقت تحقيقاً لِ رغبة القائد وأخرى تلبية لِ رجاوات تبعه

* * *